

سونا

مار

BOBST LIBRARY



3 1142 02346 4715

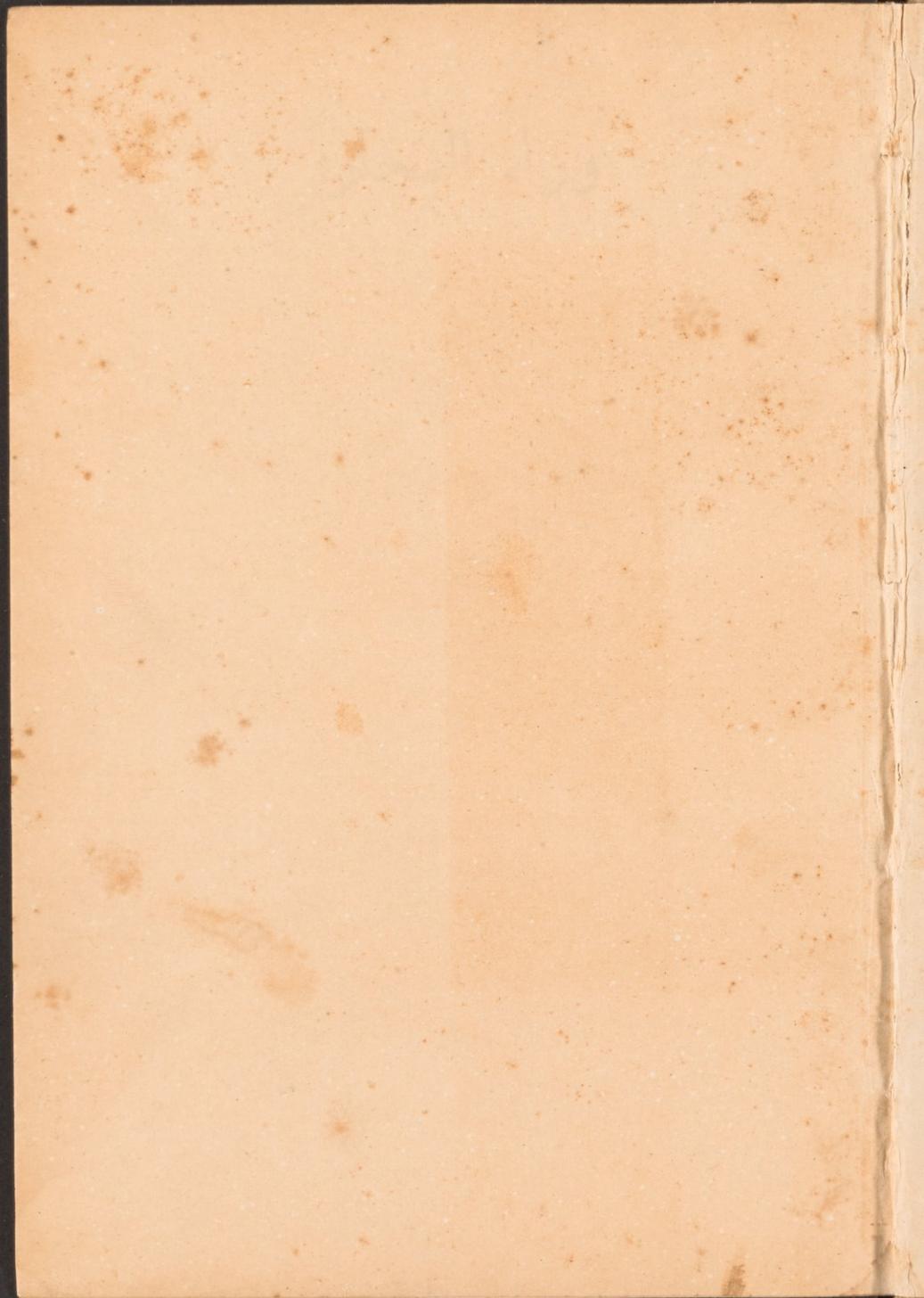


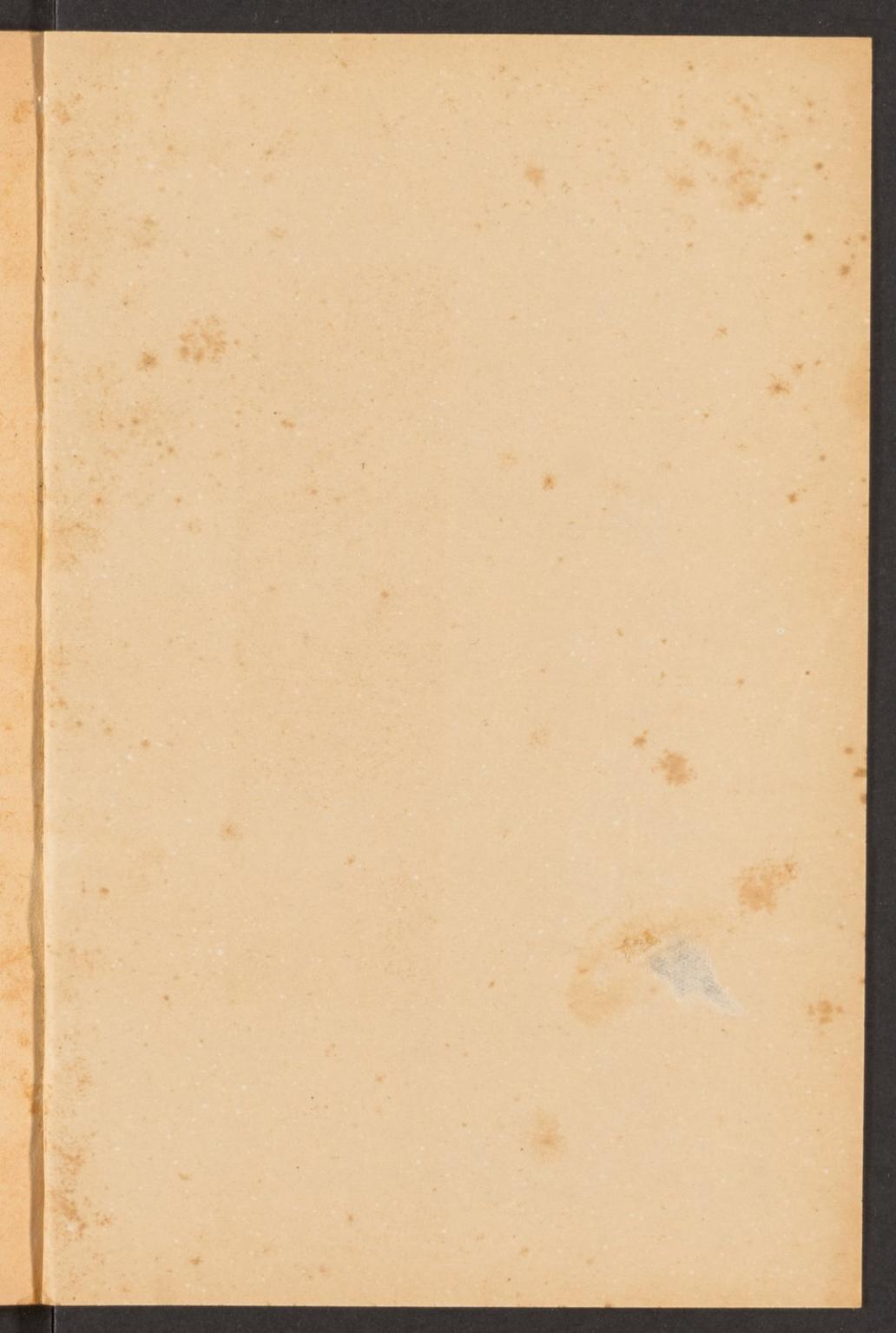
New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE

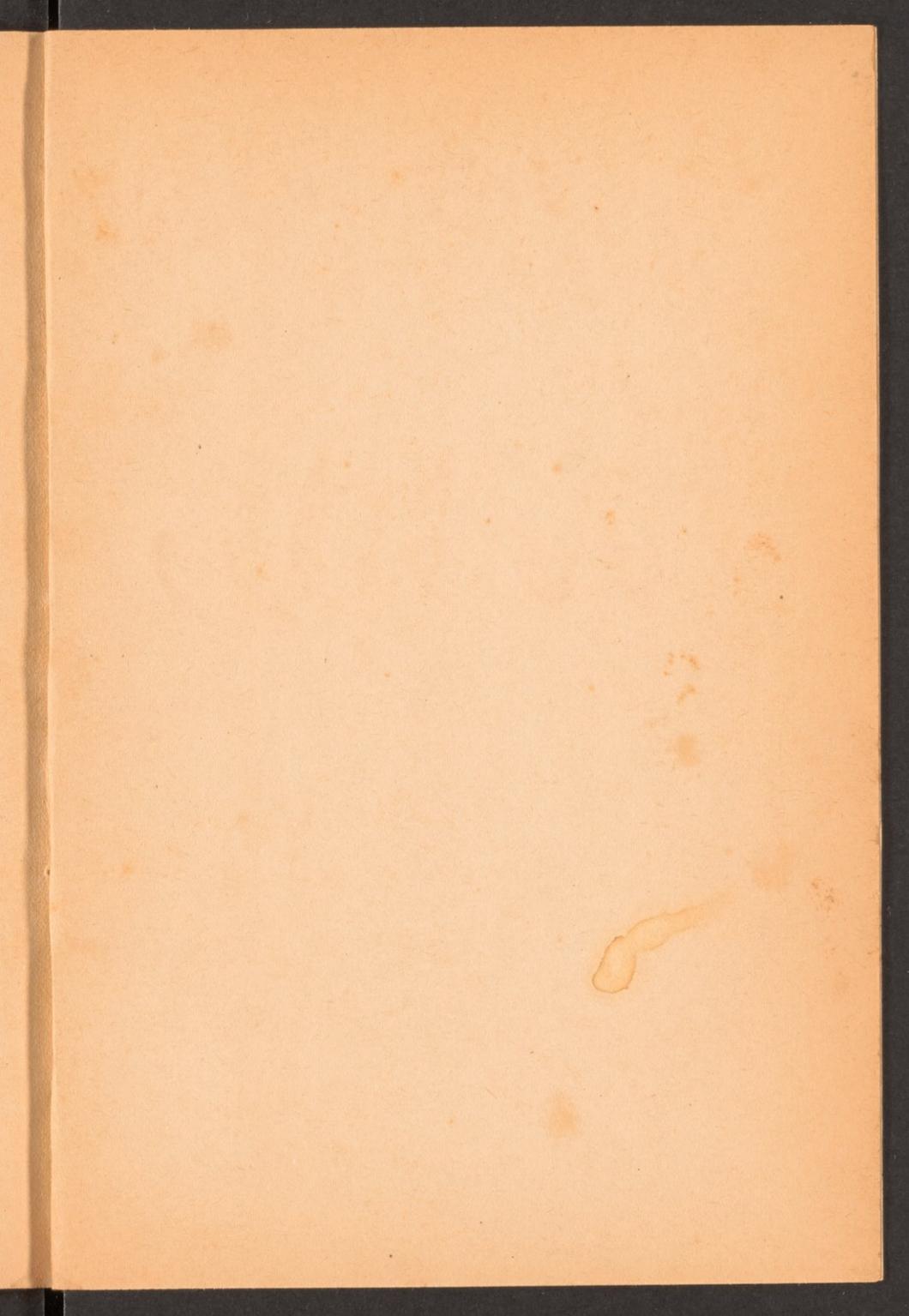
DUE DATE

| DUE DATE | DUE DATE |
|----------|----------|
| | |
| | |
| | |





وراء البحار





مؤيد المفضل الأستاذ
اليدى قنصل

ع. يحيى الزاوية
المخلف

وَرَاةُ الْبَحَارِ

محمود محمود
بوعزيز
١٩٢٦

اسم وعنوان المؤلف
محمد أمين حسونه
ع. شارع كفر الزيات

محمد أمين حسونه

مصر الجديدة
ضواحي القاهرة
مصر

D

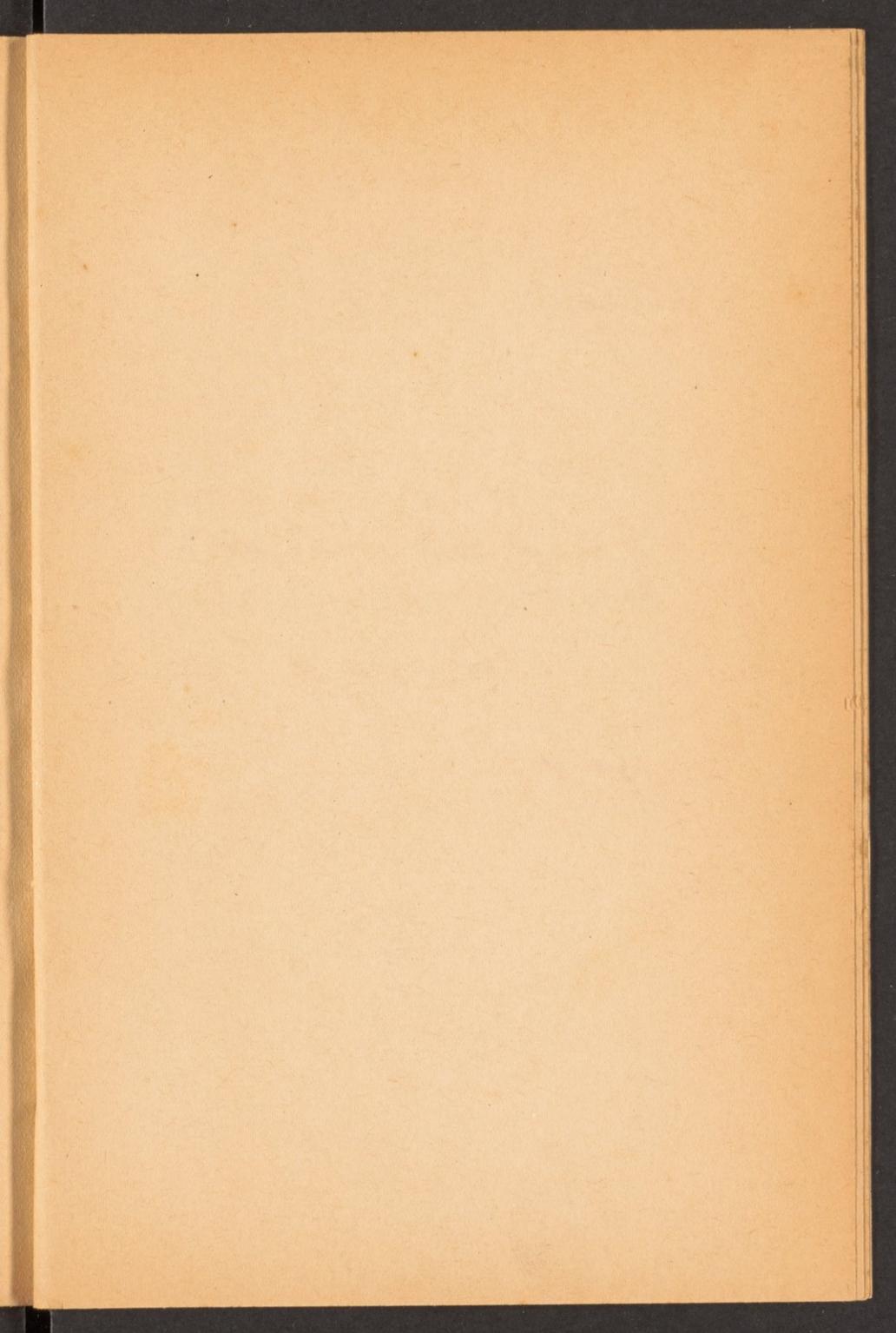
921

H26

1936

v. 1

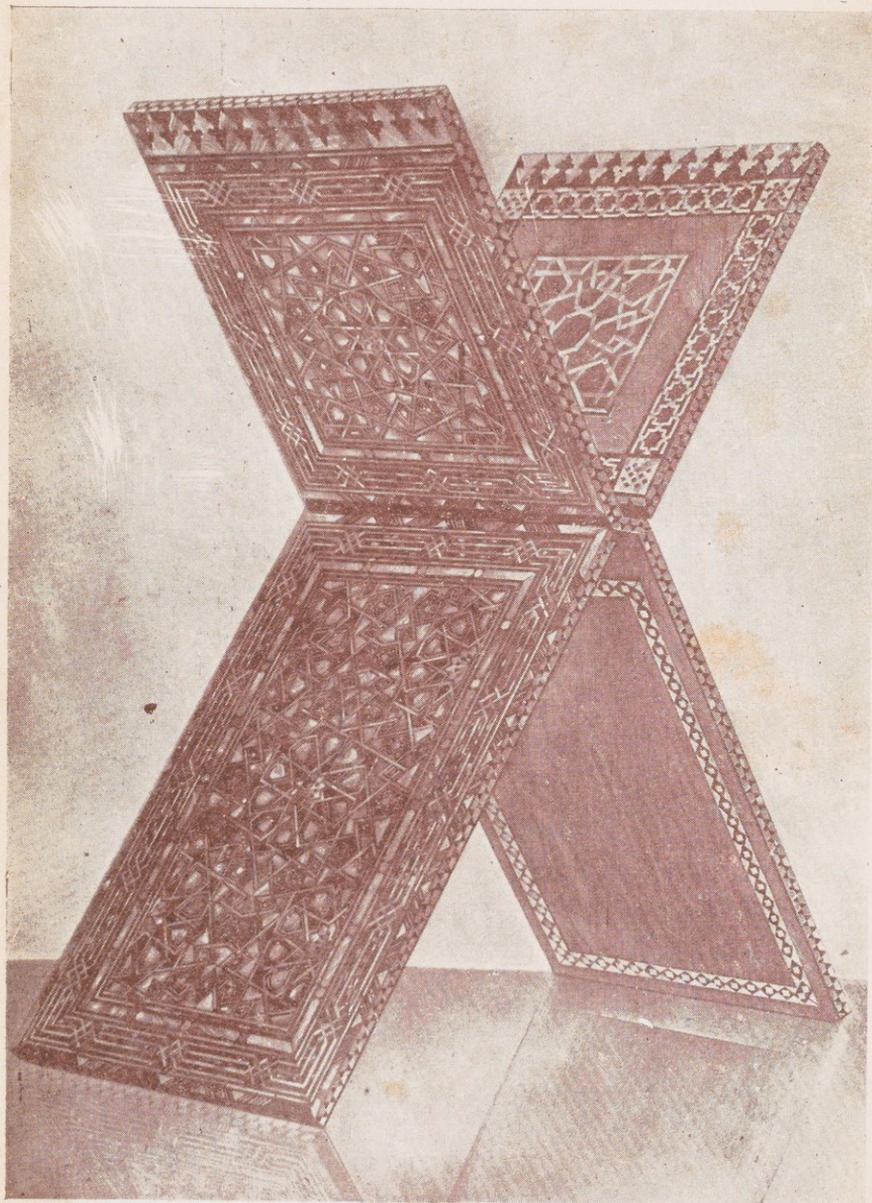
كافة حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للمؤلف



فصول الكتاب

| | |
|--------------------------|-----|
| الرحيل | ١ |
| على أطلال الأكرابول | ١٢ |
| أثينا | ٢٢ |
| في المتحف الوطني | ٢٨ |
| استامبول | ٣٧ |
| تركيا الجديدة | ٥٢ |
| غروب شمس في البحر الأسود | ٦٥ |
| في رومانيا | ٧١ |
| بوخارست | ٧٧ |
| باريس الصغرى | ٨٥ |
| تأملات في بحيرة سناجوف | ٩٦ |
| في جبال الكربات | ١٠٦ |
| أيام من الدانوب | ١١٥ |
| بودابست | ١٢٤ |
| ملكة الدانوب | ١٤٥ |
| الاسلام في بلاد المجر | ١٦١ |
| فيينا | ١٧٥ |
| إلى قم الألب | ١٩٠ |

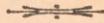
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ





الرحيل

سلام أمها الفلك الابر بلغت بنا الربوع فانت حر



نحن الآن على ظهر الباخرة « رومانيا ». الوقت بعد الظهر
بقليل ، وقد غصت الباخرة بجمهور المودعين ، على حين ظهرت بين
القبعات المتشابهة التي تملأ الشرفة ، بعض الوجوه القسيمة السمراء ،
تعلموها الطرايش الزاهية الحمراء . وجوه المصريين الذين جذبهم
الدعاية عن رخص المعيشة في مصايف الارخبيل اليوناني ، فأندفعوا
اليها زرافات ووحدا نا !

الساعة الرابعة إلا دقائق

وداعا يا اسكندرية ! ها هي الباخرة تتحرك بنا في رشاقة
وخفة ، وها نحن أولاء نقوم من مقاعدنا متناقلين على صوت
صفيرها وأزيز محركاتها ، إيذاناً بمغادرتها الميناء ، نودع أحبنا
وأصدقاءنا الذين يلوحون لنا بالمناديل البيضاء ، عن بعد في القضاء ،
ويدعون لنا بسفر سعيد . وها نحن نوزع البصر فيما بينهم ، حتى
إذا ما توارت أشباحهم ، أخذنا نودع الاسكندرية برمالتها
وشواطئها ومستحباتها ، وطريق « الكورنيش » الذي يزينها ،

ذلك الطريق المفروش بأحلام الحب وخطى السعادة المفقودة .
وتزلق الباخرة خارج البوغاز فتبدو الاسكندرية كرقعة مزر كشة
في ثوب الصحراء الطويل الاصفر ، وقد خلعت الشمس عليها أشعتها
الذهبية ، فسورها بقضبان من ذهب .

إيه يا اسكندرية ! أيتها المدينة الحاملة في لجج البحر
اللازوردية ، يا عروس الاسكندر وتاج قيصر وعرش كيلوبترا ،
لست اليوم أقل فتنة منك بالامس ، فقديماً حمل الاغريق الى
شاطئك بناتهم ، والرومان فتياهم ، وشهدت سواحلك ألواناً متباينة
من الشعر والغرام ، وسرت في جوك الرطب همسات القبيلات الخافتة
في جوف الظلام

بهذه الاحلام الذهبية أودعك اليوم قبل أن تحملني مياه البحر
الايض بعيداً عن سناك الفتان .

...

ها هي أطراف الاسكندرية وأبراج عمائرها تحتني دفعة
واحدة كأنما ستاراً أسدل عليها بفتة ، فأحس قلبي يكاد يتزع من
كياني انزعاً ، ونفسي تطير شعاعاً نحو الشاطئ ، ... نحو الاحياء
الذين تجمعنا بهم وشائج الدم وروابط القلب ، وكلما بعدت بنا
الباخرة عن أرض الوطن ، شعرت كأنني اقتطعت جسماً من ثراه ،
واجترزت أوصالي من حماء .

وتلفت حوالى فاذا بنا في عرض البحر ، فعلى اليمين ماء وعلى
اليسار ماء وفي كل ناحية برتمي في فجاجها البهر ماء ، واذا الموج

منبسط كصفحة الفولاذ ، لا عوج فيها ولا التواء . فتحنتنا أغوار
وأعماق ، وفوقنا نطاق لا يحده المرمى ، وحولنا فضاء لانهاية له ،
والجمال منثور في الافاق . جمال اشترك في تكوينه البحر وهدوء
أمواجه ، وصفو السماء وزرقة أديمها ، حتى اجتمعت لنا من كل
هذه الصور الباسمة رقة الطبيعة وحنانها .

ما أعظم الفرق بين الحياة على ظهر الارض وبين الحياة على
ظهر الموج !

على الارض يبطش الانسان ، ويتناول بالتدمير كل شيء ،
تروعه مظاهر السلطات وفوارق الطبقات ، فيتنافس تبعاً لاتساع
رقعة الارض أو ضيقها ، ويحاول ان يخلد ذكره ويعلى من شأنه
في سجل الوجود .

أما على الموج فلا شيء من هذا مطلقاً ، لا تخوم تحرسها
الجنود والمدافع والدبابات ، ولا سلطان إلا سلطان البحر ، الجامع
بين البطش والشدة ، والفزع والجمال .

في البر يقف الانسان آثار من سبقوه ويتتبع معالمهم فوق
الترى ، ولكن أمواج البحر تمحو كل ما ترسمه البواخر
والاساطيل على صفحة الماء ، ويظل البحر كما كان ، لوحة منبسطة
ملساء ، باقياً على خلوده ومجده ، كعمر لا ينقضى ...

والانسان على الموج ، ما قيمته وما شأنه ؟ مخلوق ضئيل نافته
يملاً الخوف والخشوع أطرافه ، ويتغلغل الايمان في أعماقه ، فيرى
للطبيعة روعة لا تدانيها روعة ، وآية تتضاهل أمامها آيات مجده ،

وعصمة ليس لها من عاصم الا الله .

في البحر تزول الفوارق وتمحي القوميات ، وترتبط القلوب
 بوشيجة تألف خفية ، وتتخذ السفين مظهرأ من مظاهر الانسانية
 في أسمى صورها ، فيتجرد السفر من ميولهم الشخصية ويتسامون
 عن مستوى الخلافات الفردية ، فكأنهم انفصلوا عن العالم انفصالا
 أبدياً وأصبحوا جزءاً من الهواء والماء . يندمجون في صعيد واحد
 وتجتمع أمانيتهم في أمنية واحدة ، فلا بغض ولا انتقام ، ولا تنافس
 ولا حسد ، كأن يدأسحرية عجيبة مست شغاف قلوبهم فنفت عنها
 أدرانها وطهرتها من أكدارها . فاذا رست الباخرة على الشاطئ
 وعادوا الى أمهم الارض ، تبعثرت أمانيتهم وتفرقوا شيعاً واحزاباً .

.....

يدر كنا المساء ويتقدم بنا الليل فهبط الظلمة رويداً رويداً ،
 وتبتلع الباخرة في جوفها ، ويفرق البحر في لجة من سواد مداهم ،
 إلا أنواراً ضئيلة متراقصة تنثرها الباخرة على حوافي الموج
 خيوطاً خيوطاً

ويدق جرس العشاء ، فينطلق الفوج الاول إلى قاعة الطعام .
 ويطلب لى أن أظل ناعماً بوحدتي حتى يحين موعد الفوج الثاني
 فادخل في زمرة الداخلين .

أغشى قاعة الطعام ، فالقى المائدة قد جمعت حولها خليطاً من مسجن
 ولهجات متباينة ، واتفق أن جلست أمامي فتاة تشكية شقراء ،
 طويلة القامة ، كأنموذج للجمال النسوي في أبهى صوره ، ولم تكن

عيون السفر لتتحول عنها ، بل لقد هم فريق من الشبان للحفاوة بها
 والتودد اليها ، وكان في طرف المائدة قسيس يوناني ظل يحرك شففته
 في خفوت كمن يتم بصلاة سرية قبل تناول الطعام ، ولكن الشبان
 ضاقوا ذرعا به ، فأخذوا يقذفونه بزوبعة من التهمك والسخرية ..
 فاذا فرغ السفر من العشاء ، وهضوا عن المائدة انصرفوا إلى
 مخادعهم ، البعض يشكو دوار البحر ، والبعض الآخر موزع النفس
 بين أحاسيس ومشاعر شتى .

واخترت أن أخلو بنفسى ساعة فأصعد إلى الجسر أخطر
 عليه جيئة وذهابا ، وأجتلى ليل البحر ومافيه من سحر وجمال .
 ويهب النسيم فأفتح له رثي نقياً خالصاً . ثم أروح أتكيء على
 الحاجز الحديدى ، مرسلا بصرى في المياه المتراقصة ، وفي الموج
 المصطفق ، محاولا أن استشف ما تحته . ولكنى لم أر سوى
 ظلام في ظلام ...

وياجمال الليل في البحر ! إنه ليل مروع ساحر ، ترى سدول
 الظلام جائمة على ظهر الموج ، بحيث تبعث في النفس ألواناً من
 الرهبة وخشوع الاستسلام ، وتلمح النجوم في قبة السماء ، كلية
 حائرة ، كعقود من الضوء تفصلها كتل من الماس الاسود ...
 فقليل من سكان المدن من يعرف لذة التحديق إلى السماء في حلقة
 الليل ، ولكن راكب البحر يعتاد بحكم وحدته أن يسامر النجوم
 ويناجى القمر ، ويرتفع عن هذه العوالم المادية الي سماوات مشرقة
 عليا ، تطالع فيها آيات مجد الجمال وانتصاره الهادى .

في هذه الوحدة الشاملة يطمئن ما حول الانسان، وتغمر النفس احساسات مبهمه شتى، وتتلاشى حوادث كانت تبدو على جانب من الاهمية عظيم. ما قيمة الحياة اذا عشناها ناهين أو خاملين، سعداء أو أشقياء، أغنياء أو فقراء؟ وماذا ينفع الانسان جبروته وسلطانه أمام هذه القوة الازلية التي لا تقنى ولا تزول؟ ما أجدر أولئك الذين يمشون في الارض مرحاً كأن الخلود قد علق بجباهم أن يقفوا في مثل هذه الساعة العظيمة لتنجاب الظلمات عن عيونهم وينوب كبرياؤهم في زبد الامواج، فيشعروا بضؤ ولتهم أمام هذا الله السرمدي، صاحب السيطرة في كل العصور.

...

وفي السفين يستيقظ الناس مبكرين على أشعة الشمس، وهي تنفذ إلى القمرات من خلال الزجاج الازرق السميك، فاذا بدت تباشير الصباح وزايلوا مضاجعهم، كان أول ماتقع عليه أبصارهم وجوه الركاب يتفرسونها ويتعرفون إلى أصحابها، وقد تراهم على الجسر، مستلقين بأجسامهم المتعبه المكدودة فوق مقاعد مريحة يستقبلون الشمس ببسمة هادئة مطمئنة، أو يلهون بالقراءة الخفيفة، أو يتجادبون حديثاً يرفهون به عن نفوسهم. وكان كل ما يحيط بي لا يزال يذكرني بأني أعيش في قطعة من بلادى، فهؤلاء أصدقائي يتحدثون إلى بالعربية عن أمور أعرفها وأمور أجهلها، وقد يتلمسون هفوة صغيرة تبدر من أحدهم ليتخذوا منها أداة

للتسليمية والترويح عن النفس . وكانت الغادة التشكية قد اتخذت من جماها ودلالها فرصة للعبث والاستمتاع ، فهي تغازل كل من تلقاه وكل من تتوسم فيه السباحة ، وكان تبرجها وسيجارتها يعلنان عن نفسيتهما ، حتى إذا ما صادفت في قاعة الراديو ضابطاً رومانياً وسيم الطلعة من ضباط الباخرة ، راحت تتودد اليه وتتفرد به ، فيختليان بجانب « السكان » وقد يمضيان شطراً طويلاً من الليل على الجسر ، يتناغيان بأحاديث الهوى ، ويرشقان خمر الاحلام في ضوء القمر

وكان البحر في اليوم التالي نائراً مضطرباً ، وأمواجه تصطبغ فوارة كقطع من الغنم الابيض ، والباخرة تعلو بنا وتهبط ، تزجها ريح رخاء ، حتى اذا حبل الغروب تلطف الجو فاخفت الامواج تحت سطح المياه وأخذت الباخرة تشق طريقها في دعة وهوادة وطمانينة . وبدأ السفر يتسللون من مضاجعهم ، فمنهم من يقصد إلى المقصف يحتمى الخمر ويقتل الوقت في العبث أو في لعب الورق ، ومنهم من ينصرف الى قاعة الراديو للوقوف على أنباء العالم حيث يسخر العلم ما في الوجود من مادة لخدمة الانسان ، ومن النساء من تنطلق إلى قاعة الموسيقى تداعب البيانو أو تنعم بالرقص على نفحات الجاز بند ، لتدفع عنها سأم البحر وضجره ، فلا شيء أقتل للنفس من الوحدة التي تلقاها المرأة في البحر حيث لا تقع العين إلا على زرقة الماء وزرقة السماء ، ومظهر السفين يخطر بين الزرقتين .

ولست أخفي أن السأم غشي نفسي أيضاً ، فانزويت بعيداً
 عن الركاب ، وانتجيت ركننا هادئاً في مقدم الباخرة ، وفي يدي
 كتاب « ماري نوسترم — بحرنا » للكاتب الاسباني بلاسكو
 إيباريز ، أطالعه في ضوء الغسق بلذة لاتعادها لذة ، حتى إذا
 انتهت بي القراءة إلي شيء من الجهد والاعياء رفعت رأسي أجيل
 الطرف فيما حولي ورحت أفكر في المغزى من السياحة . لماذا
 نسافر ونشقى ونتحمل هذه « القطعة من العذاب » — كما وصفها
 العرب — اللزجة ؟ أم الاستمتاع بمظاهر المدنية ؟ أم للورود من
 مناهل الجمال ؟

إن السياحة على ما بها من متاعب وأخطار ، فيها لذة لا يألفها
 إلا من تعود الاستكشاف والتطلع ، إنها غريزة حب الاستطلاع
 وشهوة المعرفة كامنة في قرارة نفوسنا . فان من يشتهي أن
 يبسط ظله على المجهول ، ويتشوف إلى كشف ما يغيب عنه ، فيقيس
 حياته بمساحة هذا العالم المترامي ، هو الرجل الذي يعيش عيشاً
 إنسانياً صحيحاً .

وليس الكتاب الممتاز من قصر بحثه على بطون الكتب
 والمراجع ، ولكن الاسفار والسياحة والتنقل هي التي تغذيه غذاءً
 فنياً وتثقفه ثقافة ناضجة ، فتمهد له السبل لدراسة الناس وطباعهم
 ونزعاتهم والوقوف على دقائق تاريخهم وفنهم وأدبهم ، بحيث يشخذ
 ذهنه ويلب خياله ويبعث في نفسه أسمى صور الولوج بمظاهر الحياة
 فالسياحة جزء هام من برنامج الثقافة ، هي المحطة التي يبدأ

منها كل مفكر رحلته في سبيل المعرفة واستكناه الحقائق
واكتشاف المجهول ، بل هي الينبوع الروحي الذي ينقع فيه
الشاعر عاطفته المتعطشة إلى أسْمى درجات الجمال .

في التنقل ابتعاد عن حياة المدن ، وتحرر من ربة الواجبات
اليومية المتشابهة ، سواء في البيت أم في بيئات العمل . تحس من
أعماق قلبك وأنت تقيم في بقعة نائية يكتنفها الهدوء والمناخ
الصحو والتجرد من القيود العادية والانطلاق في أودية التأمل
أنك ظفرت بالمثل الأعلى للكمال ، وأنت تقترب من الله أضعاف ما
تقترب منه وأنت في بلدك .

والحياة في الفنادق الكبرى — سواء في المصايف أوفى
المشاتي — تختلف اختلافاً بيناً عما نألفه في بيوتنا وأوساطنا ،
فالفنادق مركز حركة عالمية ، بل إنها عوالم ذاتية قائمة بنفسها ،
وملتقى أقوام اغتربوا عن بلادهم ، واستعراض حضارات ولغات
وأزياء شتى ...

وفيما كنت أقلب هاته الخواطر وأشباهاها ، اقترب منى رجلان
وآنسة ، واستأذنوا في الجلوس . أما الرجل الاول فعلى ما يبدو من
حديثه عالم من علماء المصر ولوجيا في طريقه إلى اليونان لانه مولع
ببحث الصلة بين الحضارتين الفرعونية والاربيقية والرجل الثاني صحفى
بولندى صرف في مصر والشرق بضعة أسابيع ، يجمع معلومات
وأحاديث يغذى بها صحف بلاده . أما الأنسة فالمانية مثقفة
ودكتورة في الفلسفة من جامعة لينج ، تنزح عن بلدها في مطلع

كل صيف فتطوف ببعض أطراف العالم، وتلقى محاضرات ودروساً للشبان والاطفال الالمانيين في الخارج لتربط بينهم وبين الثقافة الالمانية، وكانت في زيارها الغلامى أشبه ما تكون بطفل يسيل رقة ومحبة.

ولمح الصحفي البولندي الكتاب وعنوانه، وسره أن يري أحد آثار أيبانيز في يدي، فطفح وجهه بشراً، وغمغم بكلمات فرنسية فهمت منها انه يعطف على هذا الكاتب الثائر الذي احتضنته فرنسا وقلده وسام الشرف، وبعد لحظة تناولنا الحديث في موضوعات متباينة، منها ما يخص السياسة الدولية ومنها ما يخص مصر، وهنا أراد أن يبرهن أمامي على أن سعادة الفلاح المصري ورخاء أرضه لم تكن شيئاً مذكوراً لولا النشاط الاوروبي الذي يغير ضفاف النيل، ولكن عند ما أبدى اعتراضى على جبهه الفاضح بشئون مصر، وأصحح معلوماته الخاطئة موضحاً له حالة الفلاح قبل أن يتقل الاوروبي كاهله بالدين والربا الفاحش والتلاعب بأقطانه في البورصة، تظهر علائم الحجل في سيمائه، ويعتذر الي في رقة ولطف.

...

تنقضي الساعات ويمر الوقت في توان وركود حتى يتبرم بعض السفر بالمنظر المتكرر المتشابه، فاذا كانت ساعة الغداء لفت نظري فريق من الشبان وقد اقتربوا من الجسر، بين أيديهم منظارات مكبرة، وهم يشيرون بأطراف أصابعهم إشارات تعيد إلى ذهني

ما طالعته عن ملاحى كولومبوس حين وقعت أبصارهم على الدنيا
 الجديدة فصاحوا بصوت واحد: « أرض ... أرض » فهذه هى
 كريت، ولدت آلهة الحب والغرام وتدفقت من ينابيعها
 الاساطير والشعر، تسمو روايتها فى السماء اللازوردية، فترى كيف
 تستيقظ الغرائز فى النفوس، وتتعلق القلوب بمسحة الجمال الحزين
 الباهت الذى تخلعه الطبيعة على جزيرة السحر والاحلام ...
 ولكن الباخرة لا تندفع نحو كريت، بل تمضى فى سيرها
 الى ارخبيل اليونان ...

في ظلال الاكروبول

« أيتها الحكومة الحزينة . انك خالدة
وان ضعفت ، عظيمة ، وان هويت . فليجهد
ذلك القلب الذي يشرف عليك ولا يخفق ،
كما تحفق قلوب العشاق فوق قبور عشيقاتهم . »
بيرون

لا تزال الباخرة تجوب بنا في لجة الماء، مجتازة أرخبيل اليونان،
لا تبدو أمامنا غير جزر جذباء قاحلة ، لا تزيئها خضرة ولا تدب
فيها حياة . فاذا حانت ساعة الغروب ، تجعد الطفل اللامع فوق
روايها فتخضبت في بهم الافق ككومة مشتعلة من النار .
وتسفر أضواء الفجر الشاحبة عن هذه الجزر المقطبة التي
تفجرت من صخورها العبقريّة الاغريقية ، فظلت متحركة في حضارة
العالم أجيالا طويلة . . . وتتكشف اليابسة والباخرة تقترب شيئا
فشيئا ، من هذه المساكن الوضيعة الثاوية في قمم الجبال كأعشاش
الزنابير ، فتندفع الخواطر الى ذهني خفافا . . . فهذه هي اليونان
القديمة ، ولدت الانسان الحق ، وأنجبت العباقرة الذين هدوا البشرية
بنور العلم وحملوا الى العالم الحضارة ، على حين كان الفكر الاوربي
مستغرقا في سبات عميق ، كيف نلقينا الآن بعد ما سلبت أوربا
صيتها ، وانتزعت حضارتها ؟

لاشئ في اليونان الجديدة غير فقر وجوع، وأزمات اقتصادية وسياسية تكاد تعصف بها عصفاً...

على أن هذه الجزر التي يرسم الفناء على جبينها الماحل، ثم هي تكاد تضيق الأفق الشاسع حتى يصبح كطوق من نور خاشع حولها، هذه الجزر رفعت بالامس الانوار الصادقة، في صفاء الجو وفي مهب العواصف، لاستمالة سفن الحق والحرية والجمال. فكل جزيرة كانت وحدة قائمة بذاتها، مكونة من دولة شبه مستقلة لها أفكار ومعتقدات خاصة ونظرات في الدين والاخلاق والفلسفة، حتى نما من اختلاط افكار أهل الجزر وتنوع التحزب بينهم ما انتفعت به العقلية الاغريقية من الوجهة العملية، وفي هذا المحيط الممتزجة أمواحه بصنوف المعرفة ومذاهب الحكمة والفلسفة والتشريع، طفت المدنية الاغريقية أمام المدينيات الانسانية العظيمة الاخرى.

وانطلقنا من الباخرة نتجول في شوارع بيرية، ليس في هذا الثغر ما يسر الخاطر، ولا ما يشرح النفس، غير بعض المقاهي ودور شركات الملاحة وعمائر يغلب عليها التقليد. ويقلنا ترام المترو في دقائق معدودة نحو « آلهة السلام وحامية العذارى » ولكن ليس في أيئنا اليوم ما يجذب الناس إليها غير آثارها التي تخلع عليها روعة وجلالاً، وتجعل منها مهبط عشرات العلماء والمشتغلين بالحفريات الحديثة وآلاف السائحين، يأتونها شتاءً أو صيفاً من أقاصي المعمورة ليردوا من ينبوع الذي تفجرت منه العبقرية الانسانية.

سألت نفسي وأنا أستقبل هذه العاصمة القديمة لأول مرة :
 أغريقية هي أم شرقية ؟ لقد حاول الاثينيون يوم أحرقوا الاسطول
 الفارسي ان يقسموا العالم بين شرق وغرب ، وان يقطعوا أوصال
 بلادهم من الشرق لتستغرب ، ولكن نظرة واحدة الى ائتنا
 تدفعنا الى الاعتقاد الجازم بأنها ليست غربية ولا شرقية ، وأن
 أهلها يقتبسون من كل بلد ، ويحاكون كل حضارة ، فهم مقلدون بعد
 أن كانوا مبتكرين ، حتى جاءت عاصمتهم خليطاً مشوشاً لحضارات
 الغرب والشرق .

من المعتقدات اليونانية القديمة ان أتنا ا كتسبت هذا الاسم
 لان « نبتون وأتنا » تناظرا في الحصول على شرف سيادة العاصمة ،
 وقام الملك اركتيوس حكماً بينهما ، فمن يقدم أعز الهبات وأنفس
 الهدايا ظفر بالاولوية ، فتقدم نبتون وضرب الارض بعكازه ، فشقت ،
 وخرج منها جواد يقفز ففسر بانه « رمز الحرب » . وتقدمت أتنا
 وكانت قد خرجت من رأس زيوس أبي الآلهة مدججة بسلاح
 الحكمة ، ومست الارض بعصاها فنبتت للحال شجرة زيتون
 « رمز السلام » وكانت هديتها بالطبع هي المقبولة .

من ذلك الحين أطلق على أتنا « آلهة السلام وحامية العذارى »
 والتصق الغوز والنصر باسمها ، وظلت عذراء وصانعة عذرة
 الاثينيات ، وقد أشير الى ذلك برمز فوق الاكروبول ، على
 هيئة غصن زيتون ، بل ان أعظم نصب أقيم في الاكروبول كان

لاتينا ، وقد تصورها المثالون بشكلين ، الاول وهى جالسة على عرش ويديها الى ركبتيها أو فوق صدرها . والثانى وقد مدت ساقها كأنها تخطو إلى الامام .

...

عمر في طريقنا الى الاكروبول بدار البرلمان والمكتبة الاهلية والاكاديمية والجامعة ، وكلها مشيدة جنباً لجنب ، لاشئ عفيها يستحق الرعاية والاهتمام غير النصب التذكارى الذى أقامه اليونانيون للورد بيرون الشاعر الانكليزى الذى حارب في صفوفهم ضد الاتراك ، وسقط مجتهداً فى واقعة ميدولنجى فاعترفوا بفضله وأقاموا له نصباً تذكارياً رائعاً .

وليس بيرون هو الشاعر الانكليزى الوحيد الذى استهواه التراث الاغريقى الخالد ، وأغراه بالانتصار للشعب اليونانى ، بل أن زميله الشاعر الشاب روبرت بروك انخرط فى سلك الجيش اليونانى واستشهد فى الحرب العظمى .

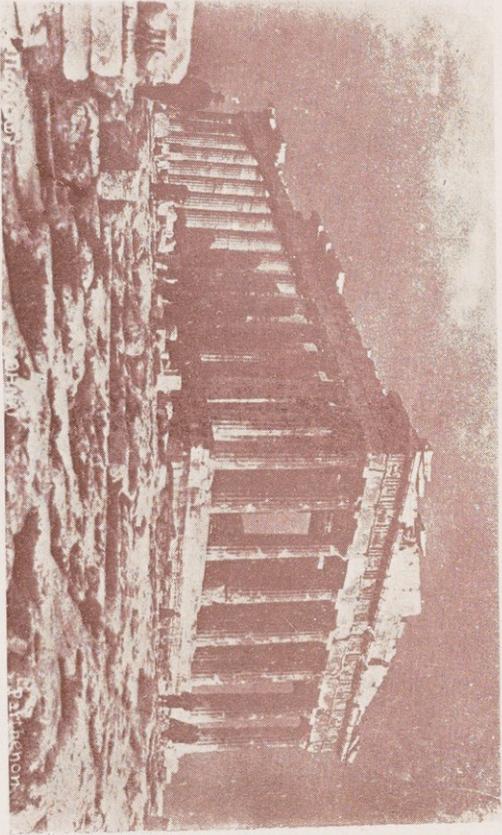
ذلك ان اليونان فى نظر الشاعر أو الفنان الاوربي بلاد يكسوها جمال رائع ، لا يكاد يشدر حاله إليها حتى يدرك سر الالهام فى الفن ، والقدرة على التعبير عن شتى معانى الجمال .
تنطلق السيارة بنا فى طرق متشعبة ملتوية بعضها معبد ، والبعض الآخر مترب يثير الغبار فى العيون . . ولكن ما هذه الابنية السامقة التى تعلو سفوح البتل مطلة على أبنينا كإسوة سوداء تتألق فى تاج أمير هندى ، لله ما أجلها وأعظمها !

هذا هو الاكروبوليس الذى أقامه الاغريق لالتي سنة خلت
تمجيداً لذكرى انتصارهم على الفرس، وفتكهم بالقائد سر كليس،
وإحراق عمارته البحرية العظيمة .

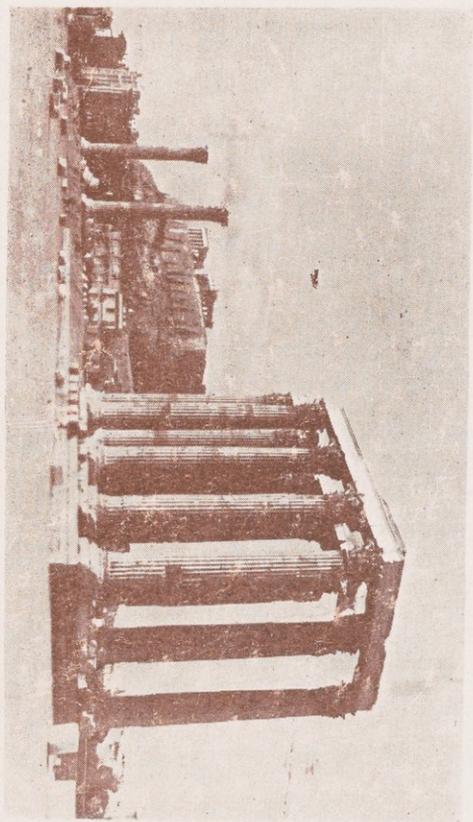
وقد ظل الاكروبول مقر الادب ومهد الحكمة ومصدر
التشريع، خلال أجيال طويلة ... شعت من جوانبه عبقريات
سوفوكليس ويوريديس وهيرودتس وفيدياس وغيرها من الاسماء
الخالدة فى سجل الفكر الانسانى، وممن بقيت تعاليمهم نبراساً فى
الادب والفن والرياضيات والفلسفة إلى ما قبل عصر الاحياء
الاوربى ... شهد سقراط وهو يتجرع السم تقديساً للعلم وضحية
دعوته إلى الحرية الفكرية بعد أن قدمه الاثينيون على مذبح
الاغراض والمطامع، مدعين أنه يفسد عقول العامة ويمحو
المعتقدات التى ورثوها عن الآباء والاجداد .

...

الاكروبوليس ... لفظة إغريقية قديمة مكونة من كلمتين :
« ا ك ر و » وتعنى البقعة المرتفعة من الارض و « بوليس » أى
المدينة، وفي معنى آخر الدولة . . . وقد شيد فى كل بلد باليونان
أكروبول، ولكن أجلها شأنًا بلا شك اكروبول أثينا .
وكان أهل « الاكروبوليس » فيما مضى أناساً ذوى حكمة
وفطنة، لهم رجاحة العقل والايمان بحياة ضمننت لتراثهم نعمة
الخلود . فشرعوا للبشرية قوانينها، ووضعوا نظمها وتعاليمها،
وكرسوا أنفسهم لخدمة الحق بعد أن اتخذوا شعاراً لهم « اعرف



الهيكل الأعظم فوق انقاض الأكروبول



بابل
العمارة

نفسك بنفسك» ، وكان لهم مقام رفيع بين غيرهم من الامم فدانت لهم الشعوب بالطاعة وأصبحوا أهل الغلبة والسيادة لان اعتقادهم ان العالم التي اليهم عبء تدينه وحضارته فظلوا قرونًا طويلة متحكمين في مصيره .

شيد الاكروبول في عصر بركليس - العصر الذهبي لآتيننا - وشاد الملوك والامراء والعطاء قصورهم ومعابد آلهتهم على مقربة منه فجددوا لآتيننا شبابها وبعثوا الحياة في جوانبها بطريقة غضة على حين توفر علماء الاكروبول على النهوض بحضارة راقية مؤسسة على قواعد الطبيعة وخالية من كل شائبة فلا تعثر في عقائد أنيقة ولا تقاليد مرعية .

على هضبة الاكروبول أقيم معبد البارنتيون لآتيننا آلهة المدينة وهو يعد بحق أرفع مجهود للعبقرية الفنية في سبيل الوصول الى أسنى درجات الكمال . شاده الملك بركليس ، وكان يحوى فيما مضى التمثال الذي صاغه فيدياس من العاج والذهب الوهاج لآتيننا . الى جانبه « معبد النصر مقصوص الجناح » أقامه ثسيوس لمنيرفا آلهة الحكمة ، وقد تصور المثلون أن النصر اذا قصت أجنحته يظل في حظيرتهم ولا يطير عنهم ، ولذا أطلق عليه « معبد النصر مقصوص الجناح » .

وفي الجانب الشرقي نرى الاستاديون - أو كما يسمونه باليونانية « الارينا » - وهو ملعب عظيم كان الاثينيون يلعبون فيه بسباق الجياد ويمارس شبابهم في ساحته ألوانًا من البطولة

الرياضية ، ومن دواعي الفخر — أو الاسف — انه لا ريعين عاماً
 خلت تبرع الخواجه افيروف المصرى وبمال مصر ، لبناء ملعب جديد
 فوق أنقاض الاستاديون يسع نحوستين الفاً من المتفرجين ، بمناسبة
 الالعب الاولمبية الاولى .

وفى هيكل الحكمة نصبت تماثيل بنات كاريات الثلاث ،
 وشيد فى الاركتيوم رواق العذارى المسمى *Karyae* نسبة إلى
 مدينة كايا التي اشتهرت فتيانها العذارى برقصهن المقدس .
 تحف به المقاصير والعمد المرمرية المشرفة نحو السماء كأنها تسمو
 خلوداً فوق مظاهر فن المهار الحديث .

وعند سفح الاكروبول أقيم ملعب ديونيسوس ، وهو يعد
 أقدم مسرح للدراما فى العالم ، فكانت تمثل فى ساحته مآسى
 سوفوكليس ويوريديس وأخيلوس ، والمسرح بدون سقف ،
 لان جو أثينا أميل للحرارة فكان من الطبيعى أن يفضل
 الاثينيون الهواء الطلق . والملعب مقسم إلى ثلاثة مدرجات ،
 ومقاعد حجرية بشكل نصف دائرة ، فكان المتفرجون يحملون
 معهم وساداتهم وطعامهم وشرابهم .

وكان الملعب ملكاً للدولة ، فهى التي تديره وتتولى اختيار
 الروايات وعرضها ، وتمنح لرجال الدولة والحكام تصاريح مجانية
 من المعدن أو العاج ، منقوشاً عليها اسم صاحبها ورقم مقعده ،
 وقد شاهدنا بعض هذه التصاريح بالمتحف الوطنى .

وكانت تقام أحياناً مباريات بين الممثلين والمغنين ، أما

الحكم في هذه المباريات فهو الشعب ، فإذا كانت الرواية قوية
والتمثيل متقناً صفقوا وطلبوا إعادة التمثيل ، وإذا كان رديئاً نادوا
باخراج الممثلين ، وإذا كان عادياً بسطوا طعامهم وشرابهم وشرعوا
بأكلون ويتسامرون دون مبالاة بالتمثيل .

...

نجتاز أبواب الاكروبول ونحن نتبع الدليل الذي يتقدمنا
بضع خطوات ، ثم ينعطف إلى اليمين ويقف فجأة أمام أطلال أحد
المعابد ويقول : انظروا...

هنا نحن على مقربة من الجدار الاثري الذي اجتمع إليه
تلاميذ سقراط يتآمرون على خطفه لعشرين قرناً خلت ، وهنا نحن
أولاء نكاد نتبين بصعوبة كتابات تركية منقورة في الصخر :
« مصطفي همت افندي حصني قلعة بندو سنة ٢٠ مكرر » .

وها هو الدليل يفيض في الحديث ليجلو أمامنا هذا السر
الغامض ... ففي خلال حكم الاتراك جعلوا من الاكروبول قاعدة
عسكرية ومركزاً للقيادة الحربية ، وحولوا البارنتيون إلى مسجد
لاقامة الصلاة ، والاركتيوم إلى حرم للقائد العسكري ، فلما هاجم
الفينسيون الاتراك ، أطلق مورسيني قنابله على الاكروبول فانسف
مستودعات البارود وشبت النيران في مخازن الذخيرة وتهدمت
الابنية والعمد ، فلم تبق سوى هذه الرسالة الفنية الضئيلة التي يكاد
يطمسها عن أبصارنا غشاء من نسيج الزمن .

في معرض الذكريات الحافلة طافت بذهني أوجه شبه عديدة

بين بناء الاكروبول وبين اطلال وادي الملوك بالاقصر ، فهذه العمدة الشاخصات ، والعائر السامقات ، والتماثيل المتناثرة في رحابه ، والهياكل التي اندثرت بفعل الزلازل أو القنابل ، وهذه الوجوه السمراء النحيلة ، وجوه عشرات التراجمة والادلاء وبائعى التحف وأدوات الزينة ورسوم « الكارت بوستال » . هذه المظاهر جميعاً ، تعيد إلى ذهني الاقصر بما بدها وتماثلها وأبنائها الذين يقفون ببينائها يديعون للسائحين الامريكيين تحفاً وتماثيلهم وتعاويذ سحرية .

هذا الشبه نفسه القيمة مجسماً بين فن المعمار عند الاغريق وبين معابد الكرنك . فالعمدة وفكرة المنحنيات الدقيقة وحلية أطراف العمود إنما هي فرعونية الاصل ، وقد اقتبست عن مصر يوم أن كان النفوذ الفرعوني متغلغلاً في أعماق جزر كريت وقبرص وأرخيبيل اليونان ، أو على الأرجح أن هذا الفن تسرب عن طريق الفينيقيين الذين كانت أساطيلهم تخرع باب البحر الابيض . ولكن أين ربوات الاكروبول من ساحل طيبة الخالدة على مر الدهور ، أو من مهابة الازهرام ومعابد الكرنك وقصور فيلي ؟ تلك الكاتدرائيات الفرعونية العظيمة التي شيدها ونقلت جلاييدها الصخرية الهائلة ، الايدي السحرية العجيبة ، أيدي العميد الضعفاء المستدلين ، أولئك الذين لم يكن نصيبهم سوى أن يسمح الفرعون لاجدائهم بأن تحويها كسبان الرمال لتضم رفاتهم الارض المقدسة .

كانت هذه الطائفة من الخواطر وكثير أشباهها تستغرق
تفكيرى ، فأقف عند بعضها وأمر بالبعض الآخر مرأ سريعا ، ثم
لم البت أن شعرت بشيء كوخز الابر إذ رانت على قلبى حادثة
الحامى بابا كوس اليونانى ، حين وقف فى ساحة العدالة يدافع عن
مهرب مخدرات من أبناء جنسه فيقول : اذكروا أيها القضاة أنكم
تستنشقون هواء الاكروبول النقى ولا تخوضون فى مياه النيل
العكرة !

أثينا

« هذا المكان الاقدس ، قبة العقل والنفس ،
وطن شعب وماوى آلهة بعثت هياكلها »
بيرون



في اثينا متاع شهى للعيون ، كما في الاكروبول متاع خصب
للعقول فهذه المدينة الخالدة ، حلقة الوصل بين الماضى
والحاضر ، وصاحبة الروعة النافذة في ضمير الازل وقلب التاريخ ،
لا تزال تسكب على الوجود من ألوان المتاع والمسرة وبهجة الحياة ،
ما لا يقل عن سحرها القديم ، المتجسد بأنواره وظلاله ، بين
ملاعب ومعاني فرايس ، نظمت فيها سافو أعذب أشعارها !

هبطنا من الاكروبول في طريقنا الى « سراى زاييون »
فبدت أثينا تحت أقدامنا ، بأحيائها وأبراج عمائرها وقباب
كنائسها ، كأهرامات من النواويس الحجرية ، تتآلف حيناً
في تدرجها الى الصعود ، وتتنافر حيناً في انخفاضها نحو الرابي
والهضاب التي تسورها ، وقد نقضت الشمس أشعتها فوق هذه
الاسوار ، فكانت كدمالج ذهبية ثقيلة في كعب غانية شرقية
متبرجة !

ورحنا نجوس خلال الاسواق والدروب الضيقة ، بعضها تناولته يد التجميل والبعض الآخر لا يزال على حالته العتيقة، وعرجنا في الطريق على ميدان مونستراكي لتفقد أطلال المسجد الذي شيده القائد التركي مصطفي همت ، وقد تحول جزءا منه إلى دار للآثار الشرقية ، وعلى القصر الملكي القديم بميدان «الدستور» الى أن ألفينا أنفسنا في شارع «الاستاد» ، أفخم شوارع أثينا وأرحبها اتساعا ، ففيه أكثر دور الوزارات والقنادق والمطاعم والمباني المنسقة على الطراز الاغريقي الحديث «نيوهلنيك» . ومنه انتهينا الى «سراى زايون» تلمية لدعوة مسيو اثناسا كيس رئيس الجمعية اليونانية المصرية التي تعمل على تنمية الروابط الاقتصادية والاجتماعية بين البلدين العريقين في الحضارة والرقى . و«سراى زايون» — نسبة الى الاخوين زاباس اللذين وهباها للشعب — تشتمل على معرض دائم للصناعات اليونانية ، وملاعب للتنس والجولف والالعاب الرياضية . وفي هذا المعرض مايعطيك فكرة صحيحة عن تقدم اليونان في الصناعة والاستقلال الاقتصادي . فكل شيء معروض من صنعمهم ، كأشكال السجاد ودباغة الجلود ومنتجات الألبان وصناعة الاثاث والتبغ والحمور والصناعات القومية الناشئة ، حتى معدات الحرب وأسلحة البر والبحر والهواء تصنع في بلادهم ، وهناك قسم خاص بالحياة الاجتماعية في اليونان وتطورها من حالة البداوة الى ميلاد القرن العشرين ، فازدهار حضارته . وقد أضيف اليه جناح خصص

للمنتجات المصرية ، بأن القصد من مهمته وإعداده ، توقع زيارة
جلالة الملك فؤاد لازاحة الستار عن تمثال جده الكبير محمد علي
بمدينة قولة .

بعد أن فرغنا من الزيارة تناولنا الشاي في حديقة المعرض
ضيوفنا على الجمعية اليونانية المصرية ، ووقف مسيو دندراميس
- أحد أعضائها - خطيباً ، فتحدث طويلاً عن توثيق العلاقات
الفكرية وتنميتها بين البلدين المتجاورين في حوض البحر المتوسط ،
واقترح ضرورة إنشاء قسم للادب العربي في جامعة أثينا وقسم
للادب الاغريقي بالجامعة المصرية .

...

خرجت من معرض زايون وقد أثر في نفسي أعمق تأثير
حرص هؤلاء القوم على أن يعرضوا أمام الزائر الاجنبي كل ما في
أرضهم من إنتاج صناعي أو زراعي . فالظهور بمظهر القومية
الخالصة مع المحافظة على الاستقلال الاقتصادي ، هما أسما ما
تطالعنا به اليونان من معنى ، وأجل مما في متاحفهم من فن وعلم
ودين ، وهذا هو روح الوطنية التي تعمل في صمت ولا تتكلم .
شيء آخر دهشت له أشد الدهشة ، هو تعصب هؤلاء الناس
وتغاليهم في القومية ، فلا سطر يكتب بغير اللغة اليونانية ،
فأسماء الشوارع وعنوانات المحال التجارية والاعلانات وبرامج
السياحة وقوائم الطعام ، حتى التراجم والادلاء رأيتهم في المتاحف
وعلى أطلال الاكروبول ، لا يتكلمون بغير اليونانية . فاسر هذا

الهوس والتغالى في إبداء العاطفة القومية ؟ كشف لنا عن هذا السر أحد الاصدقاء ممن التقيت بهم في أثينا ، فذكر أن اليونان الجديدة لا تبغى أن تترك سواها في عزتها ، ولا أن تتطفل على لغة أو حضارة لغيرها من الشعوب ، إذ أنها أم اللغات وخالقة الحضارات !

من معرض زايون انطلقنا إلى معرض الاستقلال ، وفيه الكثير مما غنمه اليونانيون من الاتراك في حروبهم الاخيرة ، فهناك مدافع ودروع وسيوف مذهبة مقابضها ، وأعلام وبيارق مكتوب عليها « لاله الا الله » ، ولوحات زيتية تمثل بعض الوقائع الحربية وتمجد فكرة الكفاح في سبيل الحرية والذود عنها ، والسريبر الذى كان ينام عليه الشاعر بيرون في ميادين القتال ، وتحف كانت تزين بيوت الامراء والقواد ، كاللوح المنقوش عليه شجرة آل عثمان برسوم سلاطينهم ، ولوح عربى كتب فيه بالخط الكوفى : « قال عليه الصلاة والسلام : عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » .

يخيل للانسان وهو يجتاز شوارع أثينا ، أنها تشبه الاحياء الاوربية في الاسكندرية الى حد بعيد ، ويدهشك أن في سكانها من يتكلم العربية الدارجة في سهولة ، ويشيد بنبل المصريين ويطنب في كرم الفلاحين وحسن معاملتهم ، ومنهم من يستوقفك برهة ليتملى من وجهك صورة من صور مصر التى عاش في ريفها

أو صعيدها ردحاً من الزمن ، فشبع بعد جوع واغتنى بعد فاقة ، حتى اذا ما أتمخته الثروة ، عاد الى الارض التي نبت منها ليستثمر ما جمعه من ذهب مصر وخيرها . إلا أن الظمأ الى النيل الذي شرب ماءه والحنين الى الفلاح الذي زامله وعاشره طويلاً ، لا يزال يشتمد به المرة بعد المرة حتى يدفعه الى النزوح ثانية عن بلده ليستوطن مصر ويدفن في ثراها .

أذ كر أنى قابلت في أحد المطاعم جندياً في الجيش ، كاد يبكي وهو يحدثني بالعربية عن السعادة التي تنعم في أعطافها يوم أن كان يعمل « جرسوناً » بمقاهى القاهرة الكبرى ، فيرجح شهرياً ما يقرب من مرتب قائده ، ثم قال وهو يودعنى ، أنه يرقب بفارغ صبر انتهاء مدة الخدمة العسكرية ليعود وشيكا الى ضفاف النيل . وأذ كر عشرات من « يوناني مصر » ، كنا نلتقى بهم في لوتراكى واديسوس وكيفسيا ، وغيرها من مصايف الجبل فكانوا يسرعون الى الترحيب بنا والافتخار بصداقتنا ويعرضون علينا خدماتهم دون مقابل .

على أن لمصر مكانة أخرى في نفوس هؤلاء الناس ، فهم ينظرون اليها نظرة إكبار وإجلال ، إذ أنها أصل الحضارة ومصدر كل ثقافة وثروة . وأحسب أنه نتيجة عطف أولته مصر لآبناء هذه البلاد منذ انبثق فجر التاريخ . فقديماً لقنهم المصريون أسرار الحكمة وأصول التشريع وزودوهم بأسلحة من العلم واستقامة الفهم . فذاناؤس وككريس وفيثاغورس شهب ناقبة في سماء

الثقافة الاغريقية ، لكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا مصريين ،
 حملوا الى اليونان بذور المعرفة ورسالة الحق والحرية والجمال . ولقد
 وجدوا الاغريق مقيدين بالاغلال والتقاليد ، فخطموا هذه
 الاغلال وأطلقوا الاغريق من قيود عبوديته وقضوا على التقاليد
 حتى شب الانسان الحق ونما الفكر الحر وتجلت عظمة رسالتهم في
 مخاطبتها أسمى العواطف البشرية .

وتكاد لفظة « مصر » ترادف في معاجمهم كلمة « ذهب » ،
 وأخالهم على صواب ، إذ صارت مصر وطناً ثانياً لهم ، والنيل ينبوعاً
 فياضاً يصب منه كل يوناني ويروى منه غلته ، وما دام أمثال
 كوتسيكا وبناتي وأفيروف وغيرهم من ملوك المال ، يغذون خيالهم
 بما جمعوه من ذهب مصر وما وهبوه لامتهم من المنشآت العالمية
 والعمارات البحرية والمستشفيات والملاجيء ، حتى لقد حدث في
 إحدى السنوات أن ظهر عجز فادح في ميزانية الدولة فأسرع
 « يونانيو الاسكندرية » بالاكتتاب لسدهذا العجز ، وبلغ مجموع
 التبرعات نيفاً ومليوناً من الجنيهات !

في المتحف الوطني

خواطر وتأملات

« من يقدر آثار قوم فعليه ألا يقربها
إلا راجعاً » .
ربان

قصدت إلى دار المتحف الوطني وفي نفسي صور عديدة من
عظمة الفن الاغريقي وما خلفه المثالون من نفائس ، هي ذخيرة مجد
هؤلاء الاقوام الذين بسطوا فنهم خلال الاجيال الغابرة . فاذا
يباب المتحف تمثال جبار الحجم له رقل كبير الآلهة ، وقد
خلع المثال عليه كل ما يصل اليه حسه وشعوره من تخيل صفات
الالوهية . ووقفنا خاشعين نجيل النظر فيه ، لا لجلال الرمز الذي
يرمى اليه ، ولكن لبراءة التي وصل اليها المثال . فقد كان الفنان
الاغريقي اذا ما حث تمثاله ، خلع عليه وشاح عبقريته ، ونفخ فيه
قوة من روحه ، حتى جاء الفن الاغريقي بمجموعة عبقریات هي من
أجل الاعمال الانسانية التي ترمى الى المثل الاعلى وابرز الفكرة
الروحية ومحاولة الوصول الى الكمال .

وفي المتحف قاعة للتماثيل والموميات المصرية ، فلنمض اليها
قبل غيرها ، لنجد عبقرية أجدادنا الفراعنة الذين حكموا مصر

والشرق آلاف السنين . فقد كانوا أساتذة الشعوب . وعندهم أخذ
الاغريق فكرة نحت التماثيل ، وكل ما تفيض به هذه القاعة الفرعونية
من فن وعلم ودين ، أما نقله اليونان الى بلادهم مع ما نقلوه من
حضارة مصر ورسالتها الروحية العليا .

وأشعر برجفة رهيبة وأنا أجتاز صفين من النواويس الذهبية،
يرقد بداخلها فراعنة مصر ، مولين وجوههم شطر الشمس، حيث
يتربع أمون على عرشه العظيم . ولكن لاشيء غير الصمت العميق
المتواصل ، الذي لا تسمع خلاله سوى همسات خافتة ، ولا ترى
الا عيوناً زائغة ، تحاول أن تحترق النواويس لتتهتك سرها الخفي،
وأشباحاً جاءت تستأنس بأرواح جدودها في سماء الغربة . ولعمري
أن هذه الموميات التي أقلقوا مضجعها وحرموها لذة البقاء في
أرضها ، تكاد تتحدث إلى في صمتها المبهم ، بالأوجود لغير العدم
ولاحياة الا للموت ...

ودرجت بي ساعة تأمل أسامت فيها نفسي إلى طائفة من
الخطاير ، ورحت أقارن خلالها بين الفن عند الفراعنة وبينه عند
الاغريق . ففي مصر كانت جذوة الفن يذكيها الدين حرارة وحماسة،
فيكان المثال الفرعوني يقنى مواهبه المشربة بحب الجمال في ابراز
فكرة الالوهية واضحة مصقولة ، مهتدياً بسراج ضميره الاوحد
وشعلة روحه المتوقدة . فننهد إلى ما وراء الفكر ، وما وراء المادة،
وعبر عن محاسن البعث بقصائد منظومة من الحجارة أو المرمر أو

الطين ، حتى إذا ما عبر جسر الحياة وتحول الزمن إلى خلود رأى
فنه خالداً خلود روحه في العالم الآخر .

أما الاغريق فليسوا على الضد من ذلك . وليس في وسعنا أن
نخطو خطوة واحدة دون أن نلمس الصلة الوثيقة القائمة بين فننا
المصرى وبين فنهم . وعندى أن الغرض الاساسى الذى
أوحى الى المثال الاغريق إقامة تمثاله ، هو الاهتداء الى الله الاوحد ،
فاقتبس نظرية الالوهية في الفن من الفراعنة ، حتى إذا ما تطورت
الفكرة بتطور الحياة من نشوة دينية الى حضارة مادية ومن صراع
عنيف إلى انتصار باهر على العقل الاسيوى ، وجد الفن قدرته
التامة في التعبير في شخص أبولو ، الانسان الالهى الرائع ، نتاج
خيالهم القومى الزدان ببدائع التصور فأضفى عليه المثالون جميع
معانى الحكمة والعقل والفضيلة ، والصفات السامية التى رفعته الى
مرتبة الاله الاوحد .

...

في جميع التماثيل والدمى المعروضة بمتحف أثينا ، ظهر جسم
الرجل أمام أبصارنا عارياً عرياً يدفعنا إلى الاعجاب به وعبادته ،
بعكس تماثيل المرأة فقد بدت متدثرة في ثيابها ، محافظة على
تقاليدها الشرقية . فجسم الرجل كان هدفاً لعين الفنان ، يراه في
ميادين الالعاب الرياضية ، يمارس ألواناً من المصارعة والوثب
والعدو ، وفي المستحاثات يتسابق في السباحة ويتبارى في القفز إلى
الماء . وكانت عبادته لجسم الرجل الرياضى والاعجاب ببطولته

تدفعانه دائماً إلى السمو به لمكانة هي أقرب إلى السكالم ، فنفتح
 في تمثاله روح فنه وخلع عليه وشاح عبقريته ، وعنى بابرز
 تكوين جسمه واتساق حركاته وتناسب قوامه ، وكان يعزف عن
 أن يصور رياضياً قبيح الهيئة مها سمت بطولته وبلغت مكانته .
 ولما كانت المرأة محوطة بسياج من الفضيلة والعواطف الفطرية
 الساذجة ، فقد استعاض المثلث عن عريها بابرز جمال ثوبها وانسجام
 ذراعيها ومسحة من جمال خاشع يتقطر من ثنايا وجبها .
 فعظمة الفن الاغريقي كانت تصحبها دائماً صفتان أساسيتان ،
 هما التشبع بعبادة الجمال والتأمل في الطبيعة بالعين التي تلتقي ظلالاً
 على التمثال ونوراً في ضميره ، والحرص على إبراز المعاني العميقة
 المستترة وراء الاشياء .

والفن الاغريقي ولو أن مادته رخيصة فانه يمتاز بطابع الصدق
 وتصوير الانسان على حقيقته وتعريفه نفسه بنفسه ، مع محاولة
 كشف أسرار الطبيعة والوقوف على قوانينها ، متخذاً من
 الجسم العاري أداة لتفسير هذه الالوان .

أما الفنان الفرعوني فكان في شبه نشوة روحية عميقة . صرفه
 التفكير في مستقبله عن حاضره ، فجد الروح والقلب وعبادة
 الآلهة وصور البعث والخلود برموز مطموسية ، فهو كمتأمل
 للحياة من خلال نظراته الروحية النافذة إلى صميم الكون ، لم
 تكن تعنيه سوى فكرة الخلود . خلود الجسم وخلود العقيدة
 وخلود الآلهة . ولكن الفن الاغريقي عند ما تحرر من سيطرة

الروح الفرعونية وتمرد على سيادة العقل الهندي الغليظ ، استطاع المثال أن يخلق آلهته كما يحب ويهوى ، فهي غاضبة أو رحيمة ، جائرة أو عادلة ، تناسل وتأكل كمخلوقات إنسانية ذات أخلاق عالية . أما المادة فعبير عنها بالحضارة ، وعبر عن العقل بالمنطق . حتى جاء مزاج الاغريق الفنى ، خليط من الروح والمادة ، والخلود والحياة ، والاستقرار والحركة .

...

وأن ما خلفته الحياة الادبية لليونان أعمق وأروع من التراث الفنى الذى ابتدعه عبقرياتهم الجبارة . وكما أن صورة «الجيو كندا» التى رسمها دافنشى تعتبر حداً بين الفن الحديث والفن القديم ، أو بمعنى آخر أنها تعد من الوجهة الفنية الصحيحة معقدة إذا قورنت ببساطة الفن الاغريقى ، كذلك نجد هذه الفروق نفسها إذا قارنا بين آدابنا الحديثة وبين الادب الاغريقى . ذلك أن كتاب الادب الحديث قد يخلطون الكثير من تجاربهم ومتناقضاتهم فى الحياة بانتاجهم الفنى . أما الاغريق فقد يكون إنتاجهم أقرب إلى الكتب المقدسة منه إلى أية آداب أخرى . وفى شعرهم تتجلى روح البساطة والسهولة والصرامة من حيث الاداء والتعبير ، فقد عاشوا ككتاب أسفار اليهود ، فى عوالم فطرية عذراء ، وبذا استمدوا روح مادتهم من الفطرة نفسها .

وقد حاولت الشعوب المتعاقبة أن تخذل آثارها الادبية كما تخذل التماثيل الحجرية أو البرنزية ، ولكن لم يوجد بينها من

ابتكر الفن الادبي وخلده كالاغريق ، ولا من خلق من العدم
 أنواعاً متباينة من الشعر والبيان والخطابة والفلسفة مثلهم .
 فالاغريق لم تكن أمامهم نماذج أدبية يقتدون بها ، ولا معلمون
 يرشدونهم إلى القيم الصحيحة للفن الادبي . وقد فشلت الأمم الاخرى
 في أن تفرض سيطرتها على آدابهم كما فرضواهم سيطرتهم على الرومان .
 ومن العبث أن نقول إن القراعنة كانت لهم آداب بالصورة التي
 وجدت بها عند الاغريق ، فليس هناك أدب مصرى قديم خليف
 بهذا الاسم ، وكل ما خلفته الحياة العقلية للقراعنة هو
 طقوس جنائزية ، وحكم مشربة بروح الدين يضمها كتاب « كالموتى » .
 وقد كان من المنتظر أن يبدو في فجرهم الادبي خشونة وبداعة ،
 ويد ترتعد من القلم . واسكن الشعر الاغريقي خرج إلى العالم
 مكتملاً ناضجاً كما ولدت آلهة « الميثولوجيا » . مثلاً أعلى يفرض
 احترامه على الجميع . وقد ابتكر الاغريق أدب الملاحم الشعرية
 والبحور والاوزان ، وتفجر الالهام والوحي من عقولهم ، وهذا
 هو ميروس ، ولد وفي دمه أسرار الفن الادبي الذي خلده كتبه
 على مر الاجيال .

والكتاب المسرحي الذي يعمد اليوم إلى كتابة مسرحياته ،
 يجدها أكثر سهولة ، لأنه يعرف القاب الفني الذي يصب
 فيه موضوعه . أي يعرف البداية والنهاية والتقسيم إلى فصول
 ومناظر وما إليها من لغة الحوار وقانون التمثيل ، فهو يسير على نهج
 معروف . ولكن كتاب الدرامات الاغريقية لم تكن أمامهم

قواعد ينسجون عليها ، فهم عباقرة ، مبتكرون حقاً لهذا النوع
القد من الصور الادبية .

وطابع الصدق هو أظهر الميزات للادب وللفن الاغريقي .
فالاغريق لم يكونوا أقل كذباً منا ، ولكنهم أرادوا أن يصوروا
العالم على حقيقته ، وبذا استطاعوا إرشادنا الى إدراك كنه الفلسفة
والعلم . والصدق عندهم معناه النزاهة الادبية والتخلص من الكلفة
والصنعة ، وهو سجية الفنان الذي يترك شخصيته إذا ما واجهه
منظر ملك عليه لبه ، فيشغل به عن نفسه .

ولا توجد أية علاقة بين هذا « الصدق » وبين المذهب
الحديث المسمى « بالواقعية » التي تسيطر على الكتاب
فتدفعه الى أن يصور الحياة في رداء قائم . فالكتاب الواقعيون
يعمدون الى وصف ما لا يرغب فيه القارئ ولا يحبه ، وقد أدرك
الاغريق حكمة بروس قبل أن ينطق بها ، وهى أن الفن يجب
ألا يكون سخيفاً كالواقع . فابتعدوا عن وصف آلام البشرية
ومساوئها . ولذا نجد أنه على الرغم من طابع الصدق الذى تتصف
به ما سيهم ، فهى لا تترك فى النفس أى شعور بالحزن . وقد أدرك
كتابهم مصائب الكون ومتاعب البشرية وآلام الناس ، ولكنهم
عند ما وصفوها ، كان وصفهم فى شىء أقرب الى فلسفة الجمال منه
إلى النواح واستثارة كوامن الالم الدفينة . أضف الى
هذا ، أن الاغريق كانوا يعمدون إلى التخلص من الحواشى
والتعليقات . فلا يجاز هو أجل ما فى آثارهم ، وهذا « المبرد الادبي »

الذى استعمله الاغريق ، إنما هو في عصرنا الحاضر أقل الادوات استعمالاً .

ولا أغالى اذا ما ذكرت أن الاغريق وجدوا لكي يصفوا الكون والحياة ، لاليقدموا الينادروساً في الاخلاق أو العواطف أو التصوف . وكانوا يتعدون عن الارشادية وفخامة اللفظ ، ولم يعرف أنهم قلبوا الحقائق وطمسوها لكي يبرزوا جمال الالفاظ . ومن سر قوتهم في الادب أيضاً ، اتصاهم اتصالاً مباشراً بالنفس دون حاجة الى الغموض ، أو الاسراف في العواطف ، أو الاطناب في الخيال . ولناخذ الياذة هو ميروس التي وصف فيها حروب تروادة ، فانه لم يرجح كفة أحد الفريقين ، بل انسلخ من عاطفته ونظر الى المنتصر نظره الى البطل الذي أذهلته الخسارة ، فلم يعد يفكر في غير الانتقام .

لقد نظر الاغريق الى العالم من ناحية غير الناحية التي ننظر منها اليوم ، فكانوا أكثر شعوراً منا بجباله . وكما يفوق الناس بعضهم بعضاً في تمييز الالوان أو الاصوات ، فكذلك تفوقوا علينا من وجهة الاسلوب الذي عاجوا به ما سبهم . فكان أسلوب هو ميروس مثلاً يفيض أسى ولوعة ، وربما كانت نظره الى الحياة أكثر تشاؤماً منا . غير أنه استطاع على الرغم من مواجهة الحقيقة واعترافه بقسوتها ، أن يصبغ أسلوبه بصبغة هي أقرب الى فلسفة الجمال منها الى الصراخ والشكوى .

والواقع أن الاقتراح الذي أدلى به مسيو دندراميس بشأن
 انشاء قسم في الجامعة المصرية لدراسة الادب الاغريقي ، على جانب
 من الصحة ، ووقد يرى البعض أن في دراسته عرقلة في سبيل النهوض
 بالادب العربي المعاصر . ولكن إذا كان نمو الادب العربي
 قوياً وصبعته القومية تقاوم تأثير آداب الامم الاخرى فيه . فقد
 نستعين على موازنته وإظهار نواحي الضعف في جوانبه إذا ما
 درسنا إلى جانبه أدبا قديماً في مستواه . فالعالم لم يزل مديناً بعد
 للعقلية الاغريقية ، وما خلفته من تراث هو رمز جمال العالم وعنوان
 ثقافته .

استامبول

« مدينة المنائر والاسرار »

لوني



تبدى الدردنيل في هدأة الفجر وسكونه مقبضاً موحشاً ،
وكنا قد حرصنا على أن نزايل مخادعنا مبكرين حتى نشهد بالباخرة
ساعة اجتيازها الدردنيل . ففي هذه البقعة الجهنمية من البحر
استشهد عشرات الالوف من الحلفاء خلال الحرب العظمى ، حين
كانوا يظنون أنهم يحاربون تقديساً لمبادئ الحرية وإعلاء كلمة
الحق ، لمدفوعين بمطامع الساسة وغريزة التوحش الاستعماري .
ووصلنا إلى مضيق « جناق قلعة » فوقت بالباخرة في عرض
البحر ، وصعد اليها رجال الحكومة الكمالية ومراقبو جوازات
السفر ، وبعد أن استغرقت مهمتهم فترة وجيزة ، أذنوا لنا
باستئناف السير ، فاذا على اليسار رسم الشعار التركي فوق أديم
الأرضى بخطوط من الجير الأحمر ، وعلى اليمين خطت بحروف
واضحة : سنة ١٩١٨ .

وحين نتخطى « جناق قلعة » الى « جاليبولى » ، ذلك
الحصن المنيع الذى ارتد الاسطول البريطانى منهزماً أمامه شر

هزيمة ، تتوارد الخواطر على ذهني تباعا ، فكل ما نراه أمام
 أعيننا ، يفيض في النفس لوعة وأسى ، وهو إن كان مبعث الذكريات
 الممضتة عن الحرب وأهوالها ، فإن أمواجه تكاد تتحدث الينا في
 فورتها واصطحابها عن الضحايا والاموال التي اضطجعت في
 جوفه . . .

حانت ساعة الاصيل ، فحرصت على أن أحتل مكانى في مقدم
 الباخرة لآتملى جمال استامبول ، وأسراب الطيور تغطى وجه
 البسفور ككتل من بياض الثلج ، فاذا باستامبول تتعالى في الافق
 جسيمة هائلة ، كأنما علقت أطرافها في السحاب ، على حين تترامى
 أمواج البحر على أقدامها ، تشقه عشرات الزوارق ، ناشرة شرعها
 القضى كجناح طير الرخ ، حاملة طوائف من العشاق والمتزهين
 يضحون ويصخبون . الا أن المدينة الخالدة كانت تبدو كأنما
 تسمو خلوداً فوق مظاهر الحياة العابرة ، وقد نفرت منها قباب
 شاحبة البياض ، وما آذن متراشقة في دقة الحراب ، متغيرة ألوان
 قننها الرفيعة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بتغير أنوار
 القمر والشمس عليها . . .

ياجمال استامبول ! لقد جمعت الطبيعة عبقريتها في هذه
 البقعة الخالدة من جنان الارض ، فكان الالهام والروعة والجلال ،
 وكانت الحياة الشاعرية والتأثر بالخيال ، فلما جاءها قسطنطين خر
 على وجهه ساجداً ، وبني عاصمته فوق هذه التلال السبعة ، حيث
 تلتقى آسيا بأوربا تتناظران وتتنافسان ، ليجعل منها روما ثانية

ينافس بها عاصمة المسيحيين . وهى تضم اليوم بين جوانبها من ألوان الجمال الصافى والانسانية الحقة وأحلام الخلود أكثر مما تحويه أية مدينة أخرى عاشت على سطح الارض ، فقد تعاقبت عليها عواصم ثلاث : تروادة وبيزنطة واستامبول ، فشهدت عظمة الرومانيين ومجد البيزنطيين وخلافة المسلمين يوم أن استقر بها آل عثمان وامتد منها سلطانهم الى أواسط البلقان وقلب الجزيرة العربية وشمال أفريقيا ..

ماذا نرى أولاً فى استامبول ؟

أجاب الدليل التركى : المساجد قبل كل شىء ..!

وهل تساوى استامبول شيئاً بدون أيا صوفيا والسليمانية وبايزيد والفتاحية وجامع السلطان احمد الذى شيده المهندس المعمارى سنان باشا ، بعضها محلى بالفسيفساء والخزف الملون وقيشانى كوتاهية ، والبعض الآخر مموه بماء الذهب ، وهى جميعاً من آيات فن العمارة الاسلامية ؟

تلك المساجد التى كساها القدم ثوب القداسة والجلال ، ما فتئت منذ أجيال تتزوج استامبول بقباها الشاخحة ، واسمة أياها بذلك الطابع الدينى العريد الذى يميزها من سائر مدن أوروبا . فكان الشعب المعتكف فى ظلال تلك المساجد شعباً مؤمناً بكل ما فى الايمان من حرارة العقيدة ، ومن شرفات تلك المآذن السامقة كان المؤذنون يدعون المؤمنين الى الصلاة بأصوات ملائكية كأنها هابطة من السماء ، فتشيع عذوبة هذه الاصوات فى قلوبهم ، فكرة

الاتصال بالله وتسميهم أباطيل العالم الفانى ، ساكبة فى قرارة نفوسهم
قليلا من أكسير الخلود .

فلنذهب اذن الى أياصوفيا !

تلك الكتدرائية المهيبة العظمة ، التى حولها المسلمون فى بدء
غزوه القسطنطينية الى مسجد تقدر فيه كلمة الله وشعائر الدين
الحنيف ، فلم يطمسوا من معالمها سوى الصليبان والنقوش البيزنطية
والرسوم النصرانية التى كانت تزينها . أما الهيكل فأبقوه على
حالته ونصبوا القبلة منحرفة قليلا عن موضعه لمتجه الى ناحية
مكة . ولكن حكومة الكمالين التى قضت على كل ما عمت الى
العروبة والاسلام بصلة ، ردت البضاعة الى أهلها وأعادت
أياصوفيا سيرتها الاولى ، فأزالت طبقة الكلس . أستغفر الله . بل
انتزعوا اللمع المذهبة المحفور عليها بالحروف الكوفية أسماء الله
الحسنى واسم نبيه الكريم والخلفاء الراشدين ، ليرزوا الرسوم
النصرانية بحجة تحويل المسجد الى متحف للفن البيزنطى والثقافة
البيزنطية ...

ولكن ، هل هذه هى المرة الاولى التى رفعت فيها طبقة الكلس
عن جدران أياصوفيا ؟

لقد حاول الدليل أن يبدد أثر الشك من نفوسنا ، فذكر أن
السلطان عبد المجيد سبق أن عهد الى الفنان الايطالى فوساتى أمر
إصلاح المسجد وتنسيقه ، فأزاح فوساتى الكلس وأبرز الرسوم
النصرانية أمام الناس وكتب عنها مجلداً ضخماً ، ثم احتجبت الرسوم

مرة أخرى وبقي كتاب فوساتي خالداً بما حواه من دقة الوصف وروعة الفن .

رفعت عيني الى العمدة المرمرية التي تمهض عليها قباب أياصوفيا ورحت أهدق ملياً في الجدر المرصعة بالموزايك والفسيفساء الملون، على حين كان الدليل يفسر ما يعلق علينا فهمه، وكانت أشعة الشمس تتسرب من النوافذ الزاهية قانية كلون العقيق، فاذا بخيالات أباطرة الرومان وخلفاء المسلمين تترقرق على الجدر، وتنعكس في الذهن الى حقائق وأشباح، بحيث يستعرض المرء الادوار التي مرت بالمعبد العظيم، ويستقرئ الحوادث جيلا جيلا، فيرى بعين الخيال الامبراطور الروماني جوستينيان وهو يضع بيده الحجر الاساسي تخليداً لذكرى القديسة صوفيا، ويرى جموع البيزنطيين وهم يلتفون حول أسوار الكنيسة مرحبين بدخول العثمانيين، كما رحب القبط بدخول العرب مصر، صارخين في وجوه الرومانيين « العمامة ولا التاج البابوي » .. ويلمح طيف الرجل الخالد محمد الفاتح وهو يحكم بالعدل والمحبة ويسود شعبه بالحكمة واللين، فيحترم عقائد المسيحيين ويصلح ما بين طوائفهم، ويحل السلام والسكينة محل المشاحنات الفلسفية والمنازعات اللاهوتية، ويتخيل السلطان بايزيد وهو يترفع عن أن يمس حرمة الكنائس والبيع ليحولها الى مساجد، فيشيد نيفاً ومائة مسجد، الى جانبه السلطان سليمان القانوني الذي انتصر على المجر وغزا البلقان وطرده من الشرق فرسان هوسبيتال وأخضع كارلوس

الخامس وهو يطارده الى أسوار فينا ، وعلى سلم المحراب يقف
السلطان سليم بعد أن قهر العجم ومصر ورجح من الممالك لقب
« خليفة المسامين » .

كانت هذه الصور وأشباهاها تطوف بمخيلتي ، فرحت أو ازن
بين أياصوفيا أيام كانت بيت الله ورمزاً لمجد الأتراك ولا تنصير
الاسلام الحامس في قلب أوربا ، وبين حالتها الراهنة وقد تحولت
الى كنيسة ملئت ساحتها بالدمى والتماثيل ، ولم البث أن رددت
قول حافظ ابراهيم :

أياصوفيا حان التفرق فاذكري عهد كرام فيك صلوا وساموا
اذا عدت يوماً للصليب وأهله وحلى نواحيك المسيح ومريم
فلا تنكري عهد المآذن أنه على الله من عهد النواقيس أكرم
فهل كان الغيب مكشوفاً للشاعر وهو يجود بدمعه ، فكانت
صرخة داوية في سبيل الاسلام وفي سبيل مجده الذي لا يبلى ؟
ليت شاعر النيل ينهض من رمسه ليرى كيف دق الكهاليون
أعناق أياصوفيا وأطفأوا شعلة الايمان تحت قبابها حتى زاورتها
الشمس وصبأ عنها المؤمنون .

لقد كانت شعوب أوربا في غاراتها الحربية على تركيا وفي
مؤامراتها ودسائسها في البلاط العثماني ، ترمي الى انتزاع أياصوفيا
من أيدي المسامين لتعيدها سيرتها الاولى ، كنيسة للمسيحيين ،
وكانت الجيوش الروسية في زحفها لمهاجمة استامبول تتلقى
الوامر صريحة برفع الصليب فوق قباب أياصوفيا . ولكن

أياصوفيا بقيت مسجداً مقدساً للمسلمين ، وتحطمت على صخور
البنفسور كل الجهود التي بذلت للاستيلاء عليها وتحقيق الحلم
الذهبي الذي كثيراً ما دأب فكر الغربيين .

على أن ما عجزت عنه روسيا والبلقان بجيوشها المسلحة خلال
القرون الغابرة ، حققته حكومة الكمالين بجرة قلم ، فغلقت
أياصوفيا في وجوه المصلين المسلمين ، وأخفت في جوانبها أصوات
المؤذنين ، لتبرهن للشعوب الاوربية على أن في عملها مظهرآ من مظاهر
التسامح ودليلاً على زوال التعصب من نفوس أبناء تركيا الجمهورية .

...

وفي غير أياصوفيا زرنا السلمانية ، عروس فن العمارة
الاسلامية ، بل لؤلؤة استامبول وياقوتتها ، بناه السلطان سليمان
القانوني عقب عودته ظافراً من غزو المجر ليفوق أياصوفيا سحراً
وجمالاتها . فارتفاع قبته نحو ثمانين قدماً وأرضه مغطاة بالرخام الناصع ،
تحف بنوافذه قطع الخشب المنقوشة بالحفر ، والقيشاني
المموءه بالالوان الزاهية ، تعلوها الكتابات المشجرة . وهي جميعاً
من صنع الفنان التركي ابراهيم السكير ، إذ يروى أنه كان لا يتأق
في عمله ولا ينتزع تلك الآيات الفنية من صدى زفراته الا إذا
كان مثلاً غائباً عن رشده ، فجاءت رسومه كلحن موسيقى
ساحر ، انسجمت أنغامه وكونت وحدة ناطقة ، تبر عن روح وقاد
وشعور ذاتي ملهم .

...

ان استامبول القديمة وروعة مجدها التاريخي لتتمثل بوضوح في دارين للعاديات . أولاهما « متحف الانكشارية » الذي يعد الثاني من نوعه في العالم بعد متحف الانفاليد بباريس ، ففيه أسلحة أثرية ، وخوذات ، وأسلاب ، وبيارق ، ورسوم تمثل أول جندي عثماني دخل استامبول من أسوار « أدرنة قبو » ، وأول فارس وطئت أرضها حوافر جواده ، ومناظر أخرى للانكشارية تمثلهم باللبسهم القضاة الزاهية الالوان ، في حلقات الذكر أو مجالس القضاء أو محافل الموسيقى . والانكشارية هم الذين بلغ من قوة نفوذهم السياسي ، أنهم لما غضبوا على السلطان عثمان الثاني ، اعتقلوه في حصون « يدي قوله » وحكموا عليه بالاعدام خنقاً لان العرف المتبع كان يقضى بعدم اهراق دم السلطان وسقوطه على الارض . وكان عثمان الثاني قوى البنية ، ضخم الجثة ، فاستغرقت عملية الخنق زهاء ثلاثة أيام ، ثم مثلوا بجثته بأن ربطوها في جبل وجرها أحد فرسانهم من ساحة السلطان احمد الى البحر .

وخصص المتحف الثاني للعاديات القديمة ، كالتابوت الرخامي الذي أعد ليدفن فيه الاسكندر الاكبر ، وقد دون على جوانبه تاريخ الاسكندر وفتوحاته . وعرضت في الطابق الثاني مقتنيات السلطان عبد الحميد وطرفه الفنية، ولعل أبداعها صنعا نموذج نحاسي صغير لمسجد كانت الحكومة البلغارية قدمته اليه هدية باسمها ومجموعة نفيسة من الاواني السكسونية والبللورية أهداها غليوم الثاني ،

فعلى كل صحن أو آنية منظر يمثل الطبيعة أو تقدم الحضارة في
المانيا .

على أن طابع استامبول القديمة يتمثل أيضاً في حصون
جوستينيان والاسوار البيزنطية التي اقتحمها محمد الفاتح ودخل
منها إلى المدينة ، وصهاريج المياه التي شيدها الرومانيون تحت
سطح الارض ، وكنيسة القديسة أيريني التي اقتبس منها بناء
أياصوفيا ونظام زخرفتها ، والمسلة الفرعونية القائمة في ميدان
جامع السلطان احمد ، كأنها في ارتفاعها الشامخ ، تتلوصية الدهر
من كتاب الخلود ...

بعد أن فرغنا من زيارة المساجد والتكايا والمقابر والمتاحف
وما خلقه المسلمون في هذه الارض الخالدة من دلائل المجد
والعظمة ، عرجنا على بعض القصور التاريخية ، فبدأنا « بتب
كابو » الذي بناه قسطنطين داراً للملكة ، فلما غزا العثمانيون
عاصمة قسطنطين استولوا عليه فيما استولوا من الكاتدرائيات
والقصور والحصون ، واتخذ محمد الفاتح مقر خلافته وموطن
عرشه .

وتعرض في « تب كابو » بعض العروش التي غنمها آل عثمان في خلال
غزوهم الممالك والامصار ، كالعرش الذي نقله السلطان سليم من
مصر ، وأيوان فارسي مرصع باليواقيت والعقيق ، وكشك يطلق
عليه « كشك بغداد » ، وعشرات من التيجان المرصعة بالجواهر
والاحجار الكريمة وفصوص من الزمرد والياقوت ، كانت تزين

فيما سلف عمام الخلفاء ، ليبهروا بها الرعية ، ويغزوا بريقها قلوب
الجوارى والحريم .

تطل سراى « تب كابو » على بحر مرمرية ، وهى مسكونة
من عدة دور شيدت في عصور مختلفة منها ما كان معداً لاجتماعات
الوزراء أو الصدر الاعظم ومنها ما كان مخصصاً للحريم أو لاقامة
السلطان . وفي الدار التى كان يعقد فيها الوزراء اجتماعهم وقع
نظرنا على مقعد مزركش بالقטיפه الحمراء ، تعلوه كوة صغيرة ،
فكان السلطان يجلس وراءها خفية لينصت الى مناقشات وزرائه
دون أن يفتنوا الى وجوده . وكما كان السلطان يهوى الاصغاء
الى حديث غيره ، فقد كان كذلك يبغض أن ينصت أحداً الى حديثه ،
ففى مخدمه الخاص ، شاهدنا سريراً ذا أربعة عمد طويلة متصلة
بالسقف ، والى جواره حنفية تصب الماء فى حوض من رخام ، فاذا
جلس السلطان يتحدث الى زواره فتحت الحنفية ليحول صوت
تدفق المياه دون سماع شىء من الحديث فى خارج القاعة .

وكانت فى حديقة القصر بركة دقيقة الصنع ، لتسبح نساء
السلطان وسرايه فيها ، وهذه البركة تطل عليها غرفة بها نافذة
صغيرة من الزجاج فكان السلطان يجلس خلفها ليمتع عينيه برؤية
أجمل نسائه ، وهن يسبحن فى ضوء القمر أو نور الفضاء ...

ولما غشنا «قاعة السفراء» قص الدليل علينا قصة السفراء
الذين كانوا ينتظرون فى هذه القاعة عدة أيام حتى يؤذن لهم بمقابلة
السلطان ، وفى خلال هذه الايام القلائل يكون رجال القصر قد

قتلوا أمامهم عشرات من الناس ، بقصد أرهايقهم قبل المثلول بين
يدي خاقان البرين والبحرين !

وفي القسم الخاص بتحف آل عثمان ومجوهراتهم، توجد مجموعة
من صناديق الخزف تعد الاولى من نوعها في العالم ، ومجموعة أخرى
من السيوف والخناجر المرصعة مقابضها بالاحجار الكريمة والحراب
والخوذات ، تتوجها شارة الاسلام : الهلال والنجمة . ومتزين
كانت كاترينا امبراطورة روسيا قدمت هدية لزوج السلطان عبدالحميد ،
وخزانه البردة الشريفة، وسيف عثمان وأبي بكر ، ورداء تيمورلنك ،
ويدو حنا المعمدان وقسم من جمجمته ، وغير ذلك من الطرف التي
يعجز القلم عن وصفها والفكر في استيعابها .

...

في أبهاء هذه القصور ، كما في رحاب الجوامع ، فن اسلامي
عميق يثملنا بعطره ويشيع في نفوسنا ضروب الاحساس الى حد
نؤثر أن نصبح عثمانيين في نظرنا الى الفن والى الاخلاق الفاضلة
من أن نظل متمدينين في تطفلنا على الحضارة الاوربية . فالفن
الاسلامي الحقيقي لم ينم على شواطئ دجلة والفرات ، ولم يولد في
مهاد بغداد الشهبانية ، ولا في أحضان طهران الفلسفية ، ولا في
أسواق دمشق التجارية ، لكنه ترعرع وبلغ أسمى ذروته على
ضفاف البسفور ، يروح به العثماني عن مشاعره المحلاة بالفضائل ،
ويستأثر به في داخل بيته كأداة للرفاهية واللذة ، لان الفن عند
الأتراك كان نوعاً من النعيم الدنيوي قبل أن يكون رمزاً

للحضارة أو الثقافة الدينية . فهو مائل في مآزر الهوانم المزركشة
بالقصب ، وفي تخطيط القفاطين الحريرية ، وفي خوذ الفرسان ودروعهم
وفي الاواني النحاسية المكففة بالذهب ، والزجاج الملون المطلي
بالميناء بل ، أن أثره ليبدو واضحاً جلياً في تنسيق القصور الغارقة
في الحدائق ، وفي موسيقاهم التي تنشر في الجوّ تموجات عواطفهم
وتحمل الاثير اهتزازات نفوسهم المشربة بالاناقة والنوق السليم !

...

كانت زيارتي لجامع أيوب طافحة بعطر الذكريات ...
قصده ذات أصيل ، وخيوط الشمس قد انتشرت فوق
الصخور ، وانعكست أشعتها الغاربة على عشرات من زجاج
النوافذ وأبراج القباب ، كأنما هي آثار حريق شب في حقل
حنطه !

وللجامع شهرة قديمة تعود الى أيام أن كان سلاطين آل
عثمان يتوجون في محرابه ، ويقبلون سيف عثمان الاول بعد أن
يطوقهم بحده « حاج بكتاش الكبير » زعيم الطائفة الدينية التي
تحمل هذا الاسم . وتزور الفتيات العذارى مقبرة أيوب الانصارى
عادة في اليوم السابق لزواجهن ، والصبيان قبل ختانهم ، ويكتظ
صحن الجامع بأسراب الحمام الذي يقترب من الزوار في دعة
وطمأنينة ليلتقط الحب من أيديهم .

وتقوم مدافن استامبول على مقربة من الجامع ، على سفح
جبل في قمته مقهى صغير أطلق عليه « مقهى بيير لوتي » ، إذ كان

الكاتب الفرنسي النابه ، يكثر من التردد عليه مع زميله كلود فارير ، صاحب المؤلفات الرائعة عن استامبول وحياة الحريم .
 ففي هذه الرقعة الصغيرة التي يكتنفها الهدوء وأحلام السكينة ،
 يسترد الكتاب والشعراء صفو اذهانهم وتواتيرهم عرائس أحلامهم .
 كم من المرات جاءها لوتى وعلى رأسه طربوشه مستعيراً اسم
 « عارف بك » وأحياناً « حسام افندى » ، فيجلس الساعات الطوال
 يدخن نارجيلته ويحدق في مياه « القرن الذهبي » وفي شباب الطبيعة
 المتجدد ، مستسلماً للتأمل والخيال العذب ، فاذا الملح عن بعد شبح
 صديقه الوفية « جنان » ، نهض من مكانه ليشقا طريقهما في مدينة
 الاموات ليتعهد بناء مقبرة « مدجة » ويستلهم روح صاحبها . وفي
 خلال الطريق يكون قد تحدث الى « جنان » في مشروع كتاب
 أو قصة يودعها آلام المرأة التركية . وكان لوتى يفرع الى هذا
 المقهى المتواضع المطل على مدينة الاموات وعلى قبر حبيبته
 مدجة ، فيجد فيه مادة الهامه ومهبط وحيه ، وفي أركان هذه
 الصومعة الصغيرة ، تحوطها أشجار السرو وأفواف الزهر ،
 أخرج للعالم ثمرة ناضجة من ثمار العقول المفكرة !

وكان ذكرى بيير لوتى حفزتنى الى أن أحرص في صبيحة
 اليوم التالى على زيارة الدار التي كان يقيم فيها بالقرب من « بايزيد » .
 ففي هذه الدار التي حولتها الحكومة الكهالية الى متحف
 باسمه . كتب روايته الرائعتين « ازياديه والشجيات » ، ووضع
 عقله وقلبه وتفكيره في كل سطر من سطورهما ، ودافع عن

المرأة التركية باحترام ، فكان محاميتها امام الرأى العام ، وكانت كتابته نوراً لعيون « الاشباح المعذبة » وضياء لعقولهن . حتى بلغ من اعجاب الطبقة المثقفة بكتبه ، ان اودعوها بين أيدي بناتهم وزوجاتهم ممهدين السبيل بذلك للانقلاب الاجتماعى الذى بدت بوادره فى جوانب تركيا .

وهل كان لوتى الا واحد من اولئك الكتاب الموهوبين الذين سرعان ما يفنسون ذواتهم فى ذاتية الشيء الموصوف ويتمصون روحه ويندمجون فى كيانه ؟ فهو فى مصر مصرى عندما كتب قصة « موت أنس الوجود » ، وفى اليابان يابانى يوم أخرج للناس « مدام كرينتيم » ، وفى تركيا عثمانى حين صور استامبول فى أحط ميولها كما رسمها فى تساميتها ورفعتها !

حسبه أن لم تربطه بالاتراك صلة غير صلة الاعجاب بمدنييتهم والتعلق بحضارتهم ، فكس حياته الادبية للاشادة بمجدهم وعمل على أن يبرز للعالم بعض ما فى هذه الارض من سحر وشعر وولع بكل صنوف الجمال !

...

استامبول فى انوار الليل غيرها فى وضوح النهار
 انحدرنا من حى بيك أوغلى الى « حدائق تقسيم » حيث تقيض المقاهى ومعازف الموسيقى ودور الغناء بألوان من اللهب البرىء .
 و « تقسيم » هو الميدان الرئيسى باستامبول ، اطلق عليه هذا

الاسم لقربه من الخزان الذي يوزع المياه أو يقسمها على المدينة .
 في وسط هذا الميدان نصب تذكارى لتخليد النهضة الكمالية ،
 نقشت على جوانبه رسوم تمثل الغازى فى لباسه العسكرى وهو
 يقود أنصاره نحو المجد ، ومنظر ثان للنساء التركيات يواسين
 الجرحى ويحملن الذخائر ، وثالث للغازى وهو يقدم كتاب
 الحرية الى أمته بعد انتصاراته الحاسمة على الحلفاء واليونان .
 وغشينا أحد هذه الملامى الصيفية على ضفاف البسفور ،
 نرى أعصابنا المنهوكة على نعمات موسيقى فيها رقة ونغومة
 ولرئيتها استسلام ورضا . فراعنى أن الفيت المطاعم والمقاهى تعج
 بطوائف من الشبان والفتيات ، يضحون ويتبارون فى الشراب ،
 فتتعالى الضحكات على صوت زجاجات الشمبانيا وقرع الكؤوس .
 فهل كانت الحضارة والتقدم عندهم فى التقبى وارثاء الملابس
 الاوربية والتقاتل على الغى والفساد ؟ ما أكثرهم من صغار بالنسبة
 الى اولئك الحكماء الذين كانوا ينتظرون هبوط أصوات المؤذنين
 لينطلقوا الى بيوت الله ، حتى إذا حانت منيتهم رحلوا الى العالم
 الآخر مطمئنين ، كأنهم سائرون الى نزهة جميلة !

تركيبا الجديرة

ياأخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة منك والاسلام
شوق



ما الذى يجذب السائح اليوم الى استامبول ، بعد أن انتزع
السكاليون سرها من صدرها ، واقتطعوا أوصالها من الشرق
لتستغرب ، فأثقلوا جوها بأزيز المحركات الآلية وقد كانت تشيع
فيه عذوبة أصوات المؤذنين وأدعية المؤمنين الحارة ، ونقلوا منها
عاصمتهم الى أنقرة وميناءهم الى أزمير؟

لم تعد استامبول بحق - كما كانت - مدينة المنائر والاسرار
وموطن السكينة والاحلام ، ولم يبق لاحد رجاء فى أن يراها
ثانية ، تحتضن الابطال والشعراء ، وترفرر عليها روح الشرق
الخالد ، بل لم يعد لها ذلك التأثير السحري المائل فى قصورها
البيزنطية ، وما كانت تضمه من مظاهر البذخ والابهة ، وروح
الفن الحالم ، المتعطش الى همس القبلات ، وأغانى الحب فى سكون
الليل ، تتصاعد من الشرفات المرمرية المنقعة بالازهار ! أو فى بيوتها
الاسلامية العظيمة ، تزينها أستار من مكة ، وسجوف حريرية من
دمشق ، وتحف من أسواق طهران ، وخشب محفورة عليها آيات

الكتاب . وخزف مموه بالذهب ، وفن شرقي يمتزج فيه النور بالظل ، واللون بالتخطيط ...

لست أنسى عصر يوم قصدت فيه إلى جامع محمود باشا ، وهو نموذج للفن التركي القديم ، فكانت أشجار السرو تلقى ظلها الرفيعة في صحن الجامع وتمتد السنة الظلال على الميمن وعلى اليسار فتكسب العين نوعاً من النشوة الدينية الفياضة ، وما أن تخطيت عتبة المسجد حتى انبعث من داخله سكون عميق لاحتركة فيه ، سكون لا تألفه إلا الاذان التي تسمع في الصمت ، والعيون التي تعودت أن تبصر في الظلمة . ووقمت ساعة أحدق في الآيات القرآنية المحفورة بالحروف الكوفية ، وفي كراسي المصاحف المطعمة بالصدف والآبنوس ، وقد انبثق في نفسي شعور خفي وتكاثفت أحلام حياتي في بهرة هذه الانوار المتلألئة ، وبدت أمامي عظمة الاسلام الحققة ، في انتصاره الباهر على عبادة المادة ، وفي رفع الانسان الى أوج ضميره الحر ، وعقيدته الدينية المقدسة .

ما أعظم الفرق بين تركيا الحديثة المستغربة ، التي دفنت مظاهر الاسلام وراء قضبان المادة ، وبين تركيا القديمة حين كان الجلوس على المقاهي يعد تطرفاً ، فيأوى الى أركانها الشيوخ الذين يميلون الى التأمل والاستسلام العذب لاجسام الغد ، ويقضون الساعات الطوال يرمقون الحياة بنظرة ثابتة مطمئنة ، هي وليدة الحكمة والتسليم بالمقدور ، فاذا حانت الصلاة وهبطت أصوات

المؤذنين من الشرفات ، تكون العائم والقفاطين والذقون المرسلات
قد تسلمت من الباب المشرع الى المحراب العارى لترفع صلاتها
الى الله ..

وأسفاه لقد تبدلت الحياة في جوانب استامبول ،
وخبا ذلك النور الوهاج الذى كان ينفخ المؤمنين الاتقياء
سعادة الفراديس ، واحتجبت هذه الصور الباسمة ، ولكن لا
كما تحتفى العجائب بالعصا السحرية . فهما حاول المبرنطون أن
يتجهوا شطر الغرب ويحددوا دين أسلافهم ولغتهم ، فان الروح
الشرقية الخالدة لاتزال تطفر من أعماق قلوبهم ، وما فتئت آثارها
الباهرة تشيع الاحساس في صدورهم فيهبزهم الحنين الى مجد الحدود ..
أولئك الذين بسطوا الحضارة الاسلاميه تحت ظلال السيوف ،
ونشروا كلمة الله فوق أسنة الحراب ، وحملوا الى شعوب أوروبا
أنبل ما فى الفكر الاسلامى من معنى . فالنصرة الغربية ليست
سوى ظواهر سطحية تجذب الكمالين بريقها الزائف ، أما
القومية الشرقية فهى حقيقتهم الخالدة ...

أذكر أنى سمعت من قاض مصرى فى المحاكم الشرعية كان
معى على نفس الباخرة ، أنه لما وصل الى جامع أيوب بعامتته
وقططانه ، تهافت المصلون على لثم يده والتبرك بملابسه التى تحمل
رمز الاسلام ، وجالت الدموع فى عيونهم وهم يطلبون اليه أن
يسمعهم القرآن فى اللغة التى نزل بها ، فما كاد يقرأ عليهم سورة

يس حتى كانوا في نشوة روحية ، وفي شبه حلم بالجنة التي هم بها
موجودون !

...

في غير سراى « تب كابو » أتاحت لنا زيارة قصور ضالعة
بخشة وشراجان ويلديز ، وغيرها مما حوله الكهاليون الى متاحف
أو معارض أو مدارس . هذه القصور شهدت ألواناً من الترف
الرخو وصنوفاً من المتاع واللذة الآثمة ، وتمرغ أصحابها في
ظلال العز الشرقي البائد ، وغرقوا الى أذقانهم في أنهر من خمر
وغيوم من بخور المسك والكافور ، وجوار وسبايا يجلبهن تجار
الريق من مختلف بقاع الشرق فيجددن في هذه القصور العتيقة
قواها ، بما في عروقهن من دماء نقية حارة ...

بعض هذا الترف المائع والشهوات الرخوة ، كان يلهى
السلطين عن ذكر الله وعن الالتفات لشؤون الرعية. ولعمري أن
المساجد والتكايا ودور العبادة ، أقامها الخلفاء لاحقاً في العبادة
وذكر الله ، إنما ليصرفوا بها الشعب عن مظالمهم وما كان يجري
وراء أسوارهم من المتاع المحرم ، ولتكون زلفى الى رب البيت
كى يغفر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ...

وبدلاً من أن يرى المسلمون خلفاء نبيهم الكريم متنقلين
فوق سهوات جيادهم من تونس الى الافغان ، ومن بلاد الحجر
الى جزيرة العرب ، آثر الخلفاء الانزواء فى داخل قصورهم ،
فهجروا الجهاد فى سبيل الله من أجل شهوتهم للمرأة ، وتهافتوا

على أسرة البذخ يروون كل ما في أجسادهم من عواطف شهوانية، حتى أفنوا قواهم وأراقوا حيويتهم... أما الشعب فلم يأبها لمصالحه، بل عهدوا بها للوزراء والولاة والحكام، فساموا الناس شر عذاب وراحوا يجبون الضرائب بالحق والباطل ليسدوا مطالب القصر وغوانيه ويكفلوا نفقات العرش والخلافة. حتى الاغوات والخصيان تجاوزت سلطتهم كل السلطات، فرفعوا سيف الارهاب وبعثوا أساليب عصور الظلام، فدرست معالم الحرية ونقص مجد الدولة بعد أن استهدف الشعب لاشد ضروب العدوان، وتفتت الجاسوسية في الجيش وفي المرافق العامة، وأصبحت تركيا بحق كما أطلق عليها الساسة «الرجل المريض»، وهذا مادفع الشباب الى أن يتقدم بالثقب يلهب به برميل البارود، فتتشب الثورة، ويطرده الحلفاء، وتلغى الخلافة، ويثل عرش آل عثمان، وينهض «الرجل المريض» مستعيداً بعض عافيته، ويتساوى مع غيره في التفكير خيرا لامة وسعادتها.

...

فلو أن النهضة الكمالية سارت في طريقها الطبيعي وجمعت هدفها الاسمي استعادة مجد آل عثمان الغابر واسترداد نفوذ الامبراطورية الناهب، لا كتسبت عطف العالم الاسلامي وأحرزت اعجاب أهل الشرق، لكنها كانت متأثرة الى حد بعيد بخصائص الثورة البلشفية. أي ان كليهما عند ما عملت على تكوين أمة جديدة تقوم على نظم خاصة تسهر على حمايتها

دكتاتورية عسكرية ، بدأت بأزالة ما يعترض تكوينها من عراقيل وانتزاع الايمان بالماضى من قلوب الجماهير . فخاربت الدين باسم حرية العقيدة، ونبذت الاوضاع الاجتماعية تحت ستار التجديد ، وقضت على الروح التقليدية وعلى العقائد الموروثة فى العادات والاخلاق توطئة لتأسيس مجتمع جديد لا تربطه بالماضى صلة ، وكانت هذه هى أدوات الثورة فى أطوار بعضها .

على أن أول انقلاب قام به الكهاليون هو أن ثلوا عرش آل عثمان ثم ألغوا الخلافة . فقد رأوا فى السلطان خصما ينبغى القضاء عليه وعقبة فى سبيل قيام جمهورية تدين بمثل الثورة العليا وتنفذ سياسة الهدم والبناء ، ورأوا فى الخلافة شبحاً ميتاً يجب اغلاق ضريحه بأصفاد من حديد حتى يحجوا عن الدولة مظاهر الدين الحنيف . وقد وصف الاستاذ جلال نورى بك ، أحد الكتّاب الذين لعبوا دوراً هاماً فى الانقلاب الاخير ، أثر الغاء السلطنة فى نفوس الشعب فقال :

لقد عودنا على أن نلقن بأننا عبيد الملك ، ظل الله فوق الارض ، واننا له ملك ومتاع . وهذا يتضمن بالضرورة الاعتقاد بأنه ليس لدينا من شىء يمكن أن يقاوم قوة خليفة الله الواحد القهار ، المتربع فوق عرش الارض ، وانه لن يكون من نظام اجتماعى أثبت أصولاً من اجتماعنا ، ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا ، بينما كانت الحقائق الملموسة توحى لنا كل حين بان فى أنحاء مملكتنا فقر وجوع ، وأن جزءاً بعد جزء من

أطراف الامبراطورية كان يؤخذ عنوة ورغماً عنا نهياً واغتصاباً .
وكانت لنا حكومة هي من أحط الحكومات الاوربية ،
متردية في حماة الرشوة ، مفككة الاوصال مضطربة الاحوال ،
بعيدة عن حكم الشرائع والآداب . وكنا نستجدي الغرب في كل
شيء نحتاج اليه . ومع كل ، فقد كان لدينا « ظل الله فوق الارض »
وأربعون زوجة من زوجاته ، وأربعون غلاماً ممن تعرف ولا
أذكر ! فاذا أصابنا الأتحال في الداخل ولم يكن لدينا من سبيل
لكي نفهم الحق وأن نعرف الحقيقة ، الا بأن نتصل من طريق ما
بالمعرفة الاوربية ، وأن نعتز بتفوق العقلية الغربية ، وأن
نكسب على درس الاسباب التي غرست الشقاء والتعاسة في أرض
من كنا نعتقد أنه « ظل الله فوق الارض » . لما فعلنا ذلك ،
ظهر لنا أن « ظل الله فوق الارض » لم يكن شيئاً ، اللهم الا صنماً
مفقود القوة والروح ، كأي صنم من أصنام « بوذا » ، وكان
لنا بمحمد أسوة ، فكما أنه حطم أصنام مكة والمدينة ، كذلك
نحن حطمنا أصنام الخلفاء والمذاهب القديمة والتكايا والقبور .
ويلوح لنا أن الغاء الخلافة كان أمراً لا مفر منه بعد ان قر
في عزم السكالميين الاقتداء بالسوفييت في سياستهم الهدامة وترسم
خطواتهم في القضاء على الظواهر الدينية . فقد كان الاتراك
يتكلمون باسم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، كما كان
الروسيون يظهرون بمظهر حماة المسيحية قبل الحرب . ولم يكن
الغاء الخلافة نزوة من نزوات الثورة ، بل الحلقة الاولى من

برنامج موضوع لفصم الوشيجة التي تربطهم بالعرب ، اخوانهم في الدين والروح والفكر ، والتخلص من تبعتهم الاسمية امام مطامع أوروبا .

وكما كان الغاء الخلافة من الحوادث التاريخية التي تنبه لها المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ، كذلك كان من البواعث التي دفعت المسلمين الى انزاع عواطفهم من تركيا بعد أن زالت عنها الخلافة وشهدت غروب شمسها ، والانقضاء من حول « الجامعة الاسلامية » التي ظل رجال السياسة العثمانية يؤيدونها ويعملون على تحقيقها ، ليوقظوا بها شعور ملايين المسلمين ، ويصدوا بها تيار أوروبا المسيحية . ولم تلبث تركيا بالغائها الخلافة ، ان انتقلت من امبراطورية عظيمة الشأن ، لها ماض وتراث حافل بضروب العظمة ومجد الفتوحات العسكرية ، الى مرتبة الدول البلقانية الصغيرة .

وكان من أشد عوامل هذا التطور هو ترك الشباب للروحانية الشرقية وراء ظهره ، ليسير على خطى النبي الجديد الذي يحمل اليهم الدعوة الى اعتناق المدنية الغربية ، وقطع الاواصر الروحية والمعنوية التي تربطهم بالشرق . ففى سبيل ذلك فصلوا الدين عن الدولة ، واتخذوا القبعة شعاراً لهم لتزيدهم إمعاناً في البعد عما يقربهم من العرب ، وأبدلوا الحروف العربية باللاتينية فحوا من تاريخهم ستة قرون ، وأختفت معارض

الخط العربي الجميل الذي يزين المساجد ودور العبادة . وآثروا
الكلمات الافرنجية على العربية ليقطعوا الوشيجة بين آدابهم
وآداب الامم التي شاركتهم في تكوين حضارة اسلامية راقية .
والدين الذي رفع الاتراك الى مصاف الامم العظيمة
والشعوب الراقية وعبد الطريق امامهم الى فتوحات خالدة في
قلب أوروبا وأطراف الممالك الاسلامية ، لا يمكن أن يكون
سبباً في القضاء عليه ومحوه بحجة أنه كان باعثاً لانحلال
الامبراطورية وأداة في نشر الجهل والجمود . ولقد اجتهد
الكمايون الاسلام من جذوره ، فترجموا كتاب الله الكريم
وفرضوا الاذان والصلاة بالتركية ، مع أن الكنائس في أوروبا
على اختلاف لغاتها لا تزال الصلاة تؤدي فيها باللاتينية وحدها .
وأحلوا القانون المدني السويسري محل الشريعة المحمدية ،
واستبدلوا عطلة الجمعة بالاحد ، والغوا العيدين ومناسك الحج ،
فخرموا الشعب تقاليد الاسلام وفضائله .

اما المرأة فقادوها الى الملامى وزجوا بها الى انوار المراقص
باسم تحريرها ، وأباحوا زواجها من غير المسلم بعد أن كانت
ترى نفسها أعز وأرفع من أن يلي أمرها غير ابن دينها ، وصرحوا
باحترافها الرقص والتمثيل وبافتتاح دور دعارة رسمية تمشيحاً مع
سنن الحضارة الغربية التي اقتبسوا نفاياتها وقشورها .

وتقوم تركيا الجديدة على الصناعة وتنمية الموارد الاقتصادية
فقد تحولت التسكيا الى مصانع ، وصارت الآلة طابع حضارتها

الحديثة ، وعنوان رقيها ، وأصبح شباب الجيل الجديد في حاجة ملحة الى كسب وسائل العيش ومقاومة أعاصير الحياة . وهذا السعى وراء الخبز اليومي . مع الاندفاع المتطرف الى الالعب الرياضية وضروب اللهو ، والأخذ بتوسع في أفانين الحضارة الاوروية ، مما يحول بين الافراد وبين التأثير بالدين وتغذية عقولهم وتذوق الثقافة على وجهها الصحيح . ولو أن الجيل الجديد يستطيع أن يوازن بين الدرس وبين التسكاب على الحضارة الاوروية وما تحمله في طياتها من سموم ، لرأينا من تركيا دولة اخرى لها ما لليابان من قوة النفوذ والسيطرة . ومما يلاحظ أيضاً ، ان جو تركيا في الماضي - أي قبل ان ينقل اليها الكماليون الآلة وما تبعها من تقلبات اجتماعية - كان أكثر هدوءاً وطمأنينة ، وأميل الى الروح الفطرية الساذجة ، ولم تكن هناك بطالة ولا ازمات اقتصادية كالتي نسمع بها الآن ، ولا ضرائب فادحة يئن منها الشعب وتدفعه الى النفور من الطابع الجديد .

والواقع أن النهضة الكمالية لم تأت بشيء جديد سوى أنها اقتبست تراث الحضارة الاوروية بصورة مشوهة . فخالقوا الطبيعة في التجديد ، وقاسوا الدين والاخلاق بمقياس الصناعة والحضارة . فكان كل ما عندهم باطلا يجب أن يحاربوه ، وكل ما في أوروبا حق يجب أن يجلبوه كالسلع . وهم يحتجون بأن القلب قد تغير فيجب أن تتغير العقلية التركية تبعاً له . مع أن القلب الحى هو الذي يخلق الامم ويشيد الحضارات ويؤمن

بسياسة الاعوجاج ليقومها ويرقى بالشعب الى المكانة اللائقة
 به بين الشعوب . وقد كان في استطاعة الكمالين ان يمارسوا
 حضارة الغرب مع المحافظة على شرقيتهم وخصائصهم العنصرية ،
 وهذه اليابان - مع المحافظة على طابعها الشرقي الخاص وعقائدها
 الموروثة - لا تقل عن اعظم امبراطورية في العالم رقياً وحضارة ،
 وحجة الكمالين في ذلك ان اليابان اعتنقت أفكار أوروبا
 وعقليتها تماماً ، ولو انها ظلت كالصين على العقلية الاسيوية لما
 أتيج لها أن تكون صاحبة نفوذ كما هي عليه الآن ، وتركيابتريد ،
 مع احتفاظها بقوميتها وخصائصها العنصرية ، ان تعتنق مدينة أوروبا
 بكاملها وأن تصطبغ بحضارتها وأن تدين بمثلها العليا ، وليس
 لها دون ذلك أى هدف ترمي اليه ، ولا يحسب اخواننا العرب
 أن في تغيير لباس الرأس مثلاً ، وأخذ الكثير من عادات الغرب
 معناه تغيير لخصائصنا العنصرية ، لا ! فنحن الآن أحرص في
 المحافظة عليها من قبل . . . وجل ما في الامر ان عنايتنا أصبحت
 باللباب دون القشور التي لا يزال الشرق متمسكاً بها تمسكه
 بالعقائد الصحيحة » .

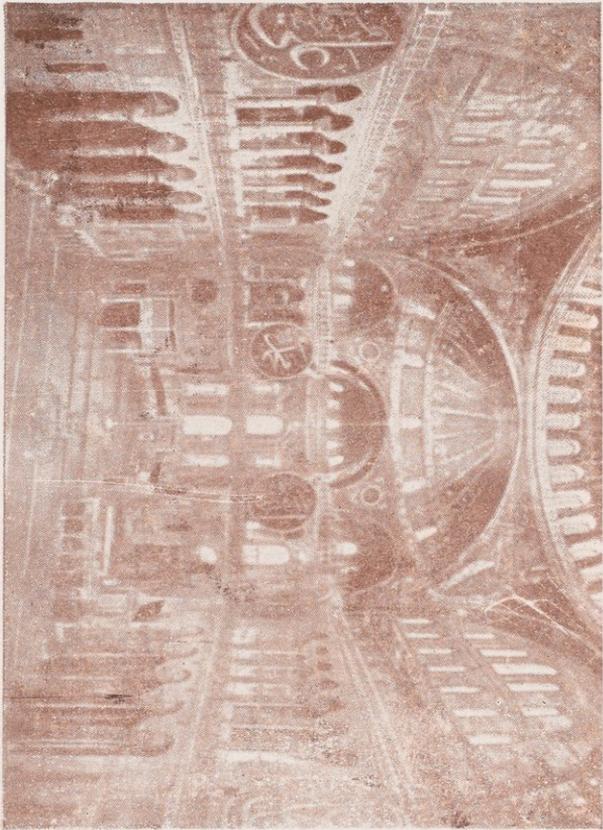
ويحسن بنا الان نفعل أخيراً حقيقة بارزة وهي أن الجمهورية
 وقد فرضت سيطرتها الدكتاتورية - حرصاً على سلامتها وعلى
 بقاء نظمها - رأت أن تعمل جهدها على الاتصال بعقلية النشء
 لصبغها بالصبغة القومية الخالصة وبث روح « الجامعة الطورانية »
 في نفوس الافراد والجماعات . فمن الدروس التي تلقن للنشء مثلاً :

أعظم البر يجب أن تقوم به نحو الوطن . وهذا الوطن لا يمكن أن نحمله بالصلاة . إنما يحمي بالسلاح وقوة السواعد المفتولة . وهل كان يمكننا أن نتصر في حرب الاستقلال لولا الاسلحة والجنود » وفي كتاب « دروس دينية لصبيان الجمهورية » : تعرفون ان الاتراك دانوا بالاسلام ودخلوا في هذا الدين الصادق البسيط فليس فيه مكان للاساطير عن الملائكة وعن الفسان ولسان وسائر ما لا يقبله العقل . ان الاسلام لا يدعو الى التعصب ، بل يدعو الى الحضارة والى الحضارة الجديدة . ونحن الاتراك ننتهي الى أمة متمدينة وقد طردنا التعصب من بلادنا ، وقبرنا الجهل ولن نسمح أن نعود اليه . فما اسعدكم إذ تعيشون في عصر الجمهورية .

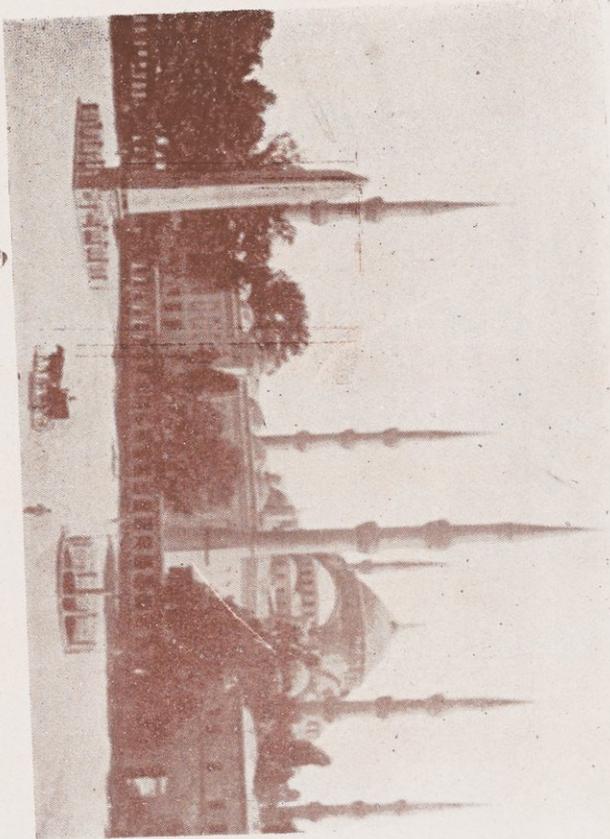
وليست هذه الافكار والتعاليم التي تلقن للنشء الجديد شيئاً بالنسبة لما يصرح به كبار مفكرهم وكتابهم ، ففي آراء هذه الفئة وضوح قوى لمناضلة الفلسفة القدرية التي يدين بها الشرق . وهذا جلال نورى بك ، يبحث خصائص تركيا الجديدة على ضوء من التعاليم الاسلامية والتعاليم الغربية معاً فيعطل الدوافع التي دفعت الاتراك لاعتناق حضارة الغرب بقوله : لقد فهم الأتراك أخيراً أن الاقوام الذين يعلقون مستقبلهم بمستقبل نظام ديني لا يحتمل ان يكونوا سعداء . ولذا انضم الاتراك الى المثل الغربي الأعلى ، مثل القومية . ورضوا به بديلاً عن الاخوة الاسلامية القديمة . فاذا أردت ان

تكون مخلصاً للماضى متمسكاً به ، وأن تظل في وحدة مع مستقبل ثلاثمائة مليون من المحافظين الجامدين الذين لم يعرفوا للرقى معنى ولا ذاقوا للحضارة طعماً . فليس لهذا من معنى الا أن تثور ضد الحاضر والمستقبل ، بل معناه الصريح أنك تفقد كياناتك القومى . يجب علينا أن نتحل أسلوب التفكير الغربى ، وليس في الغرب من يهتم أقل اهتمام بشيء من النظريات المحررة المستمدة من الماضى ، مهما كان مصدرها ومهما كانت منزلة القائل بها ، في حين اننا في الشرق نجد أن العلم قائم على التقاليد . وبينما نجد أن العقل قد سفل واخضع ، نجد أن التقاليد استغلت وسادت . والتفكير في الغرب غير مقيد . على حين أنه في الشرق مقيد مستبد به ، محتكم فيه .

والخلاصة أن الانقلاب الاخير خلق من الاتراك شعباً مفتوناً بكل ما هو أوروبى ، وجعل من أرضهم بلاداً جديدة ، حتى ان امتامبول التي اشتهرت بجمالها الطبيعى وسحر نسائها ، هي الآن أقل فتنة وأدنى طابعاً مما كانت عليه ، وأصبحت المرأة في حالة تدهور اجتماعى نظراً لاطلاق قيودها والسماح لها بالاشترك في الحفلات الساهرة والمراقص ، فلا يسع المرء وهو يرى تر كيا الجديدة الا ان يتناثر سروره كحلم تبدهه يقظة الصباح .

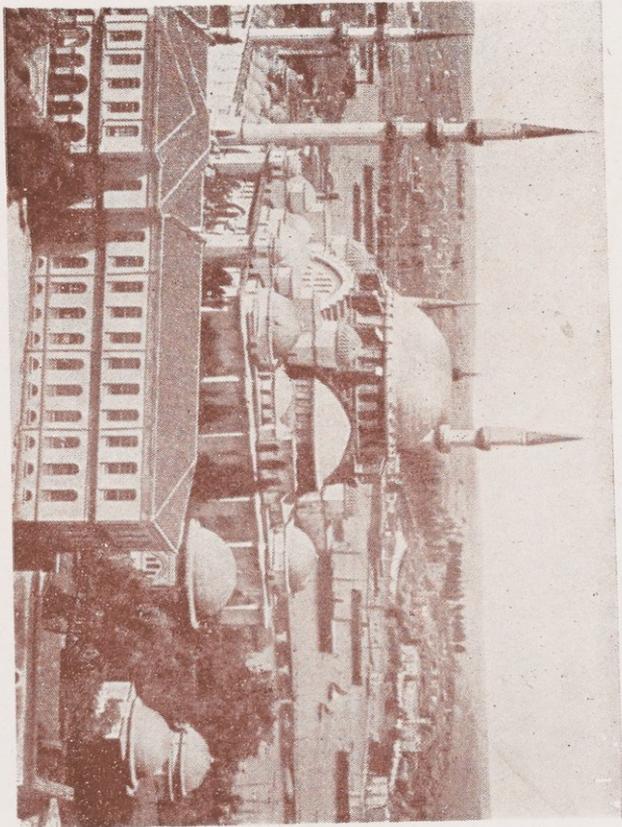


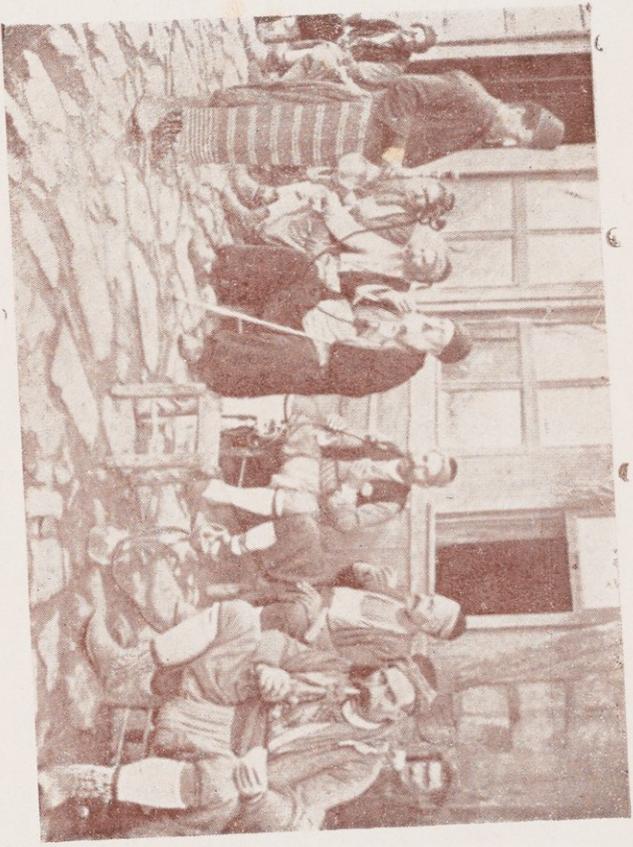
مسجد ايا صوفيا قبل أن تحول الى متحف



مسجد السلطان احمد والمسجد الفرعوني

مسجد السلطانية





مقرى سبر لوق ويرى شيخ السكاتب العظيم خلف زجاج النافذة

في الطريق من استامبول الى رومانيا

غروب شمس

في البحر الاسود



ودعت استامبول في يوم صفا أديمه وراقت سماؤه ، وانطلقت
السيارة تمتاز بنا الدروب والشوارع الى ميناء «غلطة» ، والقلب
مترع لوعة وأسى ! ترى هل يتاح مرة أخرى أن نملي العين فيض
هذا الجمال الذي خلغته الطبيعة ووشت به هذه البقعة المباركة
من الارض؟

غادرنا استامبول اذن على الرغم منا ، فمن يستاف العبير من
هذا الفردوس الارضى ، يحس من سويداء قلبه أن زيارة واحدة
لا تكفيه في العمر ، بل عشرات الزيارات كي تزداد النفس تشرباً
بحسنه وتعلقاً باجتلاء مقاتنه !

انظر الى هذه الطبيعة التي مزجها الانسان بحسه وذوقه ،
فنفض في سفوح التلال وروايبها روحاً تجعل بين الخلاق والمخلوق
صلة وثيقة غرضها التعاون على إبراز الجمال ، وانظر الى هذه
البحار

الشمس العظيمة وهي تبسط أشعتها فوق القباب المستديرة والقنن
الحدباء فتبرق أطرافها في الضوء الساطع، كالذهب يتوهج في
كف الرجل الكريم، ثم النظر الى السماء ساعة الاصيل وهي تكاد
تذيب تبرها عند نهاية الافق فتكابد الشمس وتحاول أن تنفذ
أشعتها من وراء الغمام. وانظر اليها مرة أخرى بعد الاصيل
تراها مرقطة بالنجوم، سابحة في لجة القمر، والى القوارب ذات
الاشرعة اللعينية وهي تجبو في نور الفضاء، تحمل عشاقاً وصبايا،
لا يجد الحب راحته الا على وجناتهن الناضرة، ينعمن في سحر
هذا الليل الشرقي البهيج، وكل صنو قرير عين بصاحبه.

واستمع الى حفيف أجنحة الطيور وأناشيد البسابل في
« حدائق تقسيم » وملاهيها، والى أهازيج الحب وأنغام الموسيقى
منبعثة من القوارب أو المقاهي المتناثرة على ضفاف القرن الذهبي.
ثم اسمع صوت المؤذن وهو يدعو المتعبدين الى الصلوات وعلى
رأسه القبعة، هل ترى التقبع حجب ما كان يدينه وبين الخالق
فألهاه عن ذكر الله، أم أن الايمان الصحيح مكانه في السويداء
لا يتزعزع الا من ضعف العقيدة ودوام التشكك؟

وذرفت من عيني دمة حرى!

لا أدري أكانت من تلك الدموع التي تفيض بها المآقي ساعة
البين، أم ان ذكر الاسلام هفما بخاطري فترحمت على العقيدة التي كانت
تثنى ركب المؤمنين من آل عثمان في ظلال المساجد، فكانوا
أحرص المساميين عكوفاً على العبادة وجهاداً لرفعة الدين الحنيف،

كيف خلت اليوم منهم بيوت الله ، فعطلت فيها الشعائر الدينية
وانتفت منها تعاليم محمد ، وصبا عنها المؤمنون الى زخرف
الدينا وباطلها .

تحركت السفين وأخذت تحتماز البسفور الهويننا ، كأنما تريد
أن تمتع ركابها ببعض هذا الجمال ، وكنت تنظر الى وجوههم فاذا
بها مشرقة حاملة ، والى عيونهم فاذا فيها استسلام ورضى ، وكيف
يستطيعون اخفاء ما فى قلوبهم ، وهذه السماء الضاحكة والموج
البسام ، تذيب الشمس فيه تبرا ساعا الاصيل . وهذه الجبال
الشاخنة ، المتعاقبة قممها الجرداء من شهوة الطبيعة ، لا تستقر العين
عند جزء من مهابتها وعظمتها . وهذه القصور التى كانت
تتوارى الجوارى والقيان خلف شرفاتها المبرقة بمربات خشبية
ليحملن الحمام الزاجل بعض ما فى صدورهن من تنهدات حارة...
فكل ما نراه جاثما أمام أعيننا ينطق عن السحر والهوى ،
وهل كانت استامبول الا مرتع ربات الجمال ، وفيضاً من هذا
النعيم الذى حملته حواء معها يوم خرجت من الفردوس تنثره
فى بقاع الارض لتجعل منها منبع فتنة للانسان ؟
وداعاً أيتها البلاد العميقة الجمال .

أيتها المساجد المقدسة ، التى كان يتربع فوق صدرك آخر
محراب خلافة آل عثمان ...

أيتها المعابد التى كانت عامرة بذكر الله ، متعالية فوق هذه
الحياة الصاخبة قبل أن تدنسك مدينة الغرب ، مدينة المغرورين ،

الذين يد كون بفضاعة معالم الجمال التي صانت الاجيال حرمتها
فأبقت عليها كرمز لمجد الانسان...

أيتها القباب الشاهقة البياض ، قبل أن يحجبك عن أبصار
المؤمنين دخان المصانع أو دخان البواخر التي ترسو في ظلالك ..
أيتها المآذن المتسامية في الفضاء، الناشرة في الضباب العابر جواً
خاشعاً ترعش فيه آلاف الذكريات ، والمشع من الأهلة المذهبة التي
تتوج أطرافك حلم الاسلام مقروناً بفكرة الله الواحد القهار ..
وداعاً يا استامبول .. قبل أن تنزلق الباخرة بنا خارج حصون
البسفور ، بعيدة عن سننك الفتان ، فلا شيء عندي يعادل
جمالك ، ولا جلال في الوجود يمكن أن يدانيك ساعة الاصيل
وأنت راقدة على ضفاف البسفور ، تبكين الترف الذي كان ينبعثك
في البداية والفقير الذي يكاد يقتلك في النهاية !

وكما يذوب الراحل في عين مودعه على أمل لقاء قريب ...
أراني أنغمض عيني على جمالك العطر، وأبعد عن خاطري كل ماعداه
حتى أمضى به كاملاً وأعود اليك مرة أخرى .

...

ها قد تخطينا البسفور الى مياه البحر الاسود ، فتحوات
ابتسامه الطبيعة في لحظة واحدة الى غموض واضطراب ، وها هو
الفرع والضيق يحلان في القلوب محل الوداعة والسكينة ، فما كل
هذا العباب الادكن ، والسحب القائمة ، والشمس معصوبة الجبين ،
تحوطها دارة من الشفق الدامي ، وما هؤلاء الركاب يتسللون لو اذآ

من قاعة الطعام - وحرارة الشاي لاتزال في أفواهمهم - الى حيث
يأمنون دوار البحر في مضاجعهم ؟

وتلقت حوالى ، فاذا الافق غارق في لجات من غمام بدت
كالحيتان السابحة في الفضاء ... والموج يتكاثف على جانبي السفين
كحاجز ثقيل ، في استرخاء أفيال هرمة ، والشمس راقدة في شفق
اصطبغ بد كنة الماء وصفرة الذهب ..

وان هي الا لحظات قصار حتى بدا القمر عن يميننا ، ترف على
وجهه أحلام صافية ، فتروذ الشمس بعينها الدامية ويدوب احمرار
الاصيل شيئاً فشيئاً في قمام الغمام ، حتى خيل الينا أن السماء قد
حوت مغرباً ذا روعة وسنا فجر !

أمام هذا المشهد العميق الرهيب ، بدأت الحيتان تزحف
متباطئة ومترددة في الفضاء ، تسبقها بقع صغيرة ، كأنما هي فول
راياتها سود تتقدمها للقتال ، ثم تحاول أن تلتصق بوجه الشمس
لتلتقي عليها وشاحا يصددها عن الطلوع أمام جلال القمر الرائع ،
فلا تزداد الشمس الا ثورة وهياجاً ، وترسل أشعتها على هذه
الحيتان السابحة لتصلبها لهيباً ودماً ، وتصبغ الوجود باطواق من
نور ونار كأنهما منبعثان من فوهة بركان ، ثم يهب بعد لحظة
اعصار شديد دافع ، فكأن في السماء قوى خفية تصب العذاب
حتى ليرجف سطح البحر اطاعة لامرها ، كالجواد يرجف تحت
راكبه .

ذكرت في هذا الجو الذي تتصارع فيه كافة عناصر الطبيعة،

وأمام هذه المعركة القائمة في السماء، ماقرأتها في كتب الاقدمين
 عن حديث عكرمة والسبعين الف ملك الذين يأمرون الشمس في
 كل صباح بالطلوع فتقول لهم : كيف أطلع على قوم يعبدونني
 من دون الله ، فيأتيها شيطان يستقبل الضياء يريد صدّها عن
 الطلوع فتطلع على قرنيه ويحرقه الله تحتها ، وما غربت قط الا
 خرت لله ساجدة، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود
 فتغرب على قرنيه ويحرقه الله تحتها .

أخذت أذكر حديث عكرمة وأردده وأنا أتخيل هذا الاله
 الذي يصبغ لون السماء أشباح آلاف الشياطين ، وهذه العواصف
 أنفاساً فتصاعد من أفواههم ، وهذا الرعد الذي تستد له المسامع إن
 هو الا أصوات السياط يسوقون بها الحيتان المنذرة في الفضاء
 لحثها على القتال .

ولكن الشمس كان قد نالها من كد النهار ومن نضال القمر
 وغزو حيتان الغمام ما أدمى وجهها وهد قواها ، فاذا بقرصها
 المهزول يرسل أشعة طفيفة حمراء كخيوط الدماء ..

وكان القمر قد أنذرتة العاصفة بالمطر فستر رأسه الجميل بين
 السحب ، ثم همى الماء مدراراً فكأنه حزن فاض من قلب السماء
 فأرسلته دموعاً ، واذا بالشمس تفرق بين عدوان الطبيعة وهتون
 المطر ، والسفين تسير في ديجور تسيطر فيه آلهة الظلمة ، حتى حسبنها
 تتخبط بنا في بحر من مداد أسود ، مندفعة صوب مصير مجهول .

في رومانيا

« بلاد العواطف والجمال »

لاحت مدينة كنيستزا — عروس البحر الاسود — في
هدأة الفجر الجميل ، راقدة تحت أشعة الفنار المتلائية وأضواء
القمر الكافية ، كإسوة سوداء تتألق على صدر أمير خيالي من
أمراء الف ليلة ..

وكانت الليلة التي قضيناها في البحر الاسود من أسوأ الليالي
التي مرت بنا ، فعواصف تزجر ، فاغرة فاها لابتلاع السفين ،
وأمواج تصخب وتزأر ، كذئاب كاسرة تلهث متحفزة نحو
فريستها بعد أن عذبها الجوع وأضواها ، ورياح حاصبة تضرب
جانبي السفين كسياط من حديد ، ونفوس والهة تترجى رحمة
الرحمن . فلما أوشكنا أن نقرب من اليابسة ، بعد أن مررنا بفنار
كونستزا الذي كان يوزع أشعته في هدوء الفجر كخيوط من
النور ، شعرنا جميعاً أن الله استجاب دعاءنا فانقذنا من غول
البحر الاسود ، وبرزت الميناء أمامنا كأنها فاتحة ذراعيها لتضم
السفين اليها ، وأحسسنا أحساس طفل عاد الى أمه بعد أن ضل
طريقه في غابة كثيفة مملوءة بالرعب والمخاطر ...

وكأن ما نالنا من دوار البحر ، وما قذفته أجوافنا من مواد
صفراوية ، قد غسل قلوبنا ، ونفى عنها المرارة التي تعكر صفاء
الدهن ، فزلنا من الباخرة الى شوارع كنيستزابوجوه تظفر بشراً ،
وكانت الشمس قد بدأت ترسل أول خيوطها الذهبية الشاحبة ،
فتلمس العيون الحاملة ، وتصبغ أطراف الكنائس والابراج بلون
وردي ، حين كان نور السماء يلقها بأطار بنفسجي ممتزج بضباب خفيف .

كنيستزاهي بلا شك عروس البحر الاسود — وان
كانت « وارنة » تنازعها عرش فتنتها — ورغم صبغتها التجارية
كميناء رسمي ، ففيها « مستحجات مامايا » التي تشبه شواطئ
دوفيل ، وعلى مقربة منها مصيف البرنس ميشيل ولى العهد ،
والملكة الشاعرة ماري . وفي المدينة مساجد ثلاثة ، يؤمها
المسلمون كلما حانت الصلاة ، وجلهم من الاتراك والبلغار
والبلقانيين ، الذين يزاولون عادة تجارة الدخان والالبان والحبوب .
وهم على الرغم من تمسكهم بقواعد دينهم ، وحرصهم على تنويع
رؤوسهم بشعار الاسلام في شرق أوربا ، محتقرون في بلادهم ،
غرباء عن العالم الاسلامي لا يكاد يسمع بهم أحد ، ولا يلقون
مساعداً مادية أو ثقافية ، وقد بدأت جماعات منهم تنزع عن
رومانيا طلباً للهجرة .

لا تكاد تغادر الميناء حتى تصطدم عينك بمنظر العربات
الفخمة ، تجرها الخيول المطهمة ، وهي مصطفة في ساحة الجمر

في كبرياء وأرستقراطية زائلة ، يقودها حوزية عملاقة ، في
 ثيابهم الروسية . وترى الابنية الشاهقة المشيدة بالقرب من الساحل
 « كنادى الملك كارول البحرى » والى جانبه كازينو منسق
 على نظام مونت كارلو . وفي الناحية المقابلة بعض الدور الخاصة
 بالملاحين ورجال السفن ، فاذا انحدرت الى الشارع الرئيسى الذى
 يتوسط المدينة ، تجلى على الجانبين الفنادق والمشارب والمقاهى ،
 يجلس الناس اليها بملابس الشاطيء دون خشية أو خجل ، حيث
 تفرغ لهم الثلجات محتوياتها !

في هذا الشارع يقع « ميدان العمودية » وهو ميدان فسيح
 يتوسطه نصب عظيم للشاعر الرومانى أوفيدىوس نسقت حوله
 حديقة صغيرة جميلة ، كان الشاعر يجلس فيها يفكر ، ويستوحى
 الهمة الشعر ، وبتأثير هذا الوحي كان يقرض الاشعار ، التى خلدت
 اسمه على ممر الاجيال . فأوفيدىوس لم يكن شاعر رومانيا
 فحسب ، بل شاعر البلقان بأكملها ، وقد تجلت آثار روحه العظيمة
 في توجيه الادب الرومانى الى أسمى عاطفة وأنبى تفكير .

...

على سواحل « مامايا » وفي مستحماها يذهلك هذا الجمال
 الرومانى المونق ، فهو جأثم فى الطبيعة الضاحكة ، والموج البسام
 وعلى الشاطيء المعرع تفتش رماله الغوانى والعدارى ، يرقبن
 خطى سعادة قادمة أو حب جديد مجهول ...

ماذا فعلت الطبيعة بهؤلاء الرومانيات ؟ لقد مهوت بينها

ويذهبن معااهدة صداقة وثيقة ، فلم تبخل عليهن بكل ماتملك من شباب وجمال . حبتن قواما لندا ممشوقا ، يحمل معاني النصارة والعافية ، وغصناً رطباً يحرك حرارة الهوى في القلوب ، وشفاهها رقيقة ، ظمأى الى ترشف خمرة الحب !

رومانيا بلاد العواطف والجمال ...

فلا تلقى الرومانيات الا ضحكات السن لعوبات ، لهن رشاقة الباريسيات وخفة الامريكيات ! كنا نجوس مرة خلال أحد المتنزهات العامة ، فلقت نظري فتى وهو يقبل فتاة في ثغرها ونحرها . وآخر يخاصر رفيقة له في الطريق ، وعلى سيئاتهما ايامضة غبطة ورضا . والناس رائحون وغادون ، كل في شغل عن نفسه بشؤونه الخاصة ، ذلك ان للحرية الفردية في هذه البلاد قداسة وحرمة . وفي اعتقادهم أن للقبلة العلنية مظهراً سامياً ومعنى جميلاً . فقد تكون عربون خطوبة أو فاتحة صداقة جديدة ، ومهما تكن فهي صادرة عن عاطفة واحساس يترفع بالنفس عن التدنى الى الشهوة . أما القبلة الخفية فهي تحمل في طياتها جرائم الشك ، وقد يكون الدافع اليها دافعاً جنسياً ممزوجاً بالدنس . وليس أدل من التستر في إتيانها على استنكار الطبيعة واشمئزاز المجتمع منها .

...

في فترة اقامتنا بكونستنزا ، دعينا الى زيارة « ايفوريا » وهو مصيف ساحلى جميل ، يبعد عنها نصف ساعة بالسكة الحديد ، وكانت الدعوة موجهة الينا من جمعية O.N.E.F وهي هيئة رسمية

لتنشيط الروح الرياضية وبثها ، تخضع لنظام شبه عسكري ،
ورئيسها برتبة جنرال في الجيش . وللجمعية معسكر رئيسي في
ايغوريا يقصده ألوف من الشباب والفتيات لتمضية شهر
من شهور الصيف ، يمارسون أنواعاً من البطولة الرياضية
كالقروسية ، والرماية ، والملاكمة ، والمبارزة ، والالعاب
السويدية ، تحت اشراف مدربين اخصائيين . ويتمتع الاعضاء
بالسباحة إما على ساحل البحر الاسود ، وإما في أحواض خاصة
من النوع المعروف « بالبسين » . وتكاليف الإقامة في هذه
المعسكرات زهيدة للغاية . وللجمعية مشى جميل في بلدة تسمى
« بريديال » بالقرب من جبال سنايا ، وفروع منتشرة في كافة
أجزاء رومانيا .

كانت المأدبة التي أقيمت تكريماً لنا في المعسكر بسيطة في
طعامها ، لكنها كانت عظيمة في معناها . ذلك أن بعض الاعضاء
تطوعوا لخدمتنا ونحن على المائدة . وكان الطعام مكوناً من
الصحن الوطني المعروف باسم « ماما ليجا — كو — برنزا »
وهو من الذرة المطبوخة مع القشدة ولحم البط ، ويقبل الرومانيون
على التهامه بشهية ، ويفضلونه على بقية الاطعمة الشرقية ، وأحياناً
يحتسون معه السويكا ، وهو مشروب وطني ، مخدر للاعصاب .
كانت اقامتنا في كنستنزا أياماً محدودة ، فلما آن لنا أن
نغادرها ، استقلنا القطار السريع الذي يقطع المسافة بينها وبين
بوخارست في أربع ساعات .

فادركنا كمنستزنا والشمس تنهياً للانحدار الى مغيبها ،
 والبدر يسبح في لجة الفضاء ، تندمج في نوره الفضي شعاعات
 الشمس الغارية ، وينعكس ضياؤه فوق الربى والمروج ، فتبدو
 كالزمردة الصافية ، لم يدع الصانع جزءاً منها الا صقله وجمه .
 ينطلق القطار بنا في سرعة السهم المارق ، يجوس خلال الريف
 الرومانى الخلاب ، الذى يذكركنا بريف النيل السعيد ، تاركين
 وراءنا مامايا بمسحاتها وغوانيتها ، يبعثن عن الاصداف أو عن
 القلوب على رمال الشاطيء . كلما انتقل القطار بنا من منطقة
 الى أخرى ، شعرنا أننا ننتقل من جمال الى فتنه الى ذهول . فهذه
 الأعراس والغابات ، يتسلل نور البدر بين أوراقها ، وهذه الوديان
 المنخفضة ، والربى الزاهرة ، يتدفق هدير الماء حولها ، ويسكب
 القمر فضته فوق صفحاتها . وهذه السماء ممسكة عن الطبيعة ماءها ،
 كأن الطبيعة في عرس ، فهى تخشى أن تعكر صفوه بودقها .
 أخذت جيوش الليل الرهيبة ، تزحف متباطئة حول القطار ،
 وأنوار القرى والداكر التى نمر بها ، تبدو مبعثرة في ظلام الافق ،
 كنجوم تغوص تحت صفحة الماء . كلما صعد القطار بنا من ربوة
 الى هضبة الى حضن من أحضان الطبيعة ، حسبنا أنفسنا جزءاً
 غير منفصل من هذا الوجود الذى أبدعه الخالق وأحسن
 تصويره . وأحسنا من أعماق قلوبنا أننا نقرب من نور الله ،
 لا يفيض من أبصارنا ويرد علينا روعنا الا سحابة من التقوى ،
 تهبط على شفاهنا المتبتلة بالتسبيح !

بوخارست

وصل بنا « اكسبريس الشرق » الى « محطة الشمال » وقد
بدت بوخارست في غلالات المساء القانية كأن سماءها عطرنا وورداً
وذهباً، وبعد ان اودعنا جقائنا في « فندق كيسا » واسترحنا قليلا
بعد سفر متواصل أربع ساعات بالسكة الحديد ، قصدنا الى
« رستوران باندي »، وهو مطعم أنيق جذاب يقع بالقرب من
« فسكتوريا جاليا » أو ميدان النصر ، حيث تناولنا فيه
طعاماً رومانياً شهياً ، بين عزف الموسيقى ، وخادمت أنيقات ، يبدو
جمالهن في المحيا أكثر مما يبدو في التقاطيع ، ثم انطلقنا بعد
العشاء نجوب الشوارع التي كانت تتلألأ في نواظرنا كشعلة من
النور ، نطالع وجهات المخازن التجارية ، وما يعرض خلف
زجاجها البلورى من الازياء المبتكرة وروائع الفن الحديث .
وعلى العين منظر العاملات الرومانيات وهن يغدون ويرحن في
حركات رشيقة كأنهن في موكب عرس أو حفلة تنصير .

...

وفي غداة اليوم التالى قصدنا الى « حدائق ششميجيو » .
وكانت ورودها لا تزال تتفتح في أشعة الشمس ، والاطفال يرتعون

على مقاعدها في بساط مشرقة ، ويعدون فوق بساطها السندس
 كازهار متحركة ، وبعد أن تنزهنا فيها قليلاً زایلناها الى « بارك
 الملك كارول » - أعظم متنزهات بوخارست - لزيارة قبر الجندي
 المجهول والمتحف الحربى ومعرض الصناعات والمسجد وبعض النصب
 والتماثيل الرائعة ، وهى جميعاً صفحات تاريخية ووطنية رائعة
 ومحاسن ترتع فيها العيون والنفوس معاً . .

وبارك الملك كارول منسق تماماً على مثال « الهايد بارك » في
 لندن ، وقد يمتاز عنه بالانوار الوضاعة الملونة تتخلل أوراق
 الاشجار وأغصانها لتهدى الزائرين في الليل الى مرقص أو ملهى
 أو مطعم تظل أبوابه مفتوحة حتى مطلع الفجر .

ومسجد بوخارست ، ولو أنه صغير الحجم ، من أجمل
 مساجد البلقان ، يقع فى داخل الحديقة ، على حافة بحيرة ساحرة الجمال
 تحظر الزوارق فوقها ، ويؤمه المسامون كلما هبط من مؤذنته صوت
 يدعو المتمبدين الى الصلاة . وهناك مسجد آخر فى قلب المدينة ،
 منقوش فوق بابه « بسم الله الرحمن الرحيم - جامع بوخارست
 المشمول برعاية الخاصة الملكية المصرية » إذ أن صاحب الجلالة
 الملك فؤاد ينفق عليه من جيبه الخاص ، رغبة منه فى نشر الدين
 الحنيف وإعلاء كلمة الاسلام .

ودلفنا الى المتحف الحربى ، ولا بد لزيارته من أن تمر أولاً
 بقبر الجندي المجهول ، تقرؤه التحية برفع القبعة والمشول أمامه

خاشعاً دقيقة أو اثنتين ، على حين يصطف الحرس بنظام ويشترك معك في تأدية التحية .

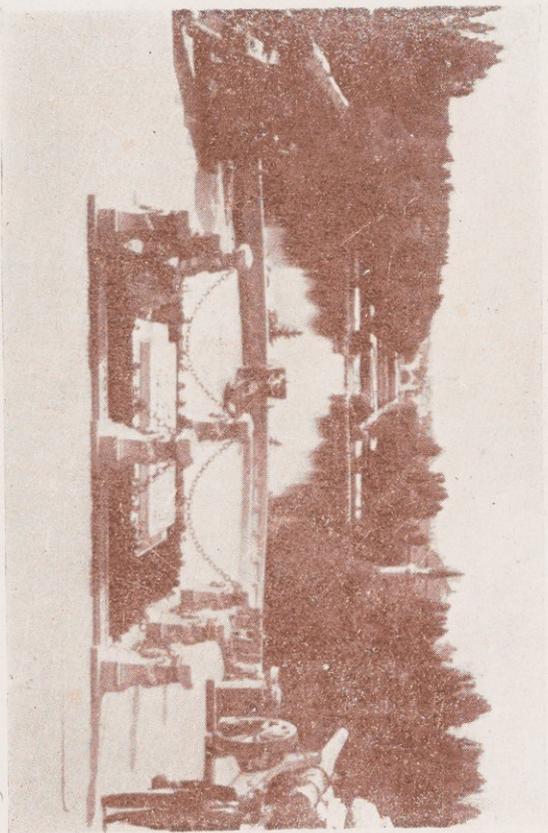
هذا القبر يمثل في عظمته وجلالة أسمى معاني التضحية الصامته وأروع مواقف البطولة الخالدة، ففي ثراه المقدس ترقد آمال أمة وفي حفرته الضيقة تدفن قلوب أشتات الامهات. تنبعث من جوفه نار أبدية هادئة ، لا يطفىء لهبها كراغ الغداة ومر العشى ، ويقف فوقها ملاك يقول لها : كوني دوماً برداً وسلاماً . برداً على قلوب الشكالي واليتامي والارامل ، ممن فقدن فلذات أكبادهن ، وسلاماً بيدد فكرة الدين تستهويهم إراقة الدماء وافناء الشعوب والجماعات أية فكرة خبيثة جمعت بين رفات « الجندي المجهول » وبين دار « المتحف الحربى » فجعلتهما متضادين يناوئ كل منهما صاحبه ؟

تمر بالقبر فلا يلبث الجهم ان يخترم نياط قلبك فتذرف دموعه سخينة من أجل النفوس البريئة التى استشهدت فى ميادين القتال، على انك لا تكاد ترقى درج المتحف وتغشاها حتى تتناسى هذا كله فتنبعث من نفسك كوامن الحماسة وتمثل أمام ذهنك أسمى صور الجهاد والاستبسال .

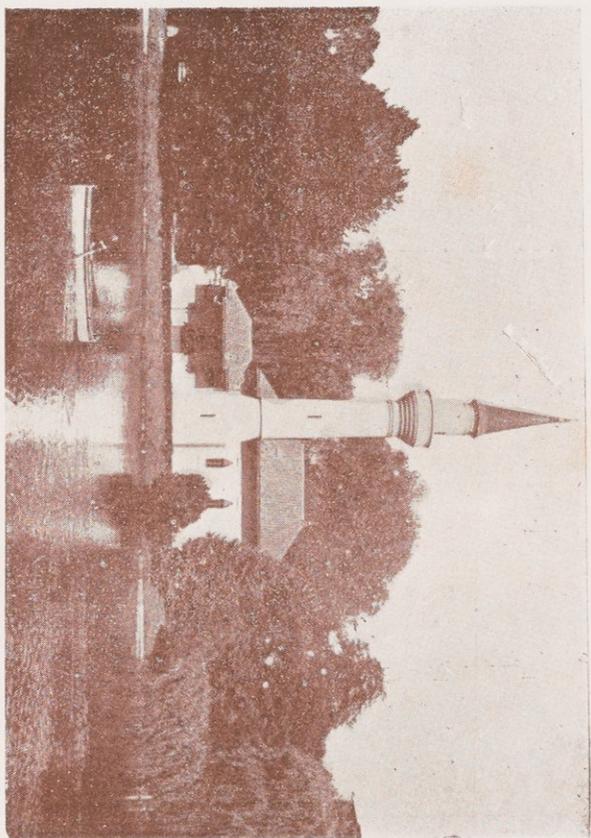
هذا المتحف يضم ذكري المجاهدين والابطال ويخلدهم فى أذهاننا أحياء ، وفى أركانه تلقى أعظم دروس الوطنية العاملة وأمنها . . . فى الردهة الرئيسية الخاصة بالاسرة المالكه نصب عظيم لكارول الاول الذى خالص وطنه من ربة الاتراك بعد أن

حكموها قرونا وأعواما ، يحف بتمثاله الاعلام والبيارق ،
 خطت فوقها آيات قرآنية « الله اكبر . الله اكبر » ورسم عليها
 الهلال والنجوم الثلاثة. ثم التاج الرومانى وهو مصنوع من صلب
 مدفع عثمانى غنمه الرومانيون فى الحرب . الى جانبه صور مختلفة
 أخذت للملكة الوالدة مارى زوجة فرديناند الاول فى خلال
 الحرب العظمى ، تمثلها متشحة بملابس « الصليب الاحمر » تجتاز
 خطوط القتال وتحوض ساحات الوغى لتضمد جراحات أبناء
 الوطن وتحث الجنود على التقدم والانتصار .

وفى مدخل المتحف الطيارة التى ركبها الى رومانيا كارول
 الثانى . فقد تنازل كارول عن العرش لابنه ميشيل ولى العهد ، مفضلا
 اقتفاء أثر معشوقته الشقراء مدام لوبيسكو فى عواصم أوربا
 ومدنها . ثم ظهرت بوادر الشقاق فى وطنه ، إذ حاولت المقاطعات
 الجديدة التى غنمها الرومانيون بعد الحرب وضموها الى مملكتهم
 ان تشق عصا الطاعة ، كما أن أنصاره الذين يتألف منهم « حزب
 الفلاحين » أخذوا يطالبونه بالعودة الى العرش وعلى رأسهم
 الزعيم برتيانو ، لأن حزب أمه الملكة يقوى ويشهد ساعده
 فى البلاد ويجد فى نشر الاراجيف ليمنع وصوله فى المستقبل الى
 العرش . فلما رأى كارول كل هذه الدسائس تحاك حوله عزم على
 المخاطرة بحياته ، فلم يشعر الرومانيون فى ذات يوم الا والملك يهبط
 بطيارته فى فناء القصر الملكى ببوخارست قداما من باريس بعد غيبة
 سبع سنوات . . .

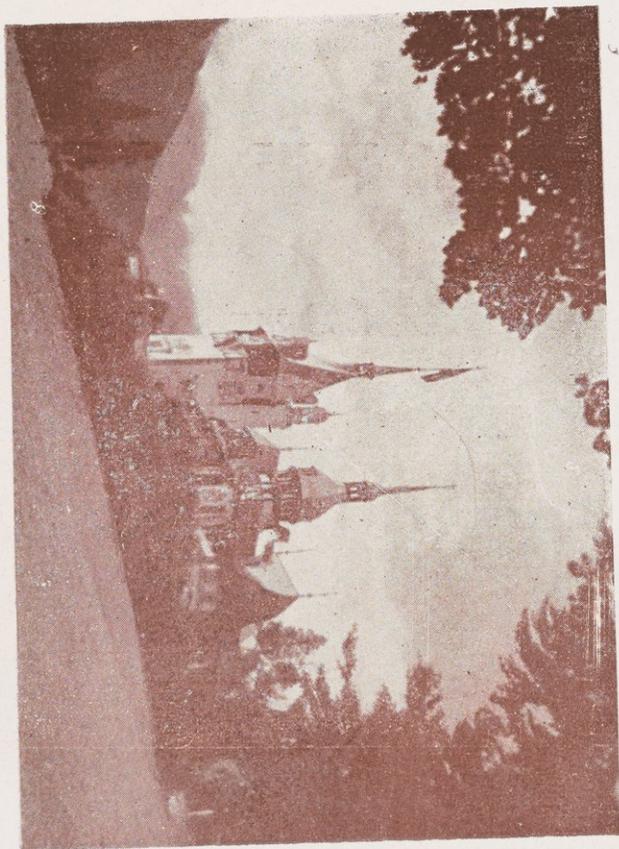


قبر الجندی الجھول بیو غارست



مسجد بوغازست

قصر سنایا





آدم وحواء — الرسام جورديانس • إحدی روائع متحف الفنون الجميلة

ولقد رأى الشعب اغتباطاً بعودته ورمزاً الى تعلقه بعرشه ان يكتب في شراء هذه الطيارة وان تحفظ في فناء المتحف الحربى. يضم المتحف أيضاً صوراً ورسوماً لجميع قواد رومانيا وأبطالها، ويحتفظ بنسخ من المعاهدات الدونية، وتواقيع خطية للقواد، وكل ما كان متصلاً بأسباب حياتهم وما خلفوه من الآثار، وهناك تماثيل من الشمع تمثل جميع رتب ضباط وجنود الجيش في ملابسهم وأسلحتهم وحياتهم في الميدان بكاهل معداتهم الحربية وغرف أخرى معروضة فيها الهدايا والوسمة التى قدمها الحلفاء لرومانيا بمد الهدنة .

...

وتملك بوخارست - غير متحفها الحربى - مجموعة من الثروة الفنية سلمت من عبث الزمن، وان كان بعضها لم يسلم من عبث الاجانب، كتماثيل ذهبية قديمة من عصر الرومان استولى عليها الروس فى خلال الحرب العظمى ولم يعيدها، كذلك تسربت منها سبائك من الذهب والؤلؤ والآنية التاريخية المقدسة ومجموعات ثمينة من طوابع البريد. وهناك متاحف أخرى للآثار والبلدية وللفن الكنائسى وتضم دار الاكاديمية الرومانية مجموعة من المخطوطات القديمة، وتوجد متاحف حديثة النشأة بوخارست متشبهة فى ذلك بالعواصم الكبرى. ففيها متاحف للتاريخ الطبيعى ولعلم طبقات الارض وللانتوجرافيك « وصف الاجناس البشرية » وللطرق وللفن القروي ولا سيما الحرف الذى يستلمهم الفلاح الرومانى صنمه

من الفن البيزنطى والتركى والايطالى . فالفن القروى الذى لم تمسه بعد يد الجماعة ، يمثل حياة الرعاة البسطاء الذين يطيلون التأمل فى الكواكب . ويبين حالة الفلاح الرومانى القانع بحالته الفطرية المتواضعة .

...

وكانت زيارتنا بعد الظهر للمفوضية المصرية ، فهرعنا اليها حيث استقبلنا موظفو المفوضية فى حديقة الدار التى كان يرفرف فوق ساريتها العلم المصرى المحبوب ، وتزين غرفها صور فوتوغرافية لجلالة الملك وسمو ولى العهد . وجلسنا نتجاذب أطراف أحاديث شتى ، والقهوة والسجائر المصرية تقدم الينا من حين لآخر . ولما كنت على موعد مع الاستاذ تسلاواسكرتير تحرير جريدة « اليونيفرسال » — احدى كبريات صحف بوخارست اليومية — فقد استأذنت رجال المفوضية ، شاكرآ لهم هذا الفضل ومؤملا زيارتهم فى فرصة أخرى .

...

لصاحبة الجلالة « الصحافة » فى رومانيا شأن عظيم وقوة نافذة تنحى أمامها كل الهيئات ، والصحافى يستطيع أن يهاجم من يشاء لأن فى النظام الاجتماعى « حصانة صحفية » تحميه ، فالصحافة الرومانية تعد بحق « السلطة الرابعة » والحكومة تنشد مؤازرتها وتعتمد على نفوذها ، كما تعتمد على قوة الجيش والاسطول ، واكثر رجالها ممن تخرجوا فى جامعات الصحافة بعواصم أوروبا

أو ممن حصلوا على شهادات عالية من جامعة بوخارست .
 ودار جريدة « يونيفرسال » تعد من أعظم دور الطباعة في
 البلقان ، فهي مكونة من بضعة عشر طباقاً ، ويعمل بها ثلاثة
 آلاف شخص ونييف ، بين محرر ومترجم ومخبر ومراسل وطابع ،
 وبعض هؤلاء من الفتيات اللواتي حصلن على قسط وافر من
 الثقافة والتعليم . وهي صباحية تصدر في اثنتي عشرة صفحة ،
 وأحياناً في عشرين ، ويتراوح ما تطبعه من مائة الف الى مائة
 وخمسين الف نسخة يومياً ، وكانت قد أصدرت في العام الماضي
 عدداً ممتازاً بمناسبة انقضاء نصف قرن على تأسيسها ، بلغ
 المطبوع منه نحو نصف مليون نسخة . فإذا علمنا ان عدد سكان
 رومانيا يتجاوزون عدد سكان وادي النيل بمليون نسمة ، وان
 أعظم جريدة في بلادنا لا تطبع نصف ما تطبعه بعض الصحف
 اليومية الرومانية ، أدر كنا البون الشاسع بين الثقافتين .

أسس هذه الدار مسيو كاتسا ميلانو لاحدى وخمسين سنة
 خلت ، وهي لا تقتصر على اصدار جريدة اليونيفرسال وحدها ،
 انما تصدر الى جانبها عدداً كبيراً من المجلات المنوعة ، وتقوم
 بنشر المؤلفات العلمية والفنية والادبية وكتب الاطفال ، فهي
 تساهم اذن بقسط وافر في نشر فروع الثقافة في أنحاء رومانيا .
 بعد ان طاف بنى الاستاذ تسلاوا بمكاتب التحرير والاعخبار
 والترجمة والمحفوظات وقسم الماكينات المجهز بأحدث معدات
 الطباعة وقسم الحفر والتصوير ومكاتب تلقي الانباء باللاسلكي

والبرق سألتني عن مدى نهضة الصحافة في بلادنا . فأجبتته انها
لا تقل عن زميلاتها في الغرب وان كان البعض منها تنقصه وسائل
الطباعة الحديثة، غير ان هذا في طريق الكمال ومع تطور الزمن ،
وفي ختام الزيارة تكرم بأخذ صورتنا حيث القيناها منشورة في
صباح اليوم التالي وتحتها بضع كلمات رقيقة يحيي بها بلاد النيل.

باريس الصفري

روح بوخارست في الليل طروب مرحة ، كغادة هيفاء ،
ضاحكة السن ، ناعمة البال ، تجذب الغريب الى احضانها ولو كان
أشد الناس زهدا في العبادة . فهناك حرية طليقة تنفرد بالتمتع بها
فتاة بوخارست دون فتيات العواصم الاوربية الاخرى . فتغشى
دور اللهو والمنتديات والمستحجات ، تعشق وترقص وتلعب الورق
وتعرف كيف تحيل نهارها الى ليل وليلها الى نهار ...

وهذه الشوارع التي تحمل الطابع الباريسي . تراها غاصة
بجماعات الرجال والشبان ، يحفزهم عطر الاشجار الى مغازلة النساء
البارزات النهود ، انصاف العرايا ، الا من غلالات رقيقة مشجرة ،
يبدون في أنوار المصابيح متلكئات في خطواتهن ، ليجعلن
من وجوهن معرضا للجمال ومتاعا للناظرين !

وهذه الميادين الفسيحة ، تتخللها الحدائق والتمائيل ، وتترقق
في ارجائها شتى صور الجمال ، تحمل أسماء العطاء وأرباب الفنون
والآداب ، كما تحمل الملامى والمطاعم والمراقص أسماء عالمية
كالليدو والريجنيت والمولان روج والشاه نوار ، وهذه المتاحف
والمسارح وما اليها من ميدان النصر الى قبر الجندي المجهول .

أليس كل هذا بعض ما في باريس ؟ لذلك يطلقون على
بوخارست «باريس الصغرى» ، واكبر الظن ان في هذا شيئاً
من العزاء لمن لا يعرفون باريس !

...

فباريس الصغرى هي السيارة والراديو . السيدنا وناطحات
السحاب . الزى الحديث والمرأة الجميلة . القبعات العالية والاندية
الليلية . ترى منازلها مكنتزة وعالية ، ثم يقل ارتفاعها شيئاً
فشيئاً كلما ابتعدت عن وسط المدينة الى خارجها حيث أكواخ
قبائل النور . هناك تنتهي باريس الرشيقة الانيقة ، وتحل محلها
بوخارست الشرقية الاسيوية ، الشبيهة ببلاد التبت . فالعربات
ذات العجلات المريضة تجرها الابقار ، كأن لم يتغير طرازها عما
كانت عليه في عهد ملوك التتار . وترى بوخارست في أقدم صورها ،
حيث الغابة والطبيعة المتوحشة ، ولباس الفلاحين العجيب الموشى
بمختلف الالوان ، والبلد الوثنى الذى يذكر ماضيه ، فاذا حلت
الاعياد احتفى بها أهله ، كما يحتفل البدوى فى صحرائه بيزوغ
الهلال ، فيرتدون جلود الحيوانات ، ويرقصون رقص الدببة ،
على حين تجد أطفال النور عراة الاجساد ، يكتسون بورق
الشجر ، ويعدون فى الشوارع والطرق .

وقد قص علينا صديق ان بوخارست هي العاصمة الاوربية
الوحيدة التى ظلت متأخرة فى الفنون والآداب . ففي العهد
الذى كان لويس الرابع عشر يتناول طعامه مع مولير ، كان أمراء

رومانيا الذين يشبهون ملوك ورق اللعب ، يعيشون بأغانيهم
 الوثنية القديمة . فالنهضة لم تصل اليها الا في أواخر القرن السابع
 عشر ، حتى أن واضعي دائرة المعارف لم يعنوا بأن يدرجوا
 شيئاً عنها الا في القرن التاسع عشر . ولكن بوخارست هي الآن
 ملتقى حضارات قديمة وحديثة . ففيها طابع الحضارة البيزنطية
 والامريكية والسوفيتية ، فكأنها تحاول أن تعرض الزمن المفقود .
 وبوخارست هو الشرق الذي لا يدفن رممه ولا يكس بقاياها ،
 فلا تزال بها تلك المنازل البيضاء القديمة العهد ، والاكوخ المشيدة
 من الطين والقش . وفي ضواحيها تكثر الروائع الكريهة ، والغبار
 الذي تثيره العربات ، والضجة التي لا تنتهي . ولا يزال الروماني
 القح يقوم بما يحتاج اليه من الصناعات ، فيحوك ملابسهم ويطرزها
 بالالوان الزاهية ، ويزينها بفراء الحيوانات التي يقتنصها كالثعالب
 والذئاب . ويضع على رأسه طاوية مربعة بيضاء وأحياناً مخروطية
 الشكل سوداء . فاذا لم تكن رومانيا فبوخارست مجموعة أجناس
 ووجوه وعادات وحوادث . كم من المرات سلبت ونهبت ، وهزتها
 الزلازل ، واجتاحتها الجيوش الروسية والجيوش البلغارية ،
 وهدمتها مدافع المارشال فون ماكنزي في خلال الحرب العظمى .
 غير أنها استطاعت في مدى ربع قرن أن تجعل من خرائبها وأطلالها
 بلداً عصرياً ، تضر به أوروبا مثلاً أعلى لبلاد البلقان .

وبوخارست في اللغة الرومانية معناه « الفرح » . وهذا
 حق . ففي أشد الازمات والكوارث ترى شعبها ضاحكاً ، يميل

الى المزاح وعبادة النكتة . فن يذهب الى بوخارست فكأنه
 ذاهب الى بقعة ينسى فيها العالم ومافيه من هموم وأشجان ، وإذا
 لم يكن هذا البلد الطروب عاصمة بالمعنى الصحيح ، فهو أحسن
 مكان للالتقاء ، بل هو بمثابة شرفة الشرق البديعة التي تطل على
 أوروبا . ولعل الدرس الوحيد الذي نتلقاه عنه ، ليس درس الفن
 ولكنه درس الحياة .

...

في ساعات القيلولة ، ترى الشوارع هادئة ، والبيوت غارقة
 في السبات . فإذا تلطف الجو وسطعت الانوار ، هرع الناس الى
 الغابة المجاورة والى بحيرة سناجوف أو بحيرة بانيزا ، حيث ينتشر
 النور بموسيقاهم ، يعزفون على الطريقة الرومانية ، فيتخاطف
 الناس النغمات ، وكل منهم يطلب اللحن الذي يعجبه . فتبدأ
 المشاحنات ولكن بلا عواقب وخيمة ، لان الروماني أميل الى
 السلام منه الى المشاكسة . ثم يضحك الناس ويتعرف بعضهم
 ببعض ويكثر استدعاء الاصدقاء بالتليفون . فالصيف في بوخارست
 هو فصل الهوى والمرح ، وقضاء الليالي البيضاء في ضوء القمر ،
 حيث ترمى الطبيعة شباكها بين تكويرات النهود ، وزهور
 اليزفون العبقرة بالشذى !

وسكان بوخارست لا ينامون الليل ، سكارى من رائحة
 الزهور ومن مسرات الحياة . فاذا عادوا الى بيوتهم في مطلع الفجر
 اجتازوا حدائقهم التي تزينها شجيرات الاكاسيا . هذه الشجرة

الرومانية التي تملأ الخياشيم بنفحات العطر . وبقية أنواع الزهور والورود من القرنفل الى النسرين الى الياسمين، تراها مغروسة على أفاريز الشوارع كسلاسل متتابعة .

ويالجمال ليل بوخارست ! حيث السينات المكشوفة، وحمامات الهميدو في الهواء الطلق . وكافة الفنادق والمطاعم والمشارب تزدحم ازدحاماً شديداً وبالاحص في « كبسا » . وهي دار رحبة تشتمل على فندق ومطعم وملهى ومقهى . فبوخارست تجتمع كلها تقريباً في « كبسا Capsa » بعد الظهر ، اذ أنه المسكان الاثنيق ذو الطابع الباريسي الذي يمكن للغريب أن يلتقي فيه بكافة طبقات الهيئة الاجتماعية . أما دور اللهو « الكاباريهات » فلا يمكن حصرها ، لانك لا بد أن تجد كل عشرة أمتار داراً تختلف عن الاخرى . وهي غالباً على نوعين : الاثنيقة والشعبية ، فالاولى تجمع الانجليزى الذى تعود الاختلاف الى مونمارتر بباريس ، ورجال الاعمال الذين تبدو الكآبة على وجوههم وهم يحتسون الويسكى أو يتناولون العشاء مع عشيقاتهم ، والراقصات النمساويات ذوات القدود الهيفاء ، والبولونيات المقنعات فى استعراضهن الامريكى . ونحن الذين عشنا فى مصر ولم تدنسنا بعد أوضاع الحياة الليلية حيث تختلط الطبقات والاجناس فى سنوات الطيش وفى عصور الرخاء والحرية المطلقة ، لا يمكن أن نغشى هذه الملامح دون أن يأخذنا شيء من الحسرة والاشفاق لان جرائمها بدأت تصل الينا، فهذه الامكنة تعرض تجارة زاهرة . تجارة الرقيق الابيض وتجارة

الشاب الجميل . فالأناقة في الشاب الروماني هبة من السماء ، وهو يولد ومعه سلاحه يفتخرون به القلوب ، حتى أصبحت مهنة راجحة تتصل بجميع الطبقات ، فن اليهودي الصغير ذى الشعر القرمزي ، الى الضابط الوسيم الذي يعنى بتزجيح حواجبه ، الى الشاب المخنث الذي يقدم زوجته لمسرات الاصدقاء الاثرياء !

ولعل «فكتوريا جاليا» أحفل بقعة في بوخارست بضروب اللهو والمتاع ، فهو حى الشهوات الذي لا يكذب ولا ينام ، ويمكن للمرء فى آناء الليل وأطراف النهار ، ان يستعرض فى جوانبه ، ألواناً من الشهوة الصارخة المتأججة !

ومن «فكتوريا جاليا» يتفرع شارع صغير يقودك الى «دار المسرح الوطنى» ، وهو الكعبة الفنية التى تهرع اليها فى كل مساء الطبقة المثقفة ، كما أنه بمثابة الاوبرا فى العواصم الاخرى ، ومما يزيد فى شهرة هذا الملعب ، ان الاميرة رالو كراجا — حامية الفنون الجميلة — كانت تغادر قصرها فى عربة مكشوفة ، كعربة أبولو ، لتذهب الى هذه الدار ، وتشاهد المسرحيات الالمانية الرومانتيكية ، وماسى فولتير ، وكثيراً ما طلبت أحياء حفلات تمثل فيها بعض المسرحيات القديمة فى اللغة الاغريقية .

...

والنوع الثانى من الملاحى - أى الشعبية - تعرض ألواناً رخيصة من الفن الخفيف سواء فى الموسيقى أو الغناء أو الرقص . قصدت الى أحدها تلمية لدعوة صديقى مسيو تسلاوا ، حتى

إذا التمت مقعدى ولبثت برهة أستمتع الى نغمات الاوركسترا ،
 الفيتها موسيقى غريبة عن آذاننا فضلاً عن أن رجالها يحملون
 آلات غير مألوفة ويرتدون ملابس ملونة ، واستوضحنا مضيفنا
 حقيقة الامر ، فذكر لنا أنها « موسيقى السيجان » التي تعد من
 أرقى أنواع الموسيقى الرومانية ، لان السيجان - أى النور -
 يكونون في أوروبا ثقافة موسيقية ممتازة ، فالنورى يكتسب
 موسيقاه بالغريزة وينفذ الى روحها بفضل مواهبه الوراثية ،
 فلبعض منهم يدرسها نظرياً وعملياً والبعض الآخر يتمم دراستها
 في معاهد « الكونسرفتوار » . وقد كان الموسيقار العظيم
 لسزت يستوحى موسيقى النور ويضمونها ألحانه . على أن جدودهم
 يأثفون من تعلم الفن وان رزقوا آذاناً موسيقية عجيبة . يكفي أن
 يسمع أحدهم مقطوعة موسيقية معقدة فتلتقطها أذنه ويوردها
 أمامك على أصلها بعد أن يطبعها بالطابع الرومانى .

وشغلنا عن الموسيقى والرقص بالحديث عن الفجر وشأنهم
 وخواصهم ، فهم يؤلفون في رومانيا وبلاد المجر نحو نصف مليون
 نسمة ، ومن المحجل أنهم يعرفون بالانتساب الى أصل مصرى ،
 على أن صديقنا الدكتور جرمانوس أستاذ التاريخ بجامعة
 بودابست ، يرجح أنهم وفدوا من الهند عن طريق مصر بعد أن
 استولى عليها تيمورلنك ، ومن المحتمل ان التتار الذين اتخذوهم
 عبداً جاءوا بهم الى أوروبا فى القرن الثالث كما يجيئون بالسلع ،

بدليل أن لغتهم مزيج من لهجات بعض القبائل الهندية ومن اللغات السامية المندثرة .

ومما يذكر عن الفجر أنهم رحل كالبدو يتنقلون من بلد الى آخر ومعهم خيامهم وعرباتهم التي هي عبارة عن بيوت متحركة ، ويزاول رجالهم — غير الموسيقى — صنع الاواني النحاسية وأجراس الكنائس والحرف الدقيقة ، ويشتهرون بسرقة الدجاج والمواشي وخطف الاطفال . أما نساؤهم فيحترفن الكهانة والسحر ومخاطبة الارواح وقراءة الكف والتنبؤ بالطالع ، ولهن براعة في الكشف ، عن رغبات الرجال والوقوف على غرائزهم الخفية والاماني المكبوتة ، ولفتياتهم جمال شرقي خلاب ولكن سرعان ما يلهقه الذبول . ذلك أنهم متبهكات خليعات ، يغلب عليهن الانحلال الخلقى . وبعض هؤلاء الفتيات يردن المدن لبيع الزهور أو الصحف بينما يغشى الرجال أحياء الفقراء ، يقودون في أيديهم دباغخوماً من أنفه يرقصونه لتسليمة الاطفال ! وليس للفجر عقائد دينية معروفة ، بل هم وثنيون يعبدون المال ويقدمون الشمس والقمر والخوارق الطبيعية ، ولا يخضعون في منازعاتهم غالباً إلا لقصاتهم ، ولهم أساطير خرافية مملوءة بالسحر والتنجيم .

على أن أعجب عقائد النور هي مسألة الزواج ، فتفسيره في عرفهم «الاشتراكية في المتعة» بمعنى أن الزوجة لاتخص رجلاً واحداً بل عدة رجال ، والطفل النورى ينشأ عادة عارى الجسم

نهاره بين الغابات والمياه وليله في العربة أو الكوخ حيث يشهد
 عن كذب حياة أسرته التناسلية، ولذا فغرائزه تفتتح منذ الطفولة ،
 وليس ما يمنع من أن يعاشر الولد أمه والاخ أخته والرجل ابنته ،
 فحياتهم التناسلية لاضابط لها ولا شريعة بل هم يلعبون نداء الجنس
 أيما يكون !

واذن فليس من المستغرب أن نحوى موسيقاهم هذا الخلط
 العجيب من الرموز الغرامية ، وألوان الفسق ، وأن تمتزج أنغامها
 بما يشحن الغرائز ويقوى الشهوات في الجسم . والنورى يعرف
 الى جانب هذا أن المجتمع الذى يعيش بالقرب منه يحتقره
 ويزدرية فتجيش نفسه بالآلام وتتلون الحان موسيقاه بطابع
 البغض والانتقام وجوح العاطفة والثورة على المجتمع الذى
 يغذيه فنياً .

وقد ولدت في نفوسهم العزلة الدنيوية والحرمان المستمر ،
 الميل للعيش فى الخيال والاستسلام العذب للاحلام ، والاشتهار
 بالكذب والنفاق والغش وبقية الصفات التى تدنيهم من المستوى
 الحيوانى . وبالنظر الى أنهم مولعون بالتنقل والترحل من صقع
 الى آخر فانهم كثيراً ما يصطدمون بحراس الحدود فى البلاد
 التى يهيمون باختراقها ، لان هؤلاء الحراس لا يحترمون عقائد
 النور ولا يثقون بهم !

ومن الغريب أن لهؤلاء النور جريدة تصدر فى بوخارست
 اسمها: « الامة العجرية » . وقد عقدوا على ضفاف الدانوب أخيراً

مؤتمراً يمثل النور في أنحاء أوروبا كان الغرض منه دعوتهم الى الاتحاد، والعمل على رفع مستواهم، ومنحهم الحقوق المدنية والسياسية التي لغيرهم، والتفكير في منافسة الراديو والجاز بند لموسيقاهم .

وخرجنا من الملعب وقد استهوانى الحديث عن النور وخواصهم والاعجاب بهذا الشعب الغريب الذي استطاع أن يحتفظ في قلب أوروبا المتحضرة بمظاهر الحياة البدوية الخشنة . فضربت لصاحبي موعداً في ظهر اليوم التالي ، وطابت اليه أن يمضي الى الحى الخاص بهم وزيارة زعيمهم ميخائيل دى كويج .

فمعظم نور بوخارست يقطنون في بقعة نائية بالضواحي يطلقون عليها اسم « المحلة » . وهو حى قدر ثغره المتاجر الوضيعة التي تعرض أوانى من النحاس الاحمر وحقائب من الخيزران وعظام أسماك وقرون حيوانات . وباعة يحملون سمك دلتا الدانوب . وعربات فورد قديمة تمضى ليلها في العراء ، وتصاب بسعال مستمر فتحدث أصواتاً مزعجة . وأكواخ اتخذت صفة البيوت ، كتب فوقها بالجير الابيض « خطيب الشعب » أو « نسر البحار » أو « هنا يسكن اسكندر ذو القرن الواحد » !

ولمخنا عن بعد خيمة كبيرة الحجم ، محلاة بأشرطة ملونة وأمامها بعض أفراد من الحرس النورى ، زرق الشفاه ، لهم عيون براقه وشعور مجمدة وآذان ضخمة ، فذكر لى صاحبي أنها خيمة زعيم النور ميخائيل دى كويج ، وقد انتخبه منذ عامين

مندوبون يمثلون القبائل النورية ، أعطوا أصواتهم بواسطة
 بصمات أصابعهم . ومن الطريف أن له مجلس وزراء متنقلا ،
 وقانوناً وراثياً شفهياً ، وممثلين سياسيين في البلاد الاخرى .
 وقد قام زعيم آخر في تشيكوسلوفاكيا ينازعه عرشه ويطالب
 بسريره وينى مطالبته على أنه سليل أقدم الفجر البوهيميين
 الذين نزحوا على ضفاف الدانوب وهو يجمع الآن الاتباع حوله
 وقد تؤدي دعوته الى نشوب حرب بين عجر أوروبا !

وميخائيل الاول يحلم بأن يؤسس دولة نورية ، وأن ينال من
 الحكومة الانجليزية السماح له بتأسيس «فلسطين نورية» على ضفاف
 الكنج بالهند . وقد خطر لصديقي مسيو تسلاوا أن يسأله في
 شيء من التهمك عما اذا كان يزمع بعد تأسيس مملكته أن يلحقها
 بعصبة الامم ، فأجاب وعلى شففته ابتسامة زرقاء : انه سيكون من
 أسمي أمانيه تحقيق هذا الامنية .

أممات في بحيرة سناجوف

في صباح ذات يوم صحو عليل ، هربنا من قيظ بوخارست
وتقلب الجو في سمائها الى نزهة في جبال الكربات لننعمش القلب
بهواء الجبل . وكانت الشمس قد بدأت تحسر عن وجهها نقاب
الظليل ، والنور يتناثر على القباب والبروج كأنه سحيق من
الذهب والبلور . . .

ياروعة الطبيعة وعظمتها ، هاهي بحيرة سناجوف التي يتخذ
منها أهل بوخارست ملاذاً يهرعون اليه كلما اشتد بهم القيظ في
العاصمة ، لقد جملتها الطبيعة بما يعجز أمهر فنان عن صنعه ،
فحببتها بموقع فريد بين السهل والجبل ، وأحاطتها بالاحراش
والحدائق العطرة ، تخلع على أشجارها وأزهارها في كل لحظة
من شبابها وبهجتها ما يجعلها دائمة التجدد متجاوبة الألوان .
ونثرت على ضفافها من صنوف الجمال ما يميز القلب روعة وجلالا .
ولكن هل ترى الانسان قد قنع بكل هذه الصور الباسمة
فوقت أطاعه عند حدها ؟ لقد امتدت يده لتشارك الطبيعة
وتعاون معها على تنسيق صنوف الجمال ، بالمقاهي والكازينات
والمستراحات ، يشيدها على ضفة البحيرة ، ويجعل منها موطن متاع

ومسرة ، وبالزوارق الصغيرة الحاملة تحظر فوق صفحاتها ،
وبالألوان الخافتة المستحجية ، تسبل في رفق ولين ، على الذين
أضنت الحياة أعصابهم . . .

مأرقها ساعة حين تقف على حافة البحيرة ، تحت هذا الأفق
الصافي صفاء البكارة ، تستاف من الزهور النامية على ضفافها
عبير العطر الجذاب ، وتصغى الى وسوسة مياها كأنها لهثات
أنفاس عاشقين ، والى دوى المجاذيف ذات الايقاع الموسيقى
المتوازن ، أو تستمتع برؤية حسان بوخارست وهن يهرعن الى
هذه الزوارق ، كل معها رفيق أو حبيب تشد في صحبته متعة
للقواد ، قبل أن تنحدر بها السنون الى خريف العمر .

لقد تمنيت — فيما تمنيت — أن النى الى جانبي رفيقة منهم ،
تحملنى في زورقها الصغير الساحر ، لتقصينى عن حقائق هذه
الحياة المرة الكاذبة ، الى شاطئ مجهول نثد فيه راحة النفس
وسلوانها .

لماذا يهرع العشاق والشعراء والفنانون الى البحيرات ينعمون
بساعات الصفاء فى أحضانها ؟ ان من لا يعرف مؤلفات روسو
لا يستطيع أن يكرم وفادة الجمال على ضفاف بحيرة جنيف ، ومن
لم يقرأ تأملات لامارتين لا يحس بتملك العاطفة المشبوبة التى أذابها
الشاعر على حافة بحيرة بورجيه ، بل ان من لم يتذوق جمال
الادب الانجليزى قد لا تألف نفسه سحر « البحيرة الغربية » التى

خلدها بيرون في «تشايلد هارولد». فهل تعود شهرة هذه البحيرات الى فرائح الشعراء أم الى جمال موقعها الطبيعي وما يكتنفها من الروابي والتلال والصخور المعلقة ، والى تلوين مياهها حتى لتراه ساعة أزرق صافياً وأخرى أسود قائماً ، والى النسيم وقد هب وانياً بليلاً ليحرك صفحتها ويراقصها في هدوء ، والى المطر وهي لاتشكوه ولا تضجر منه ، بل تحتضن ودقه الذي ينزل عليها كحبات السكرمان ، حتى يهرع العاشق والشاعر والموسيقى لاستيحاء هذه الصور والالوان ، وتقديمها في ثوب من الفن يسبي الالباب .

فالتبيعة والفنان يشتركان في ابراز جمال البحيرة ويتفاهمان بلغتها ويخلعان عليها ظلا من السحر والجلال ، فيخلدها الفنان بريشته أو قامه والطبيعة بالآيات تغدقها عليها ، ولو لم يكن جمال بحيرة الرشيد لما ظفرنا بوصف ابن حمد يس الذي يقول فيها:

كأما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
فحاجب الشمس أحياناً ليضاحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

وفيا أنا مستسلم لوعي هذه التأملات والخواطر ، اذا بالجو ينقلب فجأة فيتجههم وجه الافق وتبكي عين السماء ، واذا بالودق ينهمر فوق صفحة البحيرة فيوقفها من سكونها وحلاوة أحلامها، واذا لموته - وهو يتساقط فوق أوراق الاشجار - موسيقى

شجيرة كأنما استحات الغصون الى أوتار توقع عليها أشجى
الالخان ، واذا بصور بيتهوفن وشوبرت وهاندل تطوف بذهنى
متتالية ، حين كانوا يعلقون قيثاراتهم على غصون الصفصاف
لتعزف على هوى الريح ، ناطقة بما فى لغة الطبيعة من نبرات خفية
وأنغام شجية ، ثم يودعون هذه الانغام العلوية موسيقاهم .

أليس هذا التجاوب والاتساق بين الطبيعة والفنان هو سر
السكون وجمال الحياة ؟

واحتمينا فى جوسق بالقرب منا نلتمس فيه ملجأ يدفع عنا
تدفق هتون المطر ، وفى يدي قصة « جريمة سناجوف » لبانايت
استرأتى لم أكن قد أتمت قراءتها بعد .

فهذا الكاتب الرومانى العظيم لم يدع بقعة ساحرة شعرية من
بقاع بلاده دون أن يهيم بها حباً ويودع روح فتنتها فنه ،
وها هي سناجوف يخلد جماها العطر فى أذهاننا ، بروعة الوصف
يخلعه عليها ، وبصور الجمال المتعددة الالوان يقدسها ويحملها من
أسرار المعاني ما يدفعنا الى الايمان العظيم بخالقها

وعندى أن هذه هى رسالة الفنان فى الحياة ، يجمع بين روح
الواقع وبين العظمة الشعرية ، ويلبس الفن كل ما يصل الى حسه
وشعوره ، طابعاً آثاره الفنية بكل ما يمر فى الحياة من مجد وألم ،
وجلال وجمال ، فانتاجه ليس إلا صورة منعكسة لما يحس به
ويراه حوله . وهو أما أن يودع روحه فنه أو يخرج لنا دمي
وصوراً زائفة .

بين جمال الطبيعة المنتور أمامنا على ضفاف البحيرة ، وبين هذه الخواطر التي بعثتها في نفسي قصة « جريمة سناجوف » . ذكرت هذه السويغات الحلوة التي قضيتها مع كاتب رومانيا العظيم - باناييت استراتى - في مسقط رأسه بمدينة برايلا . في هذا المحيط الملمهم الذى قضى فيه طفولته ، وذكرت صوته الذى يسيل رقة ومحبة وهو يقص علي طرفاً من حياته ويتخلل حديثه روح العطف على مصر ووداعة أهل مصر .

وعلى الرغم من أن باناييت استراتى ظل يتمتع بقسط وافر من ذبوع الاسم والشهرة فى عالم الادب ، فانه لم يتنصل مطلقاً من الماضي ، بل كان يعطف عليه دائماً ويرعاه ، يفخر بحياة التشرد والفاقة التى مرت به فى صباه ، ويذكر سنواته الخمس التى قضاهها فى الاسكندرية قبل الحرب ، يعمل فى حانة خمار رومانى اسمه « بندر » بناحية باب الكراسته ، حيث يأوى عشرات من بحارة السفن فى بهيم الليل ، يجرعون النبيذ القبرصى الاسود ويفازلون بنات الهوى !

فى روايته « تنقلاتى » يقص شيئاً من طفولته المعذبة . كيف انحدر من والد يونانى شرير اسمه جراسيمو فلاماميس ، ومن أم رومانية فلاحه تدعى زويتسا استراتى . وكان الوالد يشتغل بتهرب الدخان فأخذ الولد عنه المبادئ الاولية لحياة التشرد . والام تارة غسالة ، وأخرى فى المهن الوضيعة ، فاكتمف بأن يأخذ عنها لقب أسرتهما . وقضى طفولة شقية معذبة لكنهما

كانت مفعمة بأحلام الشاعرية ، فكثيراً ما كان يهرب من الحانة التي يعمل بها ، ليخلو الى نفسه ساعات بأكملها على شاطئ الدانوب مستسلماً الى تأملاته البريئة . على أنه ما كاد يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى نزح عن بلده قاصداً أن يطوف العالم ويمتدع ناظره بما كانت تدعوه اليه طبيعته البوهيمية الهائمة بالتصعلك ، ففضى نحو عشرين عاماً في حالة تشرد وفقير مدقع .

وفي روايته « كيرا كيرا لينا » يسرد صفحات من شبابه ومغامراته ، فيذكر في صراحة مخيفة كيف كان يسافر خلسة في قطارات البضاعة وعنابر البواخر حيث يستكن الجرذان والحشرات السامة ، حتى استطاع بواسطة ذلك أن يتنقل بين مصر وفلسطين ولبنان والاناضول . وكان يمضي أياماً وليالي لا يدخل فيه من الزاد غير « سلاطة البطاطس المسلوقة » ويوطد علاقته في غضون فترة تشرده بزعماء الادب الروسى المهاجرين ، زاعماً أنه طريد مثلهم لاعتناقه المبادئ الفكرية الطليقة ، وكان عزاؤه الوحيد أن يغذى عقله بالقراءة حتى يعلم الفرنسية من القاموس تعلماً ساعده على دراسة أعمال فولتير وكورنى وروسو وهوجو وبلزاك ورولان . وقد كتب استراتى كافة رواياته بالفرنسية ، ولم أعلم أنه كتب في اللغة الرومانية مطلقاً ، بل مما يرويه عن نفسه أنه لم يحاول قط أن يفتح أى كتاب في قواعد النحو الفرنسى !

على أن نجم هذا الاديب العبقري الشحاذ الذى خالط

الادباء والمفكرين الروس ، وطالع أعلام الادب الفرنسي ، لم يشرق إلا في الساعة التي شرع فيها بالانتحار . فقد فشل في أن يكون كاتباً أو قاصاً فبدأ يبيع الليموناً في شوارع القاهرة ثم سافر الى الاسكندرية واشتغل جرسوناً في حانة « الجندي الروماني » فنقشاً فخالاً ، وأخيراً رحل الى جنوب فرنسا واحترف صناعة التصوير بآلة فوتوغرافية ، وفي مدينة نيس أبصر الكاتب الفرنسي الحر رومان رولان . وكان قد طالع روايته الرائعة « جان كريستوف » التي ظفر من أجلها بجائزة نوبل ، وحاول استراني أن يلفت نظر رومان الى أنه أديب مثله ويشرح له بؤسه وشقاؤه . فلم يجد أليق من أن يكتب اليه رسالة طويلة يضمنها اعجابه بشخصية جان كريستوف ، ويقص بين سطورها شيئاً من حياته الادبية بأسلوب حي أخذ يستدر الشفقة والعطف . ولما استبطأ الرد ضاقت الدنيا في وجهه فمضى الى إحدى الحدائق العامة وضرب عنقه بمذبة محاولاً الانتحار . غير أن بعض الناس أسرعوا الى انقاذه وحملوه الى المستشفى . وهناك زاره رومان رولان وخاطبه بقوله : لقد تلوت رسالتك ياسيدي . حقاً أنها شعلة من العبقورية التي تضطرم في رأسك !

من ذلك الوقت ازدادت الصلة بين كل من الكاتب الكبير والاديب الشحاذ ، وتعهد رولان بأن يدفع نفقات علاجه في المستشفى نحو ستة شهور ، ثم أغراه بأن يكتب صفحات ماضيه في قالب روائي على أن يقدم له ويساعده في نشره . فكتب

استراتي روايته الاولى « كيرا كيرا لينا » التي توارى خلف شخصية بطلها « استافرو » بائع الليمونادة ، فلم تلبث الرواية بعد نشرها بمجلة « أوربا » أن ذاعت ونقلت الى اللغات الحية واكتسب صاحبها شهرة أدبية درت عليه أرباحاً طائلة ، وهتف النقدة لمؤلفها بعد أن خلعوا عليه لقب « مكسيم جوركي البلقان » !

وظل استراتي يكتب روايات شتى ، من أشهرها : تساسامينكا وصائد الاسفنج والعم انجل وكودين ونيراتسولا وميخائيل وهو طالب روسي كانت لصداقته أعمق الاثر في حياة استراتي أي من حيث توجيهه الى التعليم وتدريبه على المبادئ الاشتراكية . ورواية « بين الصداقة ودكان الدخاخي » وفيها وصف مسهب للحياة في الاسكندرية وهليوبوليس ودرب البرابرة ، ومن أظرف ما يرويه بهذه المناسبة أن الفقراء في الاسكندرية كانوا يبتاعون السكوارع والعظام من بائع متجول يحمل على رأسه صينية خشبية وهو ينادى « على الله » . وهاتان الكلمتان اذا لفظتا بترخيم عنقا في اللغة الرومانية « المعدة الجائعة » فكان اذا سمع نداء البائع شعر بالجوع فابتاع منه وأكل ، رغم أن الذباب على العظام كان أكثر من اللحم !

ولقد ابتدع استراتي في كافة رواياته فناً جديداً يمور بالصور الباسمة الحزينة والاشباح المعذبة ويدنو فيها من الفن الروائي الروسي وبالاخص بوشكين وجوركي . أما أبطاله فمعظمهم من

طبقة الافا كين وصغار العمال وممن نبذهم المجتمع ، يرسمهم امام القارئ دون أن يعقنب عطفه على طريقة المذهب الوجداني ، بل أن هذا العطف يتولد شيئاً فشيئاً من مجرى الحوادث نفسها وذلك بأسلوب هو مزيج من روح شهر زاد الشرقية ومن الطابع الاغريقي القديم .

ذكرت كل هذه الصور البئسة التي مرت بحياة هذا الشحاذ العبقري الذي أصبح فيما بعد شيخ كتاب رومانيا . فكان السوفيتيت يخشون قامه بعد أن تنكر لهم في كتابه « نحو الشعلة الاخرى » ، وكان الاشتراكيون يهابونه بعد أن تورد على أساليبهم ومبادئهم ، ثم لم البث أن ذكرت كيف يمضي الآن بقية حياته في إحدى مصحات السل بعد أن أشرف على الحلقة السادسة من العمر مترقباً يد الموت بين لحظة وأخرى . (١)

ظل سقوط المطر سوية ثم أمسكت السماء ماءها بعد أن أذنت للشمس أن تطلع ، فركبنا سيارتنا وغادرنا سناجوف وفي القلب لوعة وأسى . وأخذت السيارة ترتقي بنا طريقاً ممهداً لا يمله النظر ثم تستدير صاعدة في طريق آخر فتبدو بحيرة سناجوف منحدره اليها رؤوس الاشجار ، تتقطر منها أشعة الشمس ، وكلما صعدت السيارة بدت البحيرة أكمل بهاء في العين ، كأن

(١) مات باناييت استراتي بعد هذه المقابلة بتسعة شهور

الهضاب والاشجار قدت بجانبها ، الى أن أشرفنا على قرية
« كامبينا » لزيارة شركة « ستياوارومانيا » إحدى كبريات
شركات البترول في العالم .

وقرية كامبينا هي مثال حي لأعمال النقبات العمالية وتضامن
الجماعة ، فسكانها الذين يناهزون الخمسة آلاف نسمة من عمال
الشركة ، والمفروض أن التدخين محظور بتاتاً على كل من يدخل
نطاق القرية ، أما مساكنها فهي نظيفة أنيقة ، تتخللها الحدائق
والطرق المنسقة .

هناك قاذبي بعض موظفي الشركة الى آبار البترول التي دمرها
الامان في خلال الحرب العظمى وهي على عمق الف وخمسمائة متراً ،
فالى حقول التجارب حيث شاهدت كيفية استخراج زيت
البترول وتفريغه في أحواض « قزانات » ضخمة تسلط عليها النار
حتى تتبخر المواد الغريبة ويستبعد « الغاز الوسخ » ثم يكرر
البترول لتستخرج منه رتبة المختلفة كبنزين الطيارات ، وبنزين
السيارات ، وغاز الاستصباح ، والكاروزين ، وزيت الما كينات ،
فالاسفلت وهو أدنى مراتب البترول .

بعد أن انتهت زيارتنا لمعامل الشركة تناولنا طعام الغداء
ضيوفاً عليها ، وكان مكوناً من المأ كولات الوطنية الرومانية
فكنا أحرص على التهامه بشهية ، وبعد ساعة زایلنا القرية الى
مصيف سنايا في طريق معبد شق بين وديان ممرعة وسفوح نضرة .

في جبال الكربات

أشرفنا على جبال سنايا والجو لا يزال غيمًا مكفهرًا يندرنا بين أن وآخر بمطر غزير، وظلت السيارة ترتقى بنا سفوحًا وهضابًا، والسحب تبدو أمامنا زاحفة نحو الجبال، فيتحول اخضرار القمم إلى دكنة وسواد كلون الغمام، وعبثًا كانت الشمس تحاول أن تنفذ إلى الوجود لتبعث بالنور والحرارة حتى وصولنا إلى سنايا حيث عنبت أطراف الجبال نورًا ونارًا ودمًا.

ارتقت السيارة هضبة فبضعة صخور ثم اخترقت حديقة متسعة مترامية الأطراف إلى أن بدا عن بعد قصر بلشيا يتوج أعلى الهضبة، كصومعة الناسك في عزله. تحوط به حدائق عطرة نسقت فيها زهور متجاوبة الألوان كأما صبغتها ريشة فنان يهوى الجمال، وتتوسطها نافورات يخرج منها الماء مرتفعًا ثم يهوى متساقطًا كالؤلؤ المنثور.

وقصر بلشيا الملكي فريد في صناعته. فريد في رشاقتة. شيدت قاعاته وردداته من الأخشاب الثمينة، كخشب الورد المعطر والصندل وخشب بتشين اللامع. فكل قطعة فيه تحفة فنية

رائعة كأنما صاغتها يد سيدة متأنقة في ثيابها لا ترى فيها سوى كلالا
وانسجاماً .

فهو ليس بالقصر الذي تفيض عليه ضخامة الملك وأبهة المجد ،
بل أنه وكر أحلام شاعر محتبيء في ضوء الفكر . اتخذه ليشرف
منه على هذا العالم المتفاني . . . ألم يلهب جماله خيال الملكة
اليزابيت التي كانت توقع أشعارها باسم «كارمن سيلفا» ويبعث
في نفسها أسمى صور الحب والولع بالجمال ، ويخلق منها شاعرة
يحيش صدرها بأنبيل العواطف الذاتية ؟

في هذا القصر تعيش الآن الملكة الكاتبة ماري ، ومن
شرفته المضمخة بشذى الورد ووعبير الازهار تستاف أنفاس المعاني
لتسكبها شعراً في أناشيدها الرائعة .

من العبت أن أحاول وصف جمال القصر وما تحس به النفس
ساعة زيارته وحسبي أن أحيل القارئ الى ما كتبتة الملكة
ماري في كتابها «تاريخ قصر بلشيا» أو في ديوانها «أمي» فأنها
شاعرة تستطيع أن تنفذ الى أعماق الكون وسرحات الطبيعة
فتبعث الخيال من مجثمه ، وتجلو أمام نواظرنا من صور الجمال
سحراً يسبي العقول .

للوصول الى القصر طريق معبد شق بين بساتين ترتفع الى
علو شاهق ، وبين هذه البساتين أقيمت مبان قليلة بعضها للحرس
الملكي الذين يتجولون في كل منعطف ، ولا سيما عند ما يصل
الانسان الى مدخل قصرى «بلشيا» أو «بليشور» . والبعض الآخر

أكشاك أعدت لراحة المتنزهين. هذه البساتين النظرة ، وما تشتمل عليه من أزهار باسمة وأشجار شامخة وروائع فنية تبدو في اطارها الطبيعي . تحتاج من وقتك أضعاف ما تستغرقه زيارة القصر ، بل أنها تزي القصر روعة وجمالاً ، فإن حدائق سنايا الملكية ان هي إلا مجموعة ينابيع وظلال ، وصمت وجو رقيق . على حين أن بوخارست ماهي إلا غبار وضجة ، وشمس ساطعة وطبيعة متوحشة . فيعد أن قضيت سفراً شاقاً متعباً بالسيارة ، أتذكر ما داخلني من السرور عندما أتيح لي أن أملاً رثي من هواء الجبل ، ومن أشجار الصنوبر التي يغمرها نور أزرق ، ممزوج بلون وردى .

...

تتخطى مدخل القصر فما يواجهك الصالون الكبير حتى تقف حائراً مبهوراً ، تكاد عينك تعشيان من لآلاء هذا الضياء ، بالبروعة ! ليس هذا «صالون استقبال» إنما هو معرض منسق لأروع آيات الفن الجميل . ألم يستقدم فرديناند الاول ثمانين فناً من أطراف العالم لتزيينه ونقش أخشابه ، فظلوا يصلون نهارهم بلباسهم نحو ستة شهور ؟ ثم ما هذا السقف ؟ ما أصبر الذين نقشوه حباً في الفن وتقانياً في ارضاء رب القصر ! تقدم الدليل وضغط بأصبعه على زر كهربائي مثبت في الحائط فاذا بالسقف البلوري يتحرك في بطء ليحلب النور والهواء ، واذا به يكشف أمامنا عن أروع مناظر الطبيعة وألصقها بذوق الفنان وحسه ! تخطينا الصالون الى غرفة الملكة الشاعرة اليزابيت ، وقد

غطيت جدرانها برسوم زيتية آية في الدقة والاتقان . فكل رسم منها يرمز الى بطل من أبطال ملاحمها الشعرية . وفي صدر الغرفة لوحة زيتية كبيرة الحجم ، تمثل الملكة باللباس الوطني الروماني فاذا بها امرأة طويلة القامة ، حمراء الوجه ، تتوجها هالة من الشعر القصير الرمادي الذي يشبه أوراق الخريف .

أن الموسيقى والشعر كانا تعزية هذه الملكة الصغيرة التي ظلت طول عمرها ترتدى الثياب البيضاء وتحذب على الاطفال ، متذكرة ابنتها التي توفيت في السابعة من عمرها ، وقائعة بالظلال التاعسة التي ترميها أشجار الصنوبر في حدائق سنايا ، وبالاستقبالات الديموقراطية حيث كانت تحيط نفسها برهط من المعجبات بها ، اللواتي كن يسمعن منها الاشعار ، تنشدها بصوتها الرخيم تحت شجر الصنوبر أو السنديان .

ودلفنا الى قاعة العرش ، أية روعة وجمال ؟ لقد نسقت القاعة على الطراز الفلورنسي ، وكسيت جدرانها برخام كازارا الملون ، ونقشت أركانها بالفسيفساء والمرمر ، وزينت نوافذها بزجاج « كريستال فينيسيا » ، ونثرت في جوانبها تماثيل نحاسية لافراد البيت المالك ، ولوحات تمثل الحوادث التاريخية البارزة في الكتاب المقدس ، ونصب في الركن الجنوبي مصطلى مصنوع من أفر أنوع القيشاني ، أفضى إلينا سكرتير التشريفات أن تكاليفه بلغت زهاء أربعين الفاً من الجنيهات ، وفي الصدر « العرش الملكي » ، وهو مبطن بالقطيفة الحمراء ، يعلوه شعار الملك .

هناك رأيت سجادة وثيرة قدمت هدية من شاه المعجم ،
 تحاكي في هندستها أفخر أنواع السجاد الهندي في قصر أريزوننا .
 يصل قاعة العرش بهو استقبال منسق على الطراز العربي ،
 فعلى رأس الباب كتب بالخط الكوفي « بسم الله الرحمن الرحيم »
 وفي الصدر قبلة من الرخام الأبيض حفرت عليها أبيات من شعر الملكة
 الیصابات مترجمة الى اللغة الفارسية . وهذا البهو متصل من ناحية
 أخرى بقاعة الولاأم الرسمية وبقاعة للشطرنج في سقفها ثريا
 كهربائية بهيئة تمثال لامرأة ترقص فوق قرني غزال وبين يديها
 أوتار تلعب عليها . وهذه القاعة تصلها «صاله للبيلياردو» و «صاله
 للموسيقى» تتوسطها صورة جلالة الملكة الوالدة ماري تمثلا
 وهي تكتب قصصها، وفي ركن من «الصاله» أرغن صغير الحجم
 كانت توقع عليه الملكة في طفولتها ، وهذا الأرنج آية أخرى
 من آيات الفن الجميل ، فهو مصنوع من خشب الورد وأوتاره
 البالغ عددها ٢٨٠ من الفضة ، ومتصل بصامات تخرج منها
 أصوات ساحرة ، ونغمات هي مزيج من طفولة وقداسه توحى الى
 العين ما توحيه الموسيقى الراقية الى الاذن .

ويحتوى الجناح الغربى للقصر على قاعة للسينما والتمثيل تعرض
 فيها أفلام متنوعة و «أوبرات» غنائية ، وفي هذه القاعة صفت
 مقاعد لرجال الحاشية والحرس وتفتهى بمقصورة كبيرة الحجم
 لجلالة الملك وولى العهد وأفراد الاسرة المالكة وضيوف جلالته .
 يجاور قاعة السينما متحف حربى يشغل ثلاث غرف معروضة

فيها الغنائم التي سلبها الامراء القواد من الاتراك، وبعض أدوات
الصيد التي كانت تستعمل في العصور القديمة

ومررنا بالقاعة التاريخية التي انعقد فيها مجلس الوزراء ليعلمن
حياد رومانيا في بدء الحرب العظمى، ثم ليعلمن فيها مرة أخرى
بعد عامين دخول رومانيا الحرب الى جانب الحلفاء، كما مررنا
بالغرفة التي مات فيها الملك فرديناند، والغرفة التي عرضت فيها
جثة مسيو دو كا رئيس الوزارة الذي اغتيل منذ عامين، ولكن
دع عنك السياسة وشواهد التاريخ وتعال نرقي الدرج
لزيارة القسم الخاص بجلالة الملك كارول الثاني، وقف محققاً بهذه
اللوحات والتماثيل والعمد تتوجها ثريات كهربائية حتى يبلغ
منك الاعجاب حد الوله والذهول .

انتهينا الى الطابق الثاني، ونخطينا أروقته الى المخدع الملكي
فاذا به أنيق في زخرفته، بسيط في أثاثه، يزين القاعة الاولى
مكتب دقيق الصنع عليه محبرة وأدوات كتابية وأوراق يعملوها
التاج الملكي، ثم آلة تليفونية . ويتصل بالمخدع متزين وحمام
صغير على نظام حمامات البواخر، أما بقية القاعات والغرف
فبعضها معد للضيوف، والبعض الآخر مخصص لاقامة « البرنس
ميشيل » ولي العهد .

...

لم تأذن الساعة السادسة مساء حتى كنا قد فرغنا من زيارة

القصر ، وهبطنا من حدائقه نلتمس الخروج ، فبدت قباب سنايا وأبراج كمناسها في منخفض كما تبدت روابي الجبال أمام نواظرنا بعد ان كانت تتيه عن بعد خيلاء وكبراً بارتفاعها . أليس أصفى مافي الجبل عظمته وشموخ رأسه ؟ فاذا صاقيته وقربته تلاشت من نفسك الرهبة التي تشعر بها نحوه .

...

ان آية الجمال في سنايا لتمحو آية ليل بخارست ونهارها ...
 هنا الشعر والالهام والمرأة ! حيث لا تلتقى بالمرأة التي تعودنا ان نراها في المزارع الرومانية او في المصانع تعمل وتكد وتشقى طول يومها . بل بجور تستشف في قسما وجوهن اسرار الجمال وكإله الفنى ومراميه ومغازيه .

وبدياً ان الرومانيين حين نعتوا بلادهم « بباريس الصغرى »
 لم يقصدوا باريس من حيث الفن او الادب أو الموسيقى بل قصدوها من ناحية المرأة ...

فالمرأة هنا تعطى رومانيا لونها الخاص ، وهى أكبر عامل في تكوين السحر والذوق اللذين يكيفان هذه البلاد . وبعد أن كان جماها الهاماً أصبحت هي الالهام نفسه ، حتى ان أول سؤال يبادر بك به الرجل الرومانى اذا عرف أنك غريب : هل اعجبتك نساءنا ؟

...

بعد أن قضينا ليلتنا وسحابة النهار في مصيف سنايا ركبنا

سيارتنا الى « بروديال » وهى تبعد نحو ساعة ، ومنها الى « تمسل »
على الحدود المغربية لتمضية الليلة .

وانطلقت السيارة بنا فى جبال الكربات فتارة تخرق قمام
الغمام أخرى تعلوه فيبدو فى انحدار الوديان كلجات من
دخان ، وتسكب الشمس شعاعها فوق الثلوج التى تكسو
روابي الجبال فيتحول نصوع الثلج الى بحيرات من زئبق يتلاءم
تحت سماء من هرجان .

فى هذه الساعة العظيمة يتجههم جبين الأفق ، كأنما يختنق من
تراكم السحب الجائمة فوق صدره ، وما إن يجبو شعاع الشمس
حتى يصلها بوميض من برق وواابل من رعد ، تستد له المسامع
فتعدو السحب منذرة فى نواحي الفضاء ويتشعب الهواء بذرات
من الماء تسطح بين آن وآخر فى خيط من ضياء قوس قزح ، ثم
يرتفع فى الجو ضباب ضئيل خداع لابلث السحب أن تتلاطم فى
أثره فيهمى الماء مدراراً بين رعد يغدو و برق يروح . وكلما
توالت هذه الصور الغاضبة من المعركة الدائرة فى السماء ، تملكنا
إحساس من القلق والوجل ، وظلت قلوبنا تخفق من روعة هذا
المشهد العظيم .

ما بال الطبيعة فى جبال رومانيا تختلف عنها على ضفاف
البسفور ؟

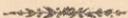
فالتبيعة هنا جبارة عانية تبتمس لها الشمس ساعة ويتكرر
عبوسها إلى حين احتضار النهار ، أما فى استامبول فهى دائمة

متجددة بهجة ، توحى أسمى معانى الشعر ، وتبتعث من أعماق
 النفس كوامن الاعجاز . والاتراك لم يخطئوا يوم اتخذوا الهلال
 والنجم شعاراً لهم ، ذلك أن الهلال رمز للحياة المتجددة الباسمة ،
 والطبيعة الضاحكة المتغيرة صورها في كل لحظة من لحظات النهار ،
 والنجم هو قلب العالم الذي يفيض نوراً وضياء . ترى هل فطن
 قدماء المصريين الى سر هذا حين رمزوا لبلادهم بجسد امرأة
 مرقط بالنجوم تبسط يديها نحو الشرق وأطراف قدميها الى
 ناحية الغرب ؟

وصرفنى عن التفكير في هذا السؤال الذي لم أجده جواباً
 وصولنا الى « تمسل » فغادرت السيارة الى النزل الذى اخترناه
 لاقامتنا ، والتمست لساعتي مصطلى في بهوه أجفف عليه ملابسى الى
 أن يحين موعد العشاء .

وفي اليوم الثالث نهضنا من فراشنا مبكرين ، وبعد أن تمتعنا
 بشمس « تمسل » الوضاعة وجوها المعطر بأريج الجمال ، عدنا بالسيارة
 الى « بوخارست » ومنها استقلنا القطار الذى يغادرها فى الساعة
 السادسة مساء لنبلغ جورجيو فى منتصف الساعة العاشرة ، ومن
 مرفئها المسمى « ميناء رمضان باشا » تقلنا السفينة النهرية الى
 « بودابست » فى أربعة أيام .

أيام من الدانوب



الدانوب — أو الطونة — هو النهر الشعري الحالم، الذي يجري بين ربوع شرق أوربا، ويفصل رومانيا والمجر عن بلغاريا ويوجوسلافيا. وكيف لا يكون الدانوب شعريا، يبعث في النفس أسمى صور الخيال، وهذه شمس المتألقة، وجوده القرمزي الدافئ، وأمواحه التي تجبو في تباطيء شعبي، تحت أديم صاف. تلك المياه التي ناجها جوهان شتراوس في قطعه الموسيقية الخالدة «دانوب بليه - الدانوب الأزرق»!

كانت الباخرة الوانية في سيرها، تسير بنا في عرض النهر فتتكشف أمامنا مناظر الكروم النضرة، والمراعي الخصبة التي ترتع فيها الخراف والماشية. وقوارب الصيد المبعثرة هنا وهناك، وأكواخ صيادي السمك، وسطح الدانوب وهو يبتسم للشمس وقد خلفت في نواحي الأفق ألوانا برتقالية زاهية، والى القمر وهو يرمي ظلاله المستطيلة خلف الباخرة، والى النسيم وهو يمضى في همس وسكون فوق الأمواج المتراقصة!

يبدأ موسم الملاحة في الدانوب من مايو وينتهي في أواسط أكتوبر، إذ تتجمد مياهه وتتحول إلى ثلوج، يجد فيها هواة

الانزلاق متعة وغبطة . والفلك التي تجرى في عرضه ، كبيرة الحجم ، ضخمة البناء ، بعضها لشركات الملاحة الالمانية وهي تتميز بشارة النازي « هاكين كرويتس » ، والبعض الآخر للشركة النموية المختلطة . وعلى النهر أقيمت قناطر وجسور وموانئ وجارك . ويعترض مجراه أحيانا صخور وجزر وجنادل ، ولذا فالملاحة فيه تحتاج الى قيادة دقيقة وربان ماهر يميز وعورة الطريق .

...

جمعتني رفقة السفر في الدانوب بطائفة ممتازة تمثل الفكر والثقافة في عالم الغرب . هم فريق من الكتاب والصحفيين ، غادروا أوطانهم في رحلة نظمها « نادى القلم الدولي » التماسا للراحة وتهربا من الواجبات اليومية المتشابهة التي تعمرهم وترهقهم باندفاعها المستمر . وكان معنا فريق آخر من أعضاء مؤتمر النحل وجهتهم الى بلغراد . وبضع عشرة فتاة من جامعات ميونيخ ، أبصرتهن ذات صباح فوق سطح الباخرة ، وقد احتلن مقاعد الشرفة ، يستقبلن منها شمس الدانوب الذهبية ، لا يستر أجسادهن سوى لباس قصير .

وزاد اعجابي بهن أني ألقيت الى جوارهن ، رفاقا يجدن منهم كل رعاية واحترام . فمن العرف المتبع في الجامعات الاوربية ما يفرض على الطلاب القيام برحلات الى الخارج في خلال عطلة الصيف ، بقصد إعداد أنفسهم من الناحية الثقافية وتنمية الشعور بالمسؤولية وبث روح المخاطرة . على أن يترك لهم قسطا من الحرية

يدرّبون على استعماله ، دون إسراف أو مغلالة . فإذا حلت العطلة ، قسموا أنفسهم الى جماعات ، كل جماعة تتكون من عشرة شبان وبضع فتيات ، فيسافرون في رحلات متواضعة على ظهر البواخر « الدك » ويحملون معهم زادهم ومتاعهم وموسيقاهم .

حدثني رئيسهم بقوله : نحن معشر الجامعيين لاننتقل بالفلك من أجل التمتع بالفراش الوثير والنّاس الترفيه وجودة الطعام . كلا ! فنحن أبعد مانسكون عن ذلك ، وإلا فقدت الحياة قيمتها في أنظارنا . ها ترانا نتحمل شظف العيش وخشونة المركب من أجل أن نرود البلدان للدرس والاطلاع وتكوين فكرة عامة عن تباين الثقافات وتفهم روح الشعوب . تلك الروح المائلة بين الأطلال والمتاحف . المعبرة عن المجد التالد والطابع القومي الخاص .

فتى يفتن الى قيمة هذا الكلام أغنياؤنا . أولئك الذين لا يفهمون من السياحة سوى أنها وسيلة للرفاهية في البواخر والظهور في الفنادق الكبرى ، ومقاومة ضجر النفس وسامة القلب بارتياح المراقص ودور اللهو ، والبحث عن السعادة الوهمية الهاربة في اقتناص اللذات وانهباب المسرات ؟ !

على أن هؤلاء الجامعيين أساليب ديمقراطية استهوتني . صعدت اليهم في المساء وكانوا يتأهبون لنشر بطاينهم وأغطيّتهم فوق سطح الباخرة ، كقمييلة تضرب خيامها على حافة الصحراء . وبدأت السهرة بأن شرعوا ينشدون بأصوات عالية أغنيات ألمانية

مفعمة حيوية وحماسة . وخطر لى أن أطلب الى واحد منهم أن
يسمعنا نشيدهم القومى « ألمانيا فوق الجميع » . لكنه اعتذر فى
رقعة ولطف ، لأن للنشيد قداسة وحرمة ، فمن المبتسر انشاده
خارج ألمانيا . ثم ألحوا علي بدورهم ان أسمعهم شيئاً من الأغاني
المصرية ، فتولانى الخجل ، إذ ذكرت أن كل ما عرفه عن أغانينا
ضعيف ، كله رقعة وخنوثة ، فلا يصف غير الضنا ولو عة المهجر !

وطابت صحبتي مع كاتب سويدي كان عائداً إلى وطنه بعد
أن قضى شطراً من الصيف على سواحل واردة ببلغاريا . أتدرى
فيم كان حديثنا فى خلال الايام الأربعة التى قضيناها فى الدانوب ؟
لقد كنا نلتقى مصادفة او نزاور الفينة بعد الفينة . فنظل نتجادل
ساعات برمتها فى شؤون تزيد أو تقل فى الأهمية . إلى أن
وقفنا مرة عند حد معين ، حول مشكلة الأزمة الفكرية فى العالم .
ولقد كان طبيعياً أن يستهوينا الحديث عن نفس الموضوع الذى
تدور فيه كلمة الأزمة على كل الشفاه . فالذهب والفرن
والتجارة والسياسة والزواج . كل هذه فى أزمة يشكو منها العالم
فى تنهدات عميقة ، وإذا كان الناس يعامون أنه من الصعب أن
يجد الانسان وظيفة أو مبلغا يقترضه ، فكهم الذين يفكرون
برهة واحدة فى وجود أزمة أشد خطراً من الأولى - أعنى
أزمة الفكر ، أزمة الروح .

قال صاحبي : إن عالم الافكار والعواطف أصبح مضطربا فى
العصر الحاضر ، ولكن لا يحسن أن نذهب مع هذا إلى حد

التشاؤم ، وأن نلظن أن ميادين الفنون والآداب والفلسفة هي أقل قيمة مما كانت في العصور الماضية . والأزمة الفكرية التي تجتازها ترجع إلى أمور متباينة ، منها ما هو واضح مباشر ، ومنها ما هو مبهم عميق . فمن المعروف أن طابع هذا الجيل هي المنافسة العنيفة ، بعد أن أصبحت الحوائج اليومية كالأشباح المخيفة . وهذه المنافسة المادية من الأسباب القوية التي تمنع الأفراد من تغذية عقولهم ، ومن تذوق الآداب علي وجهها الصحيح ، والنقود الضرورية لدفع أجرة المسكن أو الغذاء أو الاشتراك في الملاهي وفي الألعاب الرياضية تقضي على جمال الاناشيد التي ترتلها القلوب المترعة بالعواطف والجمال .

— ولكن أليس الصراع في سبيل كسب الخبز اليومي شيئاً

عرفه الناس من أقدم العصور ؟

— أجل . ولكنه الآن أشد قسوة . ففي العصور التي

سبقت الآلة وما تبعها من تقلبات اجتماعية ، كان المحيط الانساني أسعد وأهنأ حالا . فكان الممول لا يركن في استثمار ثروته إلا إلى سواعد الرجال . ولذلك كان عدد العمال في كل أمة من الأمم كافياً للقضاء على أزمت البطالة . ولكن الآلة الحديثة ، احتلت مكان العامل ، وجعلت الحياة شيئاً قلقاً مضطرباً ، فكيف يفكر الانسان في الشعر والفلسفة وهو لا يدري كيف يشبع غرائزه الطبيعية . مع العلم بأن حوائج الحياة المادية ليست هي كل ما يقضى على تقدم الفكر . فهناك تطرف في ممارسة

الألعاب الرياضية لايساير نهضة الفكر مطلقاً. أضف الى ذلك أن الميل الى المساواة التامة - أعني نقشى الديمقراطية - يدفع العناصر السفلى الى الاتساع وغمر العناصر المفكرة الأخرى بما يترتب عليه القضاء على نفوذ الطبقة الممتازة . وعلى كل فلا محل للتشاؤم ، لأنه لايزال في العالم من يفكر ويكتب ، بل ويسرف في الكتابة ، ولا يزال في العالم من يقرأ ويتذوق لذة القراءة .

وكان موعد العشاء قد أزف ، فنهض صاحبي واختتم حديثه معي ببعض العبارات الطلية عن جمال الأدب القديم ، عازياً الى الأدب الحديث انه لايمثل العصر الذي نعيش فيه ، فالحزب مثلاً أحاطت الانسانية بفواجع بلغت من الهول مبلغاً عظيماً ، ومع كل لم تجد الى الساعة الشاعر الذي يميكيها ، وفي هذا ما يدل على اننا نسير في آدابنا سيراً مضطرباً ، وأن الشعراء ليسوا على ثقة من حاجات النفوس ، فلا يستطيعون الوصول إلى هدف معين .

...

ووقفت السفينة في بلغراد فصعد اليها حشد من الشبان والفتيات اليهود ، ولعل وجهتهم كانت « أرض الميعاد » كعبية آمالهم ورمز وحدتهم . لكم كان يخيفني بريق عيونهم المزوج بالكرهية والحسد ، وضجيج أصواتهم التي كانت ترتفع في سجو الليل بأناشيد عبرية لشاعرهم الأكبر « بياليك » . يرتلون في لغات بطيئة محزنة ، كأن كل قطرة من الدانوب ممتزجة بذكرياتهم وآلامهم .

وعرف واحد منهم انى مصرى ، عربى ، فحرص على أن يتوودد الى ويلتمس الوقوف على رأى بصدد المشكلة الفلسطينية ، ولما كنت لا أحب التسكلم فى الشؤون السياسية ولا أميل الى الجدل فى الأمور الدينية فقد احتفظت برأى وامتنعت عن أن أدلى اليه بفكرة ما. أفضى الى مرة بمامعناه : اننا نغذى فلسطين بعقول منظمة وأفكار حية ، وسوف نخلق منها أمريكا جديدة . ها أنتم ترون كيف تحوات المساحات الشاسعة من الأراضى المهجورة الجذباء إلى بقاع خصبة وحدائق غناء . ففى خلال فترة قصيرة ارتقيننا بفلسطين من ولاية عثمانية عتيقة إلى بلد أوربى منظم على قواعد عصرية .

— ولكن ما ذنب العرب ؟

— انها كفارة يقدمها التاريخ. لقد اضطهدنا وطردنا وأصبحنا مبعثرين هنا وهناك فوق هذه السكرة الأرضية . بين أناس يكرهوننا ويحملون لنا كل بغض وموجدة ، اذكروا أننا نعيش من غير دولة ولا حكومة ، فاذا عدنا الى فلسطين فهى وطننا القومى ومهد آبائنا الأولين .

...

لم يبق إذا سرّاً مكتوماً أن هذه الرقعة الصغيرة من المعمورة هى الشغل الشاغل لجميع يهود أوروبا ، وأن الأموال والهبات التى تدفع « للصندوق » من أجل تهويد فلسطين هى ضريبة يدفعها كل يهودى فى أنحاء العالم طواعية واختياراً ، حتى أصبحوا يتنافسون فى

البذل والعطاء من أجل تحقيق حلم ملك فلسطين ، واستعادة عرش سليمان ! ولكن السر المكتوم الذي لم أكن أعرفه ، وربما يعد من التعاليم الدينية عندهم ، هو تشويق الفتيات للهجرة الى فلسطين ، وتصوير السعادة بين ربوعها في صورة الفردوس الذي تفيض التوراة بوصف ألوان هنائه . فان هؤلاء الفتيات اللواتي التقيت بهن على ظهر الدانوب ، كن متحمسات وهن يتحدثن عن السعادة التي تنتظرهن في تلك الأصقاع النائية . وعبثاً حاولت أن أبعثر أحلامهن فأبرهن لهن على أن فلسطين أصبحت لفرط ضيقها لا تستطيع توين أهلها . وأن أغلب مايرد من تبرعات اليهود إنما ينفق على الصحف وعلى الدعاية الجوفاء التي لا تنقطع حتى يعيش القوم على الدعوة الصهيونية من دم اليهودى الأوربى أو الأمريكى الذى لا يعرف عن فلسطين شيئاً !

أجل ! لقد تمثل أمامى في تلك الساعة شبح فلسطين الشقية المنكوبة في زيارتى الأخيرة لها عام ١٩٣٣ ، وقد طفت عليها جموع اليهود ، فتلم شعشعهم نقابات الهستدروت وتقطعهم الأراضى وعمدهم بالقروض وتدفع إليهم أفدح الأجور في سبيل مزاحمة العامل العربى ومطاردة الفلاح العربى . وفي الوقت الذى يعمل فيه اليهود على تنظيم هيئاتهم ومؤسساتهم الاقتصادية وجمع التبرعات من كافة أنحاء العالم لانعاش فكرة الصهيونية وافتتاح المعاهد ودور الثقافة ، ترى العرب متفرقين ، لا تجمعهم وحدة ولا يملكون سوى الأرض النكدة النبات . فاليهود يجلونهم عن مزارعهم وأراضيهم ،

بعد أن يغروهم بالمال، وهم يستغلون سيطرتهم على الأسواق الاقتصادية ونقوذهم في عالم السياسة والفكر لاستعمار فلسطين باسم فكرة الوطن القومي. وقد صدق جيوفاني بايني حين قال في كتابه «جوج»: ان اليهودى واحدمن اثنين، فهو إما أن يكون سيد مستبد في دولة المال، أو فوضوى قدير في عالم السياسة والتفكير!

...

وأصبحنا في اليوم الثالث ولا حديث للركاب سوى جمال «بوابة الحديد» ووصف الحصون والقلاع المقامة عليها، فلما كنا قبيل الغروب تبدت هذه الجبال عن بعد، فاذا بها سفوح سوداء قاسية، قامت على ضفتى النهر وقد انحصر المجرى بينها في بوغاز ضيق لا يسمح إلا لسفينة واحدة بالعبور، وتمهل الربان في السير، ثم مال بالسفينة وتقدم متباطئاً حتى لا ترتطم بالسفوح. ووقفنا نحن في مقدم السفينة وهى تسير بنا فى ببطء وتدساب كالأفعى بين الصخور، فكان لنا من جمال الغروب وانعكاس ألوان الشفق على هذه الصخور والجبال ما أهاج خيالنا وسما بأرواحنا إلى عالم الغيب وجرى بها صوب الاتصال بالمجهول. وأشرفنا على حدود المجر، عند قرية موهايس، فوقفنا السفينة النهرية لتفريغ مشحونها، وانتهزنا الفرصة فزلنا نتجول فى أنحاء القرية ونستمع إلى موسيقى النور. حتى إذا كنا فى فجر اليوم الخامس تبدت بودابست وقد فتحت صدرها للدانوب، فاحتضنها وحنى عليها حنو المرضعات على الفطيم.

بودابست

« ملكة الدانوب - و - عروس المدن المعدنية »

ليس سحر الدانوب وحده حين يسجو الليل ويتأهب النهر
مستقبلاً زوارق العشاق وهي تجبو في عرضه متهادية ، ولا جمال
الجمال الصغيرة التي تتخلل بودابست حين ترقاها في ضوء القمر
بين شدو القمارى وشذى الزهور ، ولا « برج الزبايث » الخالد
العظمة حين تشرف من قفته على منظر غروب الشمس أو تترقب
مرآى القمر الجديد ، أو تشهد كيف يتعانق الليل والنهار حتى يفنى
أحدهما في صاحبه . ليس هذا هو سر فتنة بودابست وطابع
سحرها . إنما يجذب الغريب إليها روحها الشرقية القديمة الباقية
على ممر الأجيال ، والممثلة في الأبنية الضخمة المتجانسة التي تمتاز
بطرازها الهنجرارى ذى القباب والسقوف المنحدرة . ففي كل
بقعة من بقاع بودابست روح شرقية نبيلة . بحيث تشعرك
في قرارة نفسك انك لست غريباً عن هذه البلاد ، بل تتمسكك
نشوة فياضة لا تدرى كنهها ، كأنما أنت في وسط مشبع بمسرات
الحياة ، وفي جو كله وحى وشعر وإلهام .
والمجرى في طبعه الشرقي يمثل أسمى الحضارات الشرقية في

أنبل معانيها ومدلولاتها . يتحدث إليك فتأنس إليه ، وتحتك به
 فترداد ثقة بخلقه . فالروح الشرقي متأصل في نفسه وفننه وموسيقاه .
 وهو يصبغ شعره وأدبه بعطر فياح من إحساس الشرق الفياض
 اصعد الى جبل ساتشي كلاتو في « بودا » تر مشهداً عجباً ،
 فريداً في روعته وما يبعثه في النفس من شعور جديد ، فمن هذا
 الملو الشاهق يبدو لناظر كجمال المدينة العظيمة التي اتخذها
 الهندجاريون منذ هجرتهم من جبال أورال مقر حضارة مجيدة ،
 وهذا الدانوب يشطرها شطرين ، كما يشطر نهر النيل مصر ،
 فالأول وهو بودا ، يشمل قصور آلها بسبورج وكنيسة التتويج
 ودور الوزارات والمتحف الحربى وأحياء الطبقة الراقية المشيدة
 دورها وقصورها فوق القمم الزاهرة ، تتخللها الحدائق والغابات ،
 وتنساب العيون الطبيعية والينابيع الكبريتية في أرجائها .
 وكانت مدينة بودا تحوى فيامضى نحو أربعين مسجداً ، شيدت
 في إبان الاحتلال العمانى ، ثم تحولت بعد الجلاء عنها وبمرور الزمن
 الى كنائس ومتاحف وملاهى ، حتى ان مسرح بودا كان فى
 الاصل مسجداً .

والمدينة الثانية « بست » كانت العاصمة القديمة للمجر ،
 خربها التتار وأحرقوها وأغاروا على سكانها ، ثم أعيد انشاؤها
 فى عهد الملك لاديسلاس ، ووضع لها نظام نيابى ثابت
 وحكومة منظمة ، وهى الآن مظهر الحياة العصرية والاجتماعية ،
 بل انها لاتقل عن باريس جمالاً ودلالاً . وتصل المدينتين عدة

جسور تمتاز برشاقتها وجمالها الخلاب، كأشرطة من الحرير الموشى
بجيوط من ذهب الشمس !

وإذا كان الدانوب بزرقه مياهه وجسوره البديعة المعلقة ،
وجزيرة سانت مرجريت بموقعها الفريد في قلب المدينة ، وما
يتخلل حدائقها من ألوان المتاع والمسرة ، فإن دار البرلمان المجرى
وقصور آل هابسبرج والمتاحف والكنائس والتماثيل لا تقل امتاعا
للنفس عن كل معاني الجمال المنبثة في الطبيعة ، بل هي تشهد أن
الإنسان هو أيضاً خالق بعض هذا المجد والجلال .

ما بالك كما وقفت تستشف نقوش البرلمان بالغاً ما بلغ
صغرها اهتزت نفسك الطامحة الى أسمى صور الجمال والتست تفسير
الرموز والتعابير التي أودعها رجل الفن لوحاته ورسومه ، بل
تجاوبت بين بصرك وحواسك نفس المعاني التي كانت تجول في
مخيلته .

أما دار البرلمان المجرى فتعد أفخم عمارة في العالم مشيدة
على الطراز القوطى ، وضع تصميمها المعمارى شتيندل ، واستغرق
بناؤها خمسة عشر عاماً وبلغت تكاليفها مائتى مليون بنجوى ، أى
ما يقرب من ثمانية ملايين من الجنيهات . وقد شاءت إرادة الشعب
بعد أن ظفر بالدستور أن تبني دار الشعب على الضفة الثانية
للدانوب المقابلة لقصر الملك ، لكي تنازع القصر سلطته وتمثل
إرادة الأمة وعظمة الديموقراطية .

فمنذ عام ١٨٤٨ كانت تحكم المجر حكومة أجنبية لا تمت الى

أهله بصلاة ، فشبت قلائل وثورات عنيفة انتهت بانتصار الشعب وظفره بالدستور . وقد بدىء في تشييد هذه الدار عام ١٨٨٧ وافتتحت عام ١٩٠٣ بعد ان اشترط زعماء الشعب ان تكون أحجار البرلمان . وكل أدوات البناء ومواد العمارة من أرض المجر فلا يدخله شيء أجنبي . وأن يكون طرازه من الداخل شرقيا ومن الخارج قوطيا حتى يثبت بذلك ان الهنجارين جاءوا الى أوروبا وهم يحملون حضارة الشرق وروح ثقافته .

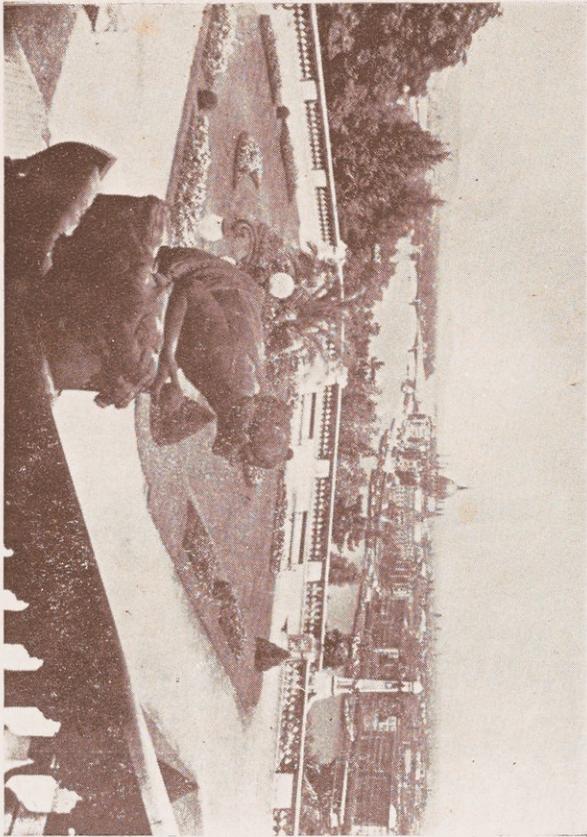
هذا البناء الخالد العظمة يمثل اسمى معاني المجد والجلال ... فكل حجر من أحجاره آية ناطقة من آيات الجهاد في سبيل الدستور كما ارتقىنا درجاً من أدراجة الخمسين أحسننا اننا نقرب من مثل الحرية العليا ، وهذا الدرج المؤدى الى مدخل البرلمان عرضه نحو ثلاثين متراً ! يا للروعة ! ما كل هذه البوابات والعمد الأودية الى الفناء الداخلى وما هذه الثريات واللوحات والتماثيل التى يلمع ذهبها في نور الفضاء ؟ بعضها يمثل حفلة تتويج فرانسو جوزيف الاول والبعض الآخر نقشت عليه معاهدة برلين ؟ كم من مهندسين رسموه وفنانين نقشوه ؟ وكم من جهد ومال ووقت وعمقيرة اشتركت في بنائه ؟ كلا ! ليس هذا برلمانا كبقية برلمانات العالم ، إنما هو هيكل الوطن ، هو مظهر عزته وقوته وعنوان فخاره الممثل للاجيال جميعاً !

بعد ان تركنا معاطفنا وقبعاتنا في قاعة الزوار ، غشينا غرفة المطالعة فقاعة التدخين فلكمبئة فمتحف البرلمان ، وهو يحتفظ

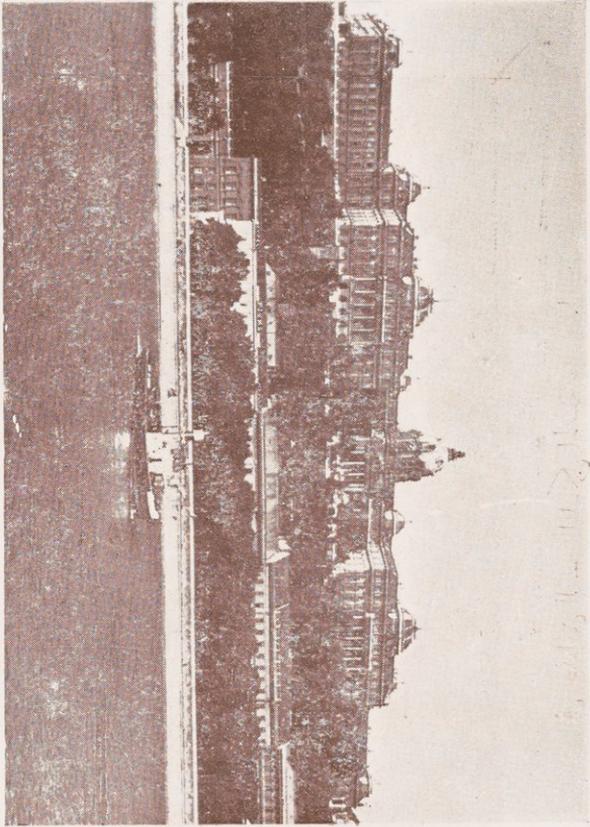
بالنسخة الخطية للدستور وبمجاهدات ووثائق ومستندات تتعلق
 بالحياة النيابية ، وبالمسند الذي أطلقه أحد نواب المعارضة على
 رئيس الحكومة عام ١٩١٣ . فقد تجرأ الرئيس على أن يغير
 إحدى مواد الدستور ، فوقف النائب يتكلم زهاء ثمانى ساعات
 مبيناً شناعة هذا العمل ، فلما حاول رئيس الحكومة مقاطعته
 واسكاته حمل عليه النائب المعارض فى هذه المرة ، لا بلسانه ولكن
 برصاص مسدسه !

ومررنا بالردهة المفضية الى مجلس النواب ، وفيها خمسون
 تمثالا ترمز إلى الحرف والصناعات فى بلاد المجر ، وانتهينا الى
 قاعة النواب ، فاذا بها ٢٤٠ مقعداً بعد ان كانت ٣٥٢ ، فقد
 كانت المجر ولا تزال من ضحايا الحرب العظمى حتى أنها فقدت
 كثيراً من المقاطعات التى سلخها الحلفاء عنها وضموها الى
 تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ، فأصبح سكان المجر ثمانية ملايين نسمة
 بعد أن كانوا ثمانية عشر مليوناً !

وفى قاعة النواب لوحة زيتية كبيرة من رسم الفنان يوليوس
 بنسور تمثل الامبراطور فرنسوا جوزيف يستقبل النواب فى
 الاحتفال بمرور خمسين عاماً على ارتقائه العرش ، الى جانبها لوحة
 أخرى عرضها نحو عشرة أمتار تمثل الهنجارىين فى العيد الألفى
 لتأسيس مملكتهم وهذه اللوحة الثانية من رسم الفنان المشهور
 مونكاشى

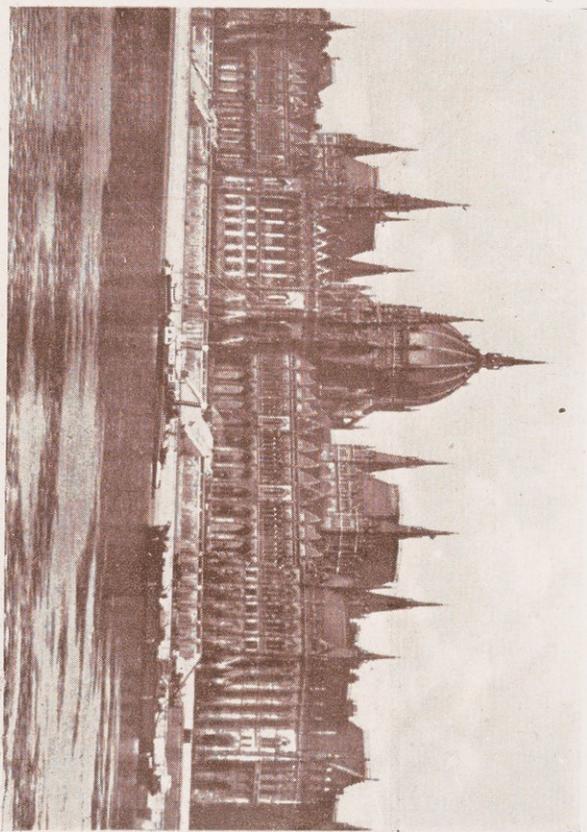


في حدائق القصر الملكي المطلة على الدانوب



القصر الملكي

دار البرلمان





نائب الملك عقب خروجه من القسم المصري بمعرض بودابست

وفي طريقنا الى مجلس الشيوخ ، وقفنا برهة تحت قبة البرلمان ونحن خاشعون ، فهذه القبة مجدرها المكسوة بالخشب المنقوش والرسوم البارزة المموهة بالذهب ، وعمدها المزينة بتماثيل ملوك المجر ، وهي بأثاثها وفرشها الوثيرة تنافس أجمل قاعات العروش في قصور الملوك . وهذه القبة البالغ ارتفاعها نحو التسعين متراً تصل قاعة النواب بقاعة الشيوخ ، ويعقد المجلسان تحت هذه القبة عادة بهيئة مؤتمر ، فيفد النواب من جهة الشمال والشيوخ من اليمين ، أما الملك فيفد من الباب الأوسط لافتتاح الدورة البرلمانية والقائه خطاب العرش .

وماذا أصف من جمال قاعات الاستقبال وما إليها من صالات التدخين ، وغرف الوزراء ، ومكاتب المجلس ، والمطعم المزينة جدرانها برسوم رائعة ، ونادى السباحة الخاص بالنواب ، والسكركتارية ، وقاعة الصحافة ، وهي كلها مزينة بالرسوم الزيتية والنقوش الناطقة بجمال الفن ، وبالستائر الحريرية والسجاجيد الوثيرة ، وأكثرها يشرف على الدانوب وجسور الدانوب .

...

وعبرنا النهر في زورق بخارى إلى القصر الملكي . وهو قصر قديم مشيد فوق ربوة مرتفعة ، يطل على الدانوب . أما تاريخه فيعود الى خمسمائة عام ، شاده الملك ماتياس وأعادت تجميله الملكة ماري تيريزا في القرن الثامن عشر ، وأضافت إليه بعض الأجنحة والمرافق . وللوصل إلى القصر طريقان : إما بواسطة الترام

الصاعد « فنكبير » أو سيراً على الأقدام بين حدائق غناء
وأزهار نسقت أجمل تنسيق . وقد ظل القصر مقر ملوك المجر
خلال القرون الغابرة الى أن طردت معاهدة الصلح آل هابسبورج
وأقامت مكانهم الادميرال هورتي - الملقب بنلسون المجرى -
كوصى للعرش ، الى أن يأتى « الملك المنتظر » فيعيد الى القصر
غابر مجده وسؤدده .

وقد قص علينا صديق كان يرافقنا في هذه الزيارة ، أن
القصر كان في وقت ما مسرحاً لمهزلة سياسية ، فقد انتهزت امرأة
مأفونة اسمها روزى بيدى شويمر فرصة مغادرة آل هابسبورج
للقصر ، فاحتلته مع فريق من أعضاء حزبها ، وأعلنت منه قيام الدولة
الشيوعية ، لولا أن الحلفاء ثبطوا عزيمتها واعتقلوها . ولكن
قصر الهابسبورج على الرغم من النكبات والكوارث التي حلت
به محتفظ بطابع مجده القديم . ولا تزال فرقة الحرس الملكي تتهادى
في جوانب ساحته ، وصوت النفير يدوى بين ساعة وأخرى مؤذناً
بتبديل الحرس ، كأن الملك مقيم فيه كسابق عهده .

وفي فناء القصر الداخلى عشرات التماثيل البرنزية في حجمها
الطبيعى ، بعضها يمثل الملك ماتياس بين كلاب صيده ، وحوله
فتاة جميلة تحمل غزالاً ، وحارس في يده بوق يضرب فيه ، وحارس
آخر يحمل في يده صقراً . فقد كان الملوك في العصور القديمة
دربون الصقور ويروضونها على الصيد ، كما أن في اعتقادات

العرب مايدل على أن الصقر يحمي حامله من الموت، ويهيئه له الانتصار على خصمه .

يضم قصر الها بسبورج نحو ثمانمائة وستين غرفة ، وأين القلم الذي يحيط بوصفها من قاعة الرقص المزينة بثريات تحيل الليل نهاراً ، إلى بهو الحفلات المكسوة جدرانه بالمرمر المجزع والفضة المنقوشة ، إلى قاعة العرش التي أعلن منها فرنسوا جوزيف ضم البوسنة والمهرسك إلى بلاد المجر . ومن بهو استقبال السفراء المطل على الدانوب ، إلى مقر أسرار الملكات ، حيث الخادع غارقة بين خزائن العطر ، وبين المتزينات المرصعة بالجواهر والمناضد المطلاة بالمينا ، وأبواب التتويج التي طرقتها ووشت أطرافها بنات الأشراف وسيدات الطبقة الراقية .

...

غادرنا قصر الها بسبورج في نزهة قصيرة حول أطراف بودابست ، فكان من المناظر الفريدة التي جذبت أنظارنا ونحن نجتاز الشوارع وفرة التماثيل . فليس من شك في أن عددها يربو بكثير عنه في أية عاصمة من العواصم الكبرى . وهم يتكونها دائماً صدئة مغبرة ، ولا يعمدون إلى تنظيفها أو طلائها إبقاء على طابع الزمن . هذه التماثيل بعضها يشخص إلى الدانوب من ارتفاع شاهق كتمثال القديس جيلبرت ، أول المبشرين الذين عملوا على نشر المسيحية في القرن العاشر ، وييده الصليب يبارك به المدينة . وتمثال باتيوني الكبير الذي يضارع تمثال الحرية في نيويورك .

وتتمثل الفارس تشيكوش ، في حدائق القصر الملكي . وتمثال
يوجين سافوى قائد الفرقة الأجنبية التي ساعدت المجر على
التخلص من الأتراك . وفي شارع كوشوت تمثالان كبيران ،
ارتفاع كل منهما نحو عشرة أمتار أحدهما للقديس بازمان ،
والثاني للمشرع فاربتسى . فاذا انحدرت من شارع أندرياناشى
الى دار المتحف الزراعى ، عن طريق ميدان ميلنزي — أو كما
يطلقون عليه : « ميدان الأبطال » — تبدى أمامك مشهد يأخذ
بالب والفؤاد معاً . ففي هذه الساحة عمود تذكارى لمرور الف
عام على تأسيس الدولة المجرية . يصاقبه نصب عظيم للبرنس البات
ممتطياً صهوة جواده ، يحف به نحو عشرين تمثالا من البرنز ،
ملوك المجر الذين اشتهروا ببسالتهم الحربية . وهى فى حجمها
الطبيعى آية ناطقة من آيات الفن الجميل . الى جانبها مقبرة الجندي
المجهول ورسوم بارزة لأشهر الحوادث التاريخية . هذه النصب
والتماثيل هى عنوان حضارة نبيلة شريفة . ومامن مجرى يمر بها
إلا حياها برفع القبعة ، متطلعاً إليها بالفكر والعاطفة . وهم
يحرصون على تلقين تاريخ هؤلاء الملوك والأبطال لأولادهم ،
ليطبخوا في نفوسهم مجد الوطن ، ويحببوا اليهم الكفاح فى سبيل
الحرية والودود عنها .

فى هذا الميدان تقوم دار المتحف الوطنى للفنون الجميلة .
وهى تضم بين جوانبها مجموعة فنية نادرة المثال ، ونفائس
كانت تزدهان بها قصور الملوك والأمراء . ففيها لوحات من رسم

روفائيل وليوناردى فنشى ، وطائفة من رجال الفن فى عصر النهضة، ومناظر طبيعية بريشة الرسام الفرنسى النابه كلود لورين ، والفنان الاسبانى جويبا ، فيها جمال يطرب النفس ويتسامى بها الى نشوة الخيال . وفى الطابق الأول من المتحف تماثيل مختلفة الأحجام والاشكال ، تشهد بأن فن النحت بلغ شأواً بعيداً فى التناسق والانسجام، وفى التعبير عن جمال الروح وجمال الجسد .

ماهذه العبقريات والقرائح التى جادت بهذا الفن العجيب ؟ بل بهذه الثقافة الشرقية النبيلة التى تقدمها المجر لأوربا ؟ ثلاث ساعات قضيتها فى هذا المتحف ، متنقلا من لوحة الى لوحة ومن تصوير الى تصوير دون أن أحس باجهد أو تعب . وهل كانت زيارتى لمتحف الفنون الجميلة سوى سياحة فى عالم الفكر وفى عالم الخيال ، تطفئ ظمأ الروح والنفس ؟ وأين لي من الفاظ الفن والمعمار والهندسة ما أعطى به القارىء صورة صحيحة لسكل ما شاهدته من رسوم ونقوش وتماثيل . على أنى اكتفى بأن أقول ان الروح الشرقية الهادئة متأصلة فى كل ملحمته : فالجيريون الذين قدموا الى أوربا من الف عام ونيف ، حملوا معهم من الشرق الفن الزخرفى الفارسى الذى لا تزال روحه قوية الأثر فى القرى والداكر . ثم أخذ الفن يتطور بتطور الحياة ، جانحاً الى استيحاء النهضة الايطالية والفن اللومباردى ، وان كان لم ينقله مجرد نقل ، بل ظل محتفظاً بمزاجه الشرقى ، وحوار من الفن الاوروبى ما يوائم تقاليد وبيئته الاجتماعية .

ولقد سار الفن المجرى خطوة فخطوة مع الامة ، مرتقعا
بارتفاعها ، هابطا بهبوطها ، فبكت ريشة الرسام لبكاء الشعب ،
واضحجت عبقريته في عصور الانصراف الى الحروب والقتال
السياسية ، حتى اقتصر الفن على تزيين حوائط الكنائس ونقش
الصلبان والاوانى المقدسة .

ولما كانت الفنون أول ظاهرة من ظواهر المجتمع ، بل إنها
المقياس الصحيح للحرية الفردية والجماعية ، فان المجر ما كادت
تسترد استقلالها وتسودها عصور كلها رخاء ورفاهية وتعلق
بأسباب الحياة ، حتى أشرقت الروح التي هجعت أجيالا طويلة ،
وبرزت الى الوجود العبقرية الكامنة . وكانت عودتها الى الحياة
بمثابة انتصار هادئ للشرقية على الغربية . فازدهرت النهضة
الفنية ، وسرعان ما انتقلت من الكنائس الى القصور . وانجبت
المجر طائفة ممتازة من رجال الفنون ، بثواروحهم في ايجاد فن
قومي أصيل ينبت في تربة مجرية فنية . كالرسام مرستوفى الذى
أسس بمدينة بست أول اكاديمية للفنون الجميلة ، وميشيل
مونكا كزى ، وهو يعد في مقدمة الرسامين الذين ذاع صيتهم في
انحاء العالم ، وجان كوتسكى ، وقد اشتهر بعبقريته الفذة ، وفي
لوحاته الجميلة نرى خيال الفنان وذوقه وعمق بصيرته .

الى جانب هذه الاعمال الخالدة نرى في أوراق المتحف ،
أعمالا أخرى متنوعة ، لطائفة من المهندسين الممارين ، كمنقولا
بيل الذى شيد أبراج بودابست ، وأدمون نلز واضع رسوم

متحف الفنون الزخرفية ، ويرجع اليه الفضل في تكوين الفن
المجرى الحديث ، الذي يجمع بين الفن الشعبي وبعض عناصر الفن
الشرقي ، ويرى صاحب تصميم جامعة سزجد ، وبرتليمي
سنريكيلي مبتدع فن الرسم التاريخي .

والمشاهد انه في العصور التي كان الفنان الاوربي يستلهم الفن
الاغريقي في تكوين ملكته الفنية ، نرى الفنان المجرى ينفر
من الطابع التقليدي ، فيعبر برسومه عن مجد أجداده القديم
الخالد ، ويأخذ عن الروح التجريبية المرححة من كل معنى طرب ، حتى
جاءت لوحاته الملونة بالأصباغ والزيت خير معبر عن حقيقة
شعوره ، وعن تكوين الذوق الشرقي في فنه

نغادر متحف الفنون الجميلة فما أن نمرقنطرة صغيرة على الدانوب
حتى نلني أنفسنا وجها لوجه أمام دار المتحف الزراعي ، وهي عمارة
جمعت بين الفن المجرى الالماني والروماني وبين فن النهضة
الايطالية . فواجهة المتحف منقولة عن قصر هنديادي ، في حين
أن الباب الجانبي على طراز مدخل قصر من قصور عهد الاقطاع .
أما الباب الخلفي فهو عبارة عن فجوة في حائط ضخمة من الطراز
الفني الالماني . وبالإجمال فان هذا البناء الفريد يجمع بين
مختلف فنون العمارة ، حتى جاء آية من آيات الجمال .

وفي حديقة الدار أقيم تمثالان ، أحدهما لجورج واشنطن
محرر الولايات المتحدة ، والآخر لمؤرخ مجهول دون في القرون

الوسطى تاريخ المجر دون أن يضم اسمه على مؤلفاته ، وقدخله
المثال بعد أن تخيل ملاحه وهيئته من روح كتابته .

والمتحف الزراعي ببودابست يعد أعظم متحف زراعى في
العالم ، وداره كائنة في جزيرة صغيرة تكسنتفها الأشجار
والغدران ، مما يزيدا روعة وجلالا .

ويمثل المتحف مظاهر الحياة الزراعية في المجر بطريقة عملية
ومنطقية دقيقة . يكفى ان تتفقد ما يحويه من الآلات الزراعية
والمنتجات والمواشى ، حتى تخرج منه بفكرة صحيحة عن الزراعة
في المجر وتقن المجريين فى وسائل ترقيتها .

والمتحف مقسم الى خمسة وعشرين قسماً بطريقة تحليلية دقيقة .
وأهم هذه الاقسام : الاحصاء الزراعى ، والجيولوجيا الزراعية
حيث توجد مجموعات من مختلف أنواع التربة ، وقاعات القمح وهى
تشمل الحبوب التى كانت تزرع فى العصور السابقة للتاريخ ،
وقاعات تربية النباتات حيث توجد مجموعات من الجذور ، وقاعة
زراعة الدخان ، وزراعة البساتين ، وقسم أمراض النباتات
والحيوانات ، حيث توجد مشاهد لأثر تلك الامراض وتطوراتها ،
وقاعة تربية القز وزراعة العنب ، ومجموعة منظمة للطيور المفيدة
للزراعة وطرق وقايتها ، وبيانات عن أعمال محطات التجارب
الزراعية ، وأخرى عن تطور الصناعات الزراعية كصناعة طحن
الغلال ، وتكرير السكر ، وتقدير الكحول ، والجمعة ، وزراعة
التيل والكتان ، وبيانات عن جمعيات التعاون والنقابات الزراعية ،

وأقسام خاصة بتاريخ الزراعة منذ طفولتها، وعلم الارصاد الجوية ،
 وعلم الاجناس البشرية . وهناك أيضاً قسم للألبان وآخر للأنبذة
 حيث يستطيع الزائر ان يتذوق أقدمها وأشهاها . ويوجد
 بالمتحف أقسام لتربية أحسن أنواع الجماد وبيان فضائلها . أما
 قسم الري فهو يشير الى الطرق التي اتبعت منذ قديم الازمنة
 الى الآن لرى الاراضى الزراعية . عدا أقسام تربية النحل
 واستخراج العسل ونسج الاقمشة الحريرية والدخان والتفريخ
 والفواكه المجففة ورعاية الغابات وفيها بيانات مستفيضة عن
 الجهود التي بذلتها الحكومة فى سبيل زراعة الغابات فى المناطق
 القلوية والحجرية وعلى شواطئ البحار . ويشمل قسم تربية
 الاسماك مجموعة كاملة بما فيها الانواع المنقرضة ، وقسم الطيور
 وفيه أنواع كثيرة من الطيور النافعة للزراعة ومجموعات
 لاسلحة الصيد . ومن الغرائب فى قسم الخضر والفواكه ، بطيخه
 محفوظه من سنه ١٩٠٥ . أما مكتبه المتحف فهى مكونة من
 نحو أربعة وعشرين الف مجلد خاصة بالشؤون الزراعية .

وتملك بودابست عشرات المتاحف ، تفقدنا بعضها فى فترات
 متفاوتة ، وهى ذات فوائد عملية أكثر منها علمية . وأخص بالذكر
 منها : المتحف الحربى ويقوم إلى جانبه قبر القائد العثمانى عبدالرحمن
 عبيدى باشا الذى استشهد عام ١٦٨٦ فى احدى المعارك الحربية ،
 وقد حفر فوق شاهد القبر اسمه والقابه ورتبته فى الجيش بالخط العربى
 الجميل . ومتحف وصف الشعوب ، وفيه فكرة واضحة عن حياة

الشعب المغربي في القرى حيث الأثاث المزخرف والملابس ذات الألوان المفرحة والصناعات اليدوية . ومتحف الشرق الأقصى ، جمع طرائقه فرانسوا هوب خلال سياحاته العديدة حول الكرة الأرضية ، ثم أهداها قبييل وفاته الى الدولة ، والمتحف مكون من قطع برنزيه ، وخزف ، وخشب مدهونة ، وأوان ، وصور ، وصناديق أثرية من الصين واليابان وبلادالشرق الأقصى . ومتحف الفنون الزخرفية ، وهو يمتاز عن غيره من المتاحف المغربية بصبغته القومية البحتة ، فلا يشمل أية تحفة أو طرفة من صناعة أجنبية ، بل كل ما فيه من الأواني الخزفية والقيشاني والفخار وأبقاشة الموشاة بالذهب والمطرزة باليد والكتب المجلدة تجليداً أنيقاً وقطع الأثاث الفنية ، ليس إلا من صنع المجر .

وهناك متاحف خاصة أكثر منها عامة، كمتحف جورج راث رئيس محكمة النقض ببودابست، ويحوى خمسين لوحة زيتية من رسم كبار الفنانين العالميين . ومتحف هواة طوابع البريد وهو مؤسس على طريقة متحف نورمبرج ويشمل مجموعة مكونة من خمسة وأربعين الف طابع . ومتحف الملكة اليصابات . ومتحف الموسيقى . ومتحف النقل . والمتحف الصحى . والمتحف الاجرامى والبولىسي ويشرف على هذه المتاحف جميعاً مجلس أعلى برئاسة وزير المعارف والاديان ، يعاونه مدير دار المحفوظات ومدير المتحف الوطنى . أما المتحف الوطنى الذى قضينا فى زيارته أكثر من أربع ساعات فهو من أغنى متاحف العالم ، ويمتاز عن غيره بأنه مؤسس

بأموال الشعب لا من مال الدولة أو أحد الافراد . أسس عام ١٨٠٢ ويرجع الفضل في تقدمه الى الجهود الفذة التي بذلها الكونت فرنسوا سزخني ، والى اهتمام الشعب ومعاونة الحكومة . فقد صدر قانونان ، أحدهما في عام ١٨٠٧ بفرض ضريبة طفيفة لتأسيس المتحف ، والآخر في عام ١٨٠٨ بفتح ا ككتاب وطني عام لسد نفقات بناء دار المتحف . وهو يتكون الآن من : المكتبة التي تحتفظ بوثائق ومخطوطات ترجع الى عام ١١٠٩ ، ومحفوظات خاصة بمائة وعشرين أسرة من الأسر المجرية القديمة ، وعشر رسائل من عهد الملك ماتياس كورفان ، والنسخة الخطية للمنشور الذي أصدره نابليون بوناپرت الي الشعب المجرى ، وخطاب لوثر الى الدوق جان دى ساكس . وعلى درج المتحف تمثال أسكندر بتوفى الشاعر والكاتب المجرى المترجمة أشعاره الى جميع اللغات الحية ، وقد وقف بصرخ صرخته الأولى في سبيل الحرية حتى اندلع لهيب الثورة في أنحاء البلاد .

وفي قسم الآثار مجموعات كاملة من الأسلحة والفخار التي يعود تاريخها إلى العصر الحجري الأول ، وهى جديرة حقاً بالاعجاب لتناسق أشكالها ، وقد عثر عليها في الكهوف والغاور والمحاجر وفي بعض المناطق على سطح الارض . وتكاد الآثار فى هذا القسم ترشدنا الى أن عصر الانتقال من العهد الحجري الى العهد النحاسى والبرنزى كان عصرأ مزدهراً بفضل سهولة

المواصلات ، وعلى وجود صناعات متجولين كانوا يجوبون أنحاء أوروبا ، ومعهم أدواتهم المعدنية .

ويستخلص من قسم الابحاث التاريخية بمتحف بودابست الوطنى أن حضارة أوروبا الشمالية لم تكن تختلف كثيراً عن حضارة الشعوب الروسية والاسيوية - أى شعوب الرعاة - كما يشهد بذلك وجود حيوانات برية صغيرة - مثل الآيل - مصنوعة من البرنز أو من الذهب . ونلمس بوضوح أثر الحضارة الثينية فى التماثيل الذهبية للأسود ، ونلمس كذلك آثار الشعوب الاسيوية التى غزت المجر ، من وجود أخواص وغصون النخيل ، و آثار الحضارة الاغريقية من وجود مناظر وحوادث مقتبسة عن الأساطير أو منقولة عن التوراة . وهناك فرع خاص بتاريخ الشعب المجرى وحضارته منذ نشأته الى اليوم ، فهو من هذه الناحية يحتفظ بتراث البلاد القومى .

واكثر التحف المحفوظة فى هذا القسم ، قطع فنية دقيقة ، من المعادن الثمينة والمنقوشة نقشاً بديعاً . وبديهي أن هذه الكنوز الغالية نجت من أيدي العابثين ، نظراً لصغر حجمها ، فأصبحت تمثل الحلقات المفقودة بين مختلف العصور التى اندثرت آثارها المشيدة . والى جانب الأواني الكنائسية الفضية والذهبية ، نرى أقمشة موشاة بالذهب ، وهى آية فى فن التطريز ، ذلك الفن الذى ازدهر وتقدم بفضل اهتمام رجال الدين الذين كانوا يتخذون تلك الأقمشة فى حياكة الملابس الكهنوتية .

ويعد متحف بودابست الوطني من أغنى متاحف العالم في مجموعات الحيوان والنبات ، ويرجع ذلك الى موقع بلاد المجر الجغرافي ، ذلك الموقع الذي جعلها تجمع بين مميزات الشعوب الشمالية والغربية والشرقية ، بل والجنوبية ، نظر القربها من البلقان . أضف الى ذلك أنها تجمع في أراضيها عدة صفات متباينة ، فهذه أرض قلوية ، وتلك رملية صحراوية ، والأخرى ملحة بحرية مما يساعد على نمو النباتات والحيوانات المختلفة الأشكال ، كل منها في المناطق الملائمة للطبيعة .

ويشمل قسم الحيوان مجموعات قيمة من الحيوانات الثديية والبرية القديمة كالقروود والفهود والوعول التي اندثرت ولم يبق لها أثر الا في أواسط افريقيا ، وحيوانات صغيرة كالضفادع ، وحيوانات قشرية وصدفية ومجموعات كاملة من الديدان المختلفة الاشكال ، وبعض أنواع الذباب كالقراش الملون والناموس وسائياتها . أما مجموعات بقايا الحيوانات التي يرجع عهدها الى ما قبل التاريخ والتي وجدت في الحفائر ، فيبلغ عدد مفرداتها ١٠٠٠٠٠ أكثرها مهداة من العلماء وهواة البحث والتنقيب . ومكتبة الحيوان من أنفس المكتبات العلمية إذ يبلغ عدد المجلدات المحفوظة فيها ثلاثين الف مجلد ، وهي مرجع مفيد لكل باحث ومطلع .

ويبلغ عدد النباتات المحفوظة في الزجاج بمتحف بودابست الوطني نحو خمس وعشرين الف مجموعة من أندر المفردات وأعظمها قيمة من

الوجهة التاريخية . وبها مكتبه مكونة من خمسة عشر الف مجلد
من علمية وارشادية ، بعضها يرجع الى مئات السنين .

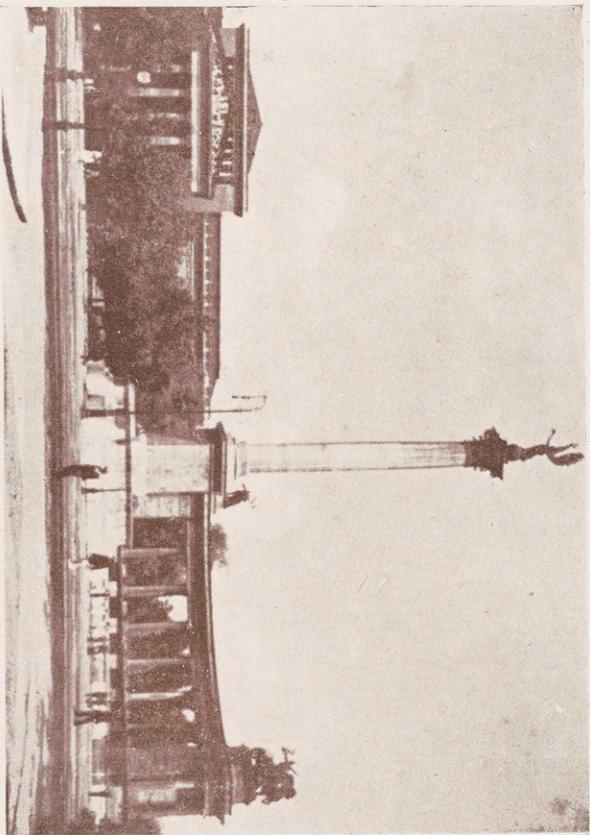
ومن الأماكن التاريخية القديمة التي زرناها بيودابست
البقعة السماة « فزى » ، وهى التى اجتازها الهنجاريون لألف عام
خلت عند دخولهم بلاد المجر . والكنيسة السربية ، وتمثال الثالوث
المقدس وهو تمثال ضخم قائم أمام الكنيسة الكبرى ، ودار
البلدية ، وقد كانت فيما مضى ملجأ للجنود المشوهين والعجزة .
وفى الجامعة بناء أشبه بمقارة منه بكنيسة ، وهى تمتاز بجمال
مقاعدها وأرغنها وهيكلا الرئيسى ، وحوائط مكتبتها المنقوشة
برسوم جميلة ، من صنع فنانيين من القسس اليسوعيين « الجزويت » .
أما « كنيسة التتويج » الكبرى فكانت تجرى فيها مراسم
التتويج للملوك الجدد بعد أن يقسموا فى الهيكل يمين الدستور ،
وأنت تبهر ولاشك بفخامة هذه الكنيسة ودقة نقوشها وهيبه
العمد ، والحنايا التى يلتقى فيها الفن الشرقى بالفن القوطى . على
أنك لا تلبث أن تشعر أنها كانت مسجداً . فكل ما حوذك من
النقوش والآيات القرآنية التى حاولوا طمس معالمها ومكان
مرافق الوضوء وقبلة الصلاة تنادى بأن الكنيسة ظلت زهاء
قرنين مسجداً رسمياً إبان حكم الأتراك .

وفى كنيسة التتويج تمثال بديع الصنع للسيدة العذراء ، وهى
تحمل السيد المسيح ، فلما دخل الأتراك بوادبست خشى رجال

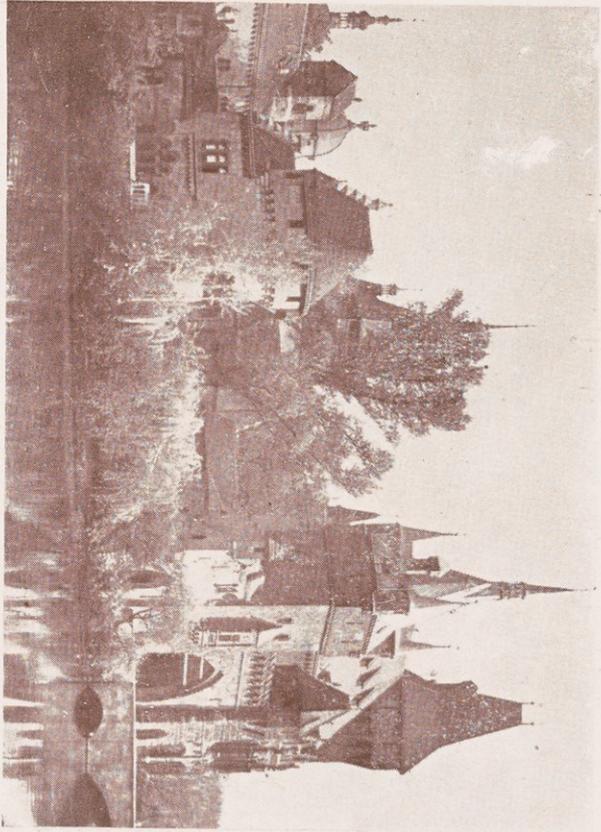
الكنيسة أن يحطموا التمثال فأودعوه إحدى الزوايا وأقاموا على
الحجاب جداراً يحجبه عن الأنظار ، حتى اذا نزع الأتراك عن
المجر وعادت الكنيسة سيرتها الأولى هدموا الجدار وظهر التمثال
سليماً كما حفظ منذ مائتي سنة .

وقص علينا الدليل قصة لا بأس من ايرادها ، فمن المراسيم التي
كانت متبعة أنه عقب حفلة التتويج يغادر الملك الجديد الكنيسة
فوق صهوة جواده ويسير صوب تل صناعى يجلب ترابه من
أراضى جميع المقاطعات المجرية . ويرتدى الملك فى هذه الحفلة
مسوح القديس استيفن ، وهذه المسوح يرجع تاريخها إلى ألف
عام ، ويضع تاجه على رأسه وفى يده حسامه ، فاذا صعد بجواده
الى التل انتضى سلاحه ليطن به فى الفضاء الجهات الأربع ،
مشيراً بذلك الى أنه يدفع الاعداء يسيفه اذا ما حاولوا مهاجمة البلاد
من جهاتها الأربع . ومن الغريب أن الملك شارل آخر ملوك
المجر ، الملقب بالأحمق ، اعتلى صهوة جواده بعد مراسيم حفلة
التتويج قاصداً صوب التل ، فحدث أن ارتجف الحصان من دوى
هتاف الشعب . وكان التاج ثقيلاً متسهماً على رأس الملك الصغير
فاهتر مرات ، وكاد يقع من جراء رجفة الجواد . وتشاءم الشعب
من هذه الحادثة ، وعدوها نذير سوء . فكان شارل آخر ملك
تولى حكم المجر ، الى أن مات منفياً عقب الحرب العظمى فى مادير
بأسبانيا .

ويواجه كنيسة التتويج نصب تذكاري ضخيم لسان استيفن ،
وهو أول ملك من أسرة أربادا الحاكمة اعتنق المسيحية، وأكره
الشعب على قبولها ، حتى قامت حروب بينه وبين الشعب انتهت
بانتصاره ، وهم يروون عنه قصصاً عجيبة . وينسبون إليه من
الكرامات ما ينسب عادة للأولياء والقديسين .



النصب التذكارى لمروء الف عام التأسيس للدولة الجزائرية

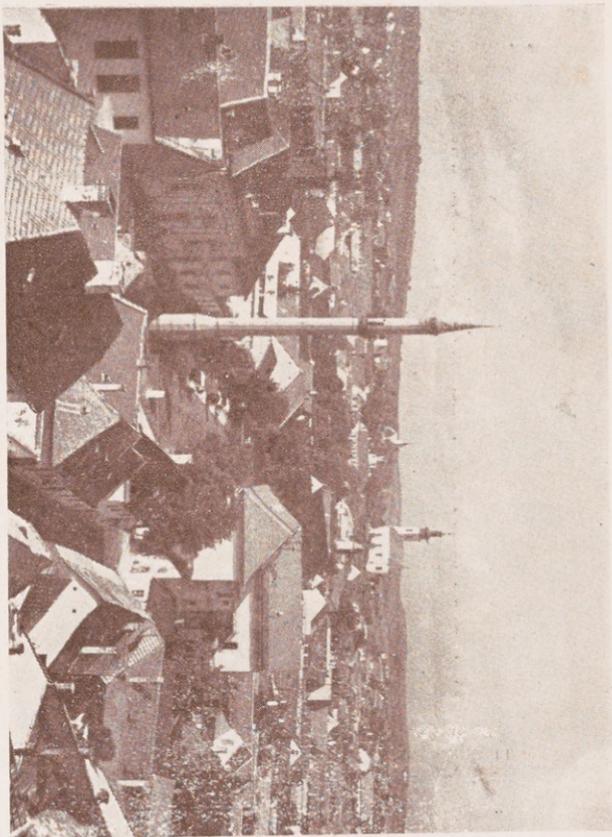


دار المتحف الزراعي



فلاحة مجرية في ملابسها الوطنية

مأذنة في مدينة إاجر



ملكة الدانوب

لبودابست في الليل طابع خاص جذاب يشيع في جوها
عذوبة كلها شباب متجدد وأمل ضاحك ، ويهيج في سمائها
ما تنطوي عليه من سحر وجمال تسكبه في نفوسنا . هذا الطابع
يتمثل عادة في ملاهى سانت مرجريت وفي الجبال الصغيرة التي
يرتاها أهل بودابست للزهة ، وفي المطاعم المكتظة بموسيقى
النور والمقاهى المتناثرة على ضفتى الدانوب ، مما يجعلها من المناظر
الخيالية الساحرة التي لا تمحى من الذاكرة . فإسائح الذى يصلها
ليلاً ، يشهد منظرأً خلاباً ، هى سلسلة قمم من الأنوار المتلائة
التي تبهر اللب والفؤاد . فمن مشهد القصر الملوكى الغارق بين الحدائق
الفناء والأزهار المتضوعة بالشذى ، الى القلعة وهى تريق أنوارها
على ما يحوطها من التلال ، الى أبراج الفنادق والقصور وقد
انتظمت كعقود ساطعة من الضوء ، الى مشهد ألوف النجوم
اللامعة التي ترقص ظلالتها على صفحة الدانوب .

هذا الدانوب لا يكفيه أن يغمر بودابست بسحره وأنواره ،
وبالزوارق مخطرة على صفحته ، وبالأمواج تهادى في طائفة وليونة ،
بل تراه يعطيها فلذة كبده « سانت مرجريت » . فهى جزيرة

صغيرة لو تركزت وشأنها لما كانت لها أهمية تذكر ، ولكن تهافت القوم على تجميلها وحرصهم على أن تكون مصدر وحي وإلهام للعشاق والشعراء والفنانين ، وطلاب المسرات ، جعلها بمثابة القلب الذى يوزع ألوان الحياة ويجمع أساليب المتاع بأسباب الصحة والعافية . بل أنها مقام الرئة من القلب إذا ما بدأت بودابست تتنفس من كد النهار وأوصابه لتستقبل حياة الليل المرحة الطروب . تقع سانت مرجريت بين بودا وبست . وكانت تعرف قبلا باسم « جزيرة الأرائب » فلما شبت الحروب الصليبية اتخذتها البرنيسيس مرجريت ابنة بيلا الرابع مأوى للتنسك والعبادة ، وشيدت بها ديرا لا تزال أطلاله قائمة . ثم انقطعت فى داخل الدير للتقشف زهاء عشرين عاماً حتى أضحت رمزاً للتطويب . وظلت الجزيرة من أملاك أسرة هابسبورج الخاصة الى أن ابتاعها بلدية بودابست من الأباطور فرنسوا جوزيف لاستغلال بناييعها الكبرى . وهى تشمل اليوم أمكنة متنوعة للرياضة والتنس والبولو والسباحة وسباق الزوارق وصيد الحمام ، وتقوم فى أطرافها مصحة وفندق ومرقص ، وبها - فى الوقت نفسه - جنة للأطفال . فالمرضى يستفيدون من مياهها الطبيعية ، والأصحاء ينعمون بمسرات الحياة فى مطاعمها وملاعبها .

وقد أصبحت « سانت مرجريت » بحق « لؤلؤة الدانوب » وكعبة يؤمها العشاق ، حيث تظل أبوابها مفتوحة طول الليل ، فيصلون مساءهم بصباحهم فوق الحشيش الأخضر وفى داخل

«الحائل ، وعلى المقاعد الخشبية الطويلة المختفية تحت الأشجار
الباسقة . والواقع أن «سانت مرجريت» هي المكان المختار لخلوة
المحبين ، فان القمر الذى يرسل أشعته الوضاءة على ما فى الجزيرة
من أطلال قديمة وزهور مكتملة النماء ، يحنق أحياناً عن عمد
وراء السحب ، حتى لا يعكر صفو أحلام الشباب .

على انك تلتمس هذه الحياة الليلية المتفجرة بينابيع كلها
استمتاع بالمسرات وانهماك فى المذات ، فى غير الدانوب وسانت
مرجريت . فهناك المراقص ودور العزف وأندية السباحة والحمامات
الشرقية المشيدة منذ عهد الأتراك ، المنقوش على أبوابها فى
صرحة : « تدخل هنا شيخاً وتخرج شاباً ! »

هذه الحمامات تعد بالعشرات ، وهى جميعاً مجهزة بالمياه
والينابيع الكبريتية . كحمام «جليريت» القائم بالقرب من جسر
فرانسوا جوزيف ، فهو طرفة من عجائب بودابست . يقع على ضفة
الدانوب ، فى سفح تل يتفجر منه ثلاثة عشر ينبوعاً حاملة بأملاح
الجير والكربون والكبريت ومواد فعالة للبرء من شتى العلل
والأمراض .

وجليريت أيضاً اسم لفندق شهير ، كانت عمارته فى الأصل
كستراية تعرف « بسان متيوس » ولا يزال فى مدخل البناء
تمثال ضخيم للمبشر جليريت حامى المدينة ، وعلى الجدر أثر الصليبان
والنقوش الدينية ، وقد حدث أن حولت الكنيسة إلى مسجد فالى
فندق يتحدثون الآن عن مظاهر الترف واختلاف أسباب اللهو

فيه ، بعد أن كانوا يستجدون على أبوابه أسرار الصالحين
والقدسين !

على أن جمال الفندق وهيبته عمارته ، وما يبعثه في النفس من
شعور كله غبطة وتفاؤل باستكمال الصحة والعافية ، لا يعد شيئاً
إلى جانب الحديقة العظيمة الملحقة به ، وحوض السباحة الذي
يزينها ، وما تشتمل عليه هذه الحديقة من ورود وأصص أزهار
صفت بينها أرائك ومقاعد وناפורات ، وجو يمزج فيه أريج
الزهر بعبير أنفاس العاشقين .

وحوض السباحة الذي يتوسط الحديقة منسق على طراز
الليدو بباريس ، بل قد يمتاز عنه بالأموج الصناعية ، وهو مصنوع
من الرخام الناصع ، والمياه تتدفق إليه من فئ تماثيل كبرى
الحجم بهيئة وحوش ضارية . وبجمال الحوض عندما يضاء بالأنوار
الكهربائية ! هنالك تلقيه وقد امتلأ على سعته بالحوار والولدان
فكأنهم أتباع نوح ، همتم بهم الفلك واحتواهم الماء !

وحول أفاريز الحوض موائد أعدت لتناول الشاي أو العشاء
على نغمات الموسيقى ! جلس إليها بعض الرجال وقد انتحوا مكاناً
لبنائهم اللواتي كن يسبحن في ضوء النجوم . أية فتنة وأى بهر
وذهور ! ماهاته الحور يسبحن تحت خمار القمر المفضض ، وقد
شعت من جوانب « البسين » أنوار الكهرباء ممتزجة باضواء القمر
والنجوم ، فبدت أجسامهن البضة كالزئبق الجراج في كف
السيكيمي الماهر ، وظهرت صفحة الماء كالزجاجة تتراءى فيها الجسموم

كما تتراعي دمي الشمع عارية، يوشك المثال أن يفرغ من صقلها !
وقد اتفق في فترة زيارتنا لبودابست ، ان جرت طقوس العيد
القومي للقديس استيفان ، فالمتاجر والحوانيت مغلقة بعد أن أبتقت
واجباتها الزجاجية مكشوفة لتطالع الناس بأحدث الاذواق
والمبتكرات . والشوارع غاصّة بالقرويات اللواتى يعرضن
ملابسهن المزركشة بالألوان الزاهية ، المطرزة بالحريز الموشى
بمختلف الألوان .

ولا غرو إذا ذكرت ان المجر تشهد في أسبوع القديس
استيفان مظاهر بالغة من سمو أى مبلغ . فبودابست كلها تحتفل
في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس بأقامة الذكري السنوية
للملك الهنجاى الأول الذى دفع شعبه الى اعتناق المسيحية ،
وحوله من طبيعته الشرقية الى خدمة الحضارة الغربية . وفي هذا
العيد تجتمع عظمة الشرق وأبهته إلى بهجة الغرب وفتنته بحيث
تندمج الحقائق انما جاكليا فى عالم كله أحلام . ويبدو موسم
القديس استيفان فى أجلى مظاهره فى اليوم العشرين من أغسطس
فيخرج الموكب الدينى الباهر من الكنيسة الكبرى يحفه الجلال
والوقار . ويسير فيه نخبة المجريين ، مظهرين نبل شعورهم نحو الملك
القديس ، متبركين بالآثر المقدس الذى خلفه ، وهو جزء محنط
من يده، مودع فى وعاء زجاجى ، مزخرف بالنقوش الذهبية :
وهذا الوعاء يحفظ عادة فى المعبد الصغير القائم فى ساحة القصر
الملكى ، ويتولى حراسته فريق من الأشراف ، فلا يخرج من موضعه

إلا في هذا العيد المقدس حيث يطوفون به نواحي بودابست .
وتجرى حفلات القديس استيفان طول اليوم . ففي الصباح
يسير الموكب الرسمي يتقدمه نائب الملك والرؤساء الروحانيون
ورجال العسكرية والأعيان بملابسهن المرصعة بالجواهر الكريمة
وجمع القرويين في ثيابهم القومية الملونة . على حين تعزف
الموسيقى في الحدائق العامة والميادين . وتبدأ الحفلات الرياضية
بعد الظهر فيتبارون في السباحة والفروسية وسباق الجياد لاجراز
كأس الملك .

أما في الليل ، فترى المواكب الزاخرة في الدانوب ، حيث
القوارب مزينة بأبدع الأزهار ، وسرعان ما تتحول صفحات
النهر إلى ميدان رجب لسباق الزوارق . ويهرع القوم إلى الضواحي
كجدولو وفيزجراد واسترجوم لينسوا أنفسهم بين الهو والمسرات
ويعتصروا أبصارهم بجمال الطبيعة .

ومن مظاهر موسم القديس استيفان أيضاً تقاطر القرويين
على الأنجول برك ، وهي بقعة مكتظة بالمسارح الشعبية واللونا برك
والأسواق التي تعرض المصنوعات اليدوية والمأكولات ، وموسيقى
النور . وتقام لهؤلاء القرويين حفلة أنيقة بمحديقة فاروس حيث
تطلق الألعاب النارية في الهواء ، وتجرى مسابقة استعراض لللازياء
القروية ، تعرف باسم « الباقة اللؤلؤية » ، وهي عبارة عن حزمة
من الأزهار الزكية تجمع من براري هنغاريا لتمنح إلى الفائز
الأول .

وللعيد جانب يمثل الثقافة العامة للشعب في سوق كبيرة تقام
للكتب والمطبوعات ، فتعرض فيها ثمار القرائح ، ومبلغ ماوصل
اليه فن الطباعة من الأناقة والاتقان .

كانت السوق غاصة بمئات الادباء والقراء وهواة جميع
الامضاءات ، وكان بها نحو مائتي خيمة ، عرضت في كل منها أشهر
المؤلفات القديمة والحديثة ، كمنسخة من الطبعة الأولى لكتاب
« مأساة إنسان » تأليف الشاعر إمر ماداش ، وهى التى أهم مؤلفها
بانه اقتبسها عن المأساة الالمانية «فاوست» لجيته . وعرضت كذلك
طباعات أنيقة لطائفة من كتاب الادب الحديث ، كامريك باركس
والكتاب الترانسلقانى زيكلى مؤلف روايتى « حياة كلب »
و «الثلاثاء» . ومجموعة خطية من أشعار يتوفر . ومؤلفات جولان
بيكار صاحب « الأشرطة الدامية » والشاعرة أوجين هلتاي .

...

أما الناحية التى أثارته فىنا عاطفة الاعجاب فى الحياة الليلية
بيودابست ، فهى رقى أنواع الموسيقى المجرية . فليس من شك فى
أن تقدمها عظيم فى هذه البلاد ، وبالأخص موسيقى الآلات
الوترية والغناء الشعبى . فالموسيقى الشعبية محصورة تقريباً فى
قبائل النور المتجولة ، المكونة من عازفين ومغنين . والمعروف
عن النور أنهم شعب موهوب من حيث الفن الموسيقى بحكم
حبه للحرية وميله للحركة والتجول . وهذا ماجعل النور
أمناء على الموسيقى المجرية ، محافظين على تقاليدها . بل إنهم

أضافوا الأناغم الحديثة الى الموسيقى القديمة ونبغوا في عزفها
بآلاتهم الخاصة كالقانون ذى الخمسة الأوتار والكلارينيت
والطبلبة الصغيرة والكان . وما من مطعم راق في بودابست إلا
ألفيته غاصاً بالموسيقين النور ، يعزفون على طريقتهم لتسليمة
الجمهور .

وهناك مسارح عدة قضينا بها أوقاتاً سعيدة ، وإن كنا لم
نفقه لغة التمثيل . كمسرح الحصن ومسرح الروندلا ، وهما أقدم
المسارح ببودابست . وتمثل فيهما أحياناً فرق متجولة قوامها
الأوبرا الألمانية والايطالية . أما المسرح الوطني فتقام فيه عادة
حفلات موسيقية باهرة ، وتعزف فيه مقطوعات عالمية لبيتهوفن
وموزار وبوتشيني وفردى ، ومقطوعات لمؤلفين موسيقيين
مجريين أمثال بارتى وتورن ودوبلر .

...

لم يكن فى برنامج إقامتنا ببودابست أن نزر الريف المجرى
لأننا لا نحيط بلغة أهله ، على انه بعد انتهاء حفلات القديس
استيفان هدأت الحركة فى بودابست ، وشملها ركود أدى الى
نفسى الملل فى نفوسنا . فأشار علينا صديق عرفناه فى الفندق
بأن نقصد إلى بحيرة بلاتون إذ أنها جنة الألوف فى فصل
الصيف ، حيث الرمل الحار ، والماء المشبع بمادة الراديوم ، والمياه
المتفجرة من الصخور البركانية ، والنسيم العليل الذى يهب فى المساء ،
فتنبعث من همسه وسكونه فوق زبد البحيرة ، أطياف الماضى

الجميل المفعم بنشوة الأحلام وحلاوة الذكريات .
 وبحيرة بلاتون - أو البحر المجرى - تبعد عن بودابست
 نحو ساعتين بالسكة الحديد أو بالسيارة ، في طريق تحفه المزارع
 النظرة والأراضي الخصبة . وهي ذات مساحة واسعة ، تمتد
 شواطئها الى تسعين كيلو متراً ، وبها مرسى بديع للسفن
 وللزوارق . وإذا كنا نقرب من البحيرة لاحت لنا القرى
 وأمكنة الاصطياف منتشرة هنا وهناك على الشواطئ ، وفي
 سفوح التلؤلؤل .

إن قمم الجبال الجرداء أو المكسوة بالثلج الأبيض ، قد
 تكون متشابهة في جميع البلاد ، فليس فيها أى طابع إقليمى .
 أما البحيرات فتختلف عنها اختلافاً بيناً ، إذ أنها تعكس نور
 السماء على سطحها . وتلك السموات تختلف أيضاً باختلاف
 الأجواء ، فالفرق بين بعض البحيرات الرومانية التي قضينا بها
 أوقاتاً هنيئة وبين بلاتون : أن سطح البحيرة في رومانيا منوع
 الألوان ، هادىء الأمواج . أما في بلاتون ، فتري الرمل الناعم
 كأنه المخمل ، مما يذكركنا بشواطئ الاسكندرية . والقمم الصخرية
 التي بقيت من العصر البركاني متناثرة على الشواطئ وقد قامت في
 سفحها الأغراس . وتلمح في سطح البحيرة تلك اللوحة الفنية
 المعبرة عما يجيش بالنفس من ولع بكل صنوف الجمال ، يحوطها
 إطار جذاب من الشجيرات وألوان الشفق .

في بلاتون ترى العائلات المجرية ، والشباب المفعم حيوية ،

يقضون الساعات الطوال على الشاطئ ، والسياح الذين يهون
الرياضة وسباق الزوارق . وترى الفيلات الأنيقة والبيوت الريفية
المشيقة سقوفها من القرميد الأحمر ، وسلسلة من الفنادق
والبنسيونات والمصحات والغرف المعدة للإيجار ، وشبه الجزيرة
التي يرتادها المصطافون للتنزه .

وسيزل اسم بلاتون مقترناً في عالم الأدب والفن بأسماء
عشرات من الكتاب والفنانين ، فعلى الرغم من أنها مثار وحي
والهام لريش كثير من الرسامين الذين رسموها ساعة غروب
الشمس في أيام الصيف الجميلة ، أو في أوقات غضب الطبيعة وهبوب
العاصفة . فقد أتاها موريس جوكاي القصصي النابه ، ومن قبله
المغنية العالمية لويز بلاها حين كانا يقيمان « بيلاتون فورت »
حيث لقيا فيها الشفاء . وعلى سواحلها استراح الشاعر البنغالي
رابندرانات تاجور بعد التعب الذي حل به في خلال سياحاته
العديدة بأوروبا ، حتى لقد بلغ من نشوة رضاه أن خصها
بقصائد طريفة من شعره .

إلى جانب بلاتون تقوم كنيسة تيهاني المشيدة لثمانية قرون
خلت ، تتحدث بافتخار عن عصور المدينة القديمة حين كان العلم
وقفاً على رجال الدين ، وكانت التقاليد الوراثية النبيلة وال عاطفة
القومية المشبوبة مما اختص العلماء والرهبان بغرس بدورها في
الشبية .

والواقع أن بلاتون ليست مجرد مركز للاصطياف وجنة

للأطفال ومحطة للأحياء المائية ، بل هى فوق ذلك بقعة بديعة
 لكل من يهوى الطعام الأنيق ، فان أنواع الأسماك فيها
 تنافس أعظم أسماك العالم . وبالأخص إذا مزجت بالنبيد المجرى
 المستخرج من الكروم والأعشاب التى تنمو على ضفاف البحيرة ،
 فان المثل اللاتينى يقول : « إن السمك المستخرج من الماء
 والمطبوخ فى الماء لا يتحمل الماء مرة ثالثة » !

...

وعبرنا بلاتون ذات صباح فى زورق بخارى إلى الضفة
 الأخرى حيث تقوم « شيوفك » وبضع قرى مجرية ، هى
 مصايف أشرفت الطبيعة على تكوينها وعمل الانسان على
 تهذيبها وتجميلها .

فى المجر دون سائر بلاد أوربا قد أدى هذا الاشتراك بين
 الطبيعة والانسان الى نتائج جديرة بالاعجاب . إذ على الرغم
 من ضيق مساحة المجر ، نرى فيها المناظر منوعة متباينة ، فهذه
 المصايف تمتاز بموقعها فى الجبال ، وتلك بالقرب من الغابات ،
 وهناك سهول خضراء ، نسقت بينها الطرق المعبدة المرصوفة .
 وتمتاز منطقة السهول بمبانيها المشيدة بالآجر ، المحفف
 فى الشمس والهواء . وأبوابها مقوسة مدهونة بالجير . كذلك
 الجدر ، فعليها طبقة جيرية ناصعة البياض . أما السقوف فهى
 مشيدة من الغاب بطريقة هندسية تثير حرد الاعجاب ، ولا

غرو فقد صقلت السنون والأجيال مقدره القوم ومهارتهم في
تشبيد منازلهم .

بيد أن المناظر على الضفة الأخرى من الدانوب تختلف
اختلافاً بيناً ، فالمنازل مشيدة بالحجر . أما الاصطبلات وحظائر
المواشى وتكاعيب العنب فتذكرنا بالفن المعمارى الرومانى .
كذلك نقوش الحوائط الداخلية تذكرنا بالمقابر الفرعونية ،
إذ تراها مزينة بالألوان الزاهية والرسوم الناطقة بجمال الفن ،
التي تمثل الزهور والحيوانات على اختلاف أنواعها .

في غير بلاتون وشيوفك أتيسح لنا القيام برحلة قصيرة
بالسيارات الى بعض المدن والقرى المجرية ، حيث التراث الشرقى
ماثل بين الاطلال والمتاحف . ففي « إجر » التي تعد أجمل المدن
المجرية ، شاهدنا بقايا مسجدها الكبير القائم بجوار المستشفى
الخيرى ، ولم تبق منه سوى المئذنة البالغ ارتفاعها نحو أربعين متراً ،
كذلك تفقدنا آثار سوقها الشرقية القديمة حيث كان يباع
النحاس والحلى والسجاجيد والمشربيات المجلوبة من مصر والشام .
وفي مدينة استرجوم الكائنة على ضفة الدانوب اليمنى ، زرنا
القصر البطريقى والكاتدرائية الملحقة به ، وهذه الكاتدرائية
من الطراز الامبراطورى تعلوها قبة مرتفعة ينعكس خيالها في
الماء إذا آذنت الشمس بالمغيب . أما القصر فيحوى متحفاً تاريخياً
للمسيحية في بلاد المجر ، جمع طرفه المطارنة والبطارقة في مختلف
العصور . وأهم ما فيه الأقمشة المعروفة باسم « الجوبلان »

والأبسطة الشرقية المزركشة والرسوم الزيتية والأواني الذهبية والصناديق الخزفية الصغيرة وروائع فن النهضة ، وبديهي أن جميع هذه التحف والطرف كنسية بجمته ، فهناك مثلاً مصطلي من الخزف رسمت عليه مناظر مأخوذة من التوراة . وفي مكتبة القصر مائة وعشرون الف مجلد ونيّف ، أهمها إنجيل من القرن الحادى عشر ، ونسخة خطية من ترجمة التوراة الى اللغة المجرية يرجع عهدها إلى القرن السادس عشر ، وترجمة أخرى من القرآن الكريم لقسيس يدعى شارل ماير طبعت ببودابست فى القرن الثامن عشر .

وتمتاز مدينة بيكس بمنابرها الأثرية ومدافنها القديمة التى تعود الى القرن الرابع ، وهى مزينة برسوم أثرت فيها الرطوبة ولكن علماء الآثار استطاعوا اصلاحها ومعالجتها بطريقة فنية جعلتها فى مأمن من التأثيرات الجوية . وفى المدينة عدة كنائس بنيت مكان جوامع ، وبعضها كانت جوامع وحوّلت الى كنائس ، ككنيسة القديس يوحنا التى لاتزال بها مؤذنة ارتفاعها نحو سبعة وعشرين متراً ، وكنيسة الثالوث المقدس .

أما كاتدرائية بيكس فهى من أجمل كنائس أوروبا ، شيدت على الطراز « الرومانى - الايطالى » ، وهى تشبه من وجوه عدة الكاتدرائيات القديمة التى يرجع عهدها الى أوائل عصر المسيحية ، وقد نقشت على حوائطها مناظر فنية دقيقة منقولة من الكتاب المقدس .

على أن أروع ماشهدناه في تلك المدن والقرى المجرية ، هي الأقمشة المطرزة ، والخزف الشرقي ، والأشغال اليدوية المنزلية ، والدمى الخشبية الصغيرة بهيئة حيوانات برية أو زهور ، ومصنوعات خشبية أخرى جل جمالها عن الوصف ، كالآباريق وأواني العطر ومقابض هراوة الراعي ، كذلك الملابس المزركشة بالفضة والذهب التي يرتديها الفلاحون في أيام الآحاد والمواسم وحفلات الزواج ، حتى لقد استقبلنا بباب إحدى القرى سرب من هؤلاء القرويات ، تتدلى على سوقهن الثياب الموشاة بالحرير الملون ، وفهمنا أنهم يقصدون دائماً إلى المحطات في مواعيد وصول القطارات كأعلان ناطق عن الفن في القرى المجرية .

ولا ريب أن المطرز وحائك الملابس يشغلان مركزاً ممتازاً بين أهل القرى الذين أودعوا بين أيديهما فناً جميلاً ، هو تراث الشعب المجرى وفخر أجداده . ولقد استطاع هذا الشعب النبيل أن يخلق من حياة الريف وحدة متناسقة ، وأن يحتفظ بالروح الشرقية القديمة . وعلى الرغم من غزو الأتراك والنمساويين وتدفق سيل الحضارة الغربية على هذه البلاد ، فقد ظل المجرى محافظاً على طباعه الشرقية متعصباً لقوميته ، ولم يتأثر مطلقاً باللاتينية أو الجرمانية أو السلافية التي حاولت أن تطغى على لغته وفنه وموسيقاه .

ففي خلال فترة قصيرة قضيتها متنقلاً بين الريف المجرى الجميل ، استطعت أن أكون فكرة واضحة عن الروح الشرقي

المتأصل في نفوس أهله ، فهو مائل في إكرام الضيف ، وفي الايمان بالقضاء والقدر ، وفي التعلق بالأرض التي يدعونها « أمنا الرؤوم » ، ويعتبرونها رمزاً للثروة القومية ، ويسمون القمح « حياة » . أما الجواد والثور فليسوا من الحيوانات المفيدة للزراعة فحسب ، بل هما بمثابة أفراد في العائلة ، يقدهما المجرى ، ويحملهما في قلبه ، نفس المنزلة التي يحملها الفلاح المصرى لمواشيه .

لقد حدث منذ ألف سنة أن نزحت قبيلة أسيوية صغيرة ، من أعلى جبال طوران ونزلت في البقعة المعروفة اليوم باسم المجر . وتقول الأساطير إن فارسين أحدهما يدعى مجر والآخر هنور اختطفا فتاتين جميلتين وذهبا بهما بعيداً عن أهلهما . ولما ضل الطريق استرشدا بوعل أبيض فقادهما الى بلاد نائية أقاما فيها حتى كونا شعباً كبيراً هو الشعب المجرى .

ولما كان الشعب المجرى شعباً زراعياً يحسن الصيد وركوب الخيل ، فقد اختار لنفسه أصلح بقعة تحقق أغراضه ، وهى السكائنة بين الدانوب والتترا ، مفضلين إياها على شواطئ الرين الجميلة ، وعلى جبال الألب ذات القمم الجليدية .

جاهد الشعب المجرى ، وبذل الدماء رخيصة في سبيل الاحتفاظ بتلك الأرض الخصبة ، وبفضل مقدره المجرىين على البقاء ، ورغبتهم في تأسيس دولة مستقلة يعيشون فيها دون

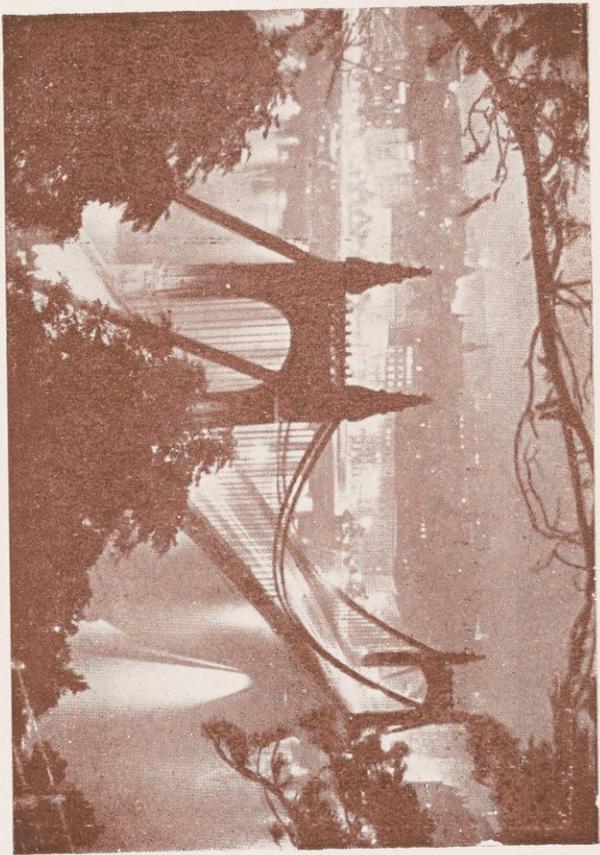
سواهم . ظلت القومية المجرية وحدة مستقلة ، رغم الحروب
والمهاجرات .

فالمجرى يحب وطنه وقوميته ، ويغار على تقاليد الموروثة .
لكنه بازاء ذلك لا يتردد عن التطبع بطابع المدنية الحديثة ،
بشرط عدم المساس بأخلاق البلاد وعاداتها . وقد عبر السياسي
المجرى العظيم ، الكونت أبونى ، عن تلك الفكرة بقوله :
« إن الحضارة المجرية ثابتة لا تتغير . فهي الحضارة الأوروبية
ممزجة بالروح الشرقية ! » .



الدكتور عبد الكريم جرمانوس
رسول الاسلام في أوروبا

بودابست في الليل



الاسلام في بلاد المجر

أثارت زيارتي لضريح « جول بابا » ببودابست خواطر
وذكريات مختلفة تدور حول مجد الاسلام وعظمة الدولة العثمانية
التي غزت قلب أوروبا حتى وصلت الى أسوار فيينا .
فان أهم مايجلب أنظار المسلمين في بودابست أنها المدينة الوحيدة
التي استطاعت الاحتفاظ في قلب أوروبا بضريح ولى مسلم هو
« جول بابا » . وعلى الرغم من أن نصرانية القرون الوسطى
محت كل أثر للمسلمين في أوروبا بعد نزوح الأتراك عنها، فحوت
المساجد الى كنائس والتكايا الى مستشفيات والقصور الى فنادق
أو مسارح ، فانهم لم يستطيعوا أن يمسوا بضريح « جول بابا »
بسوء ، وهذا يرجع الى الاعتقاد السائد في النفوس وهو أن
الرجل كان تقياً صالحاً كالقديسين .

يقع هذا الضريح في ناحية « بودا » في سفح التل المسمى
« تل الورد » ، وهو يشرف على نهر الدانوب ، وفوق القبر قبة
مرتفعة مشيدة على طراز القباب التركية ، وفي داخل الضريح صفة
« ليوان » مقروش بالسجاجيد الوثيرة تجتمع عنده « جمعية جول
بابا الاسلامية » في الحفلة السنوية التي تقيمها إحياء لذكراه ،

ومنذ عشرين عاماً اعترفت الحكومة المجرية بالضريح رسمياً
وقررت ضمه إلى عادات الدولة وخصصت مبلغاً من المال للاتفاق
على صيانتته سنوياً .

كان جول بابا — ومعناه في الفارسية «زر الورد» — شيخاً
للطريقة البكتاشية، وهي طريقة صوفية كان لها أرفع مقام في الدولة
العلية، لأن مؤسسها حاج بكتاش الكبير هو الذي بارك الجيش
العثماني الفاتح قبل دخوله القسطنطينية، فتم للجيش الظفر والنصر .
وظل للبكتاشية بعد ذلك شرف تطويق كل سلطان جديد بسيف
السلطان عثمان، ومباركة الجيوش العثمانية قبل توجهها إلى حروبها،
وقد حدث أن كان «جول بابا» يشيع السلطان سليمان القانوني
في غزواته التاريخية المشهورة وكانت عقيدة السلطان بالنسبة له
قوية، فطلب إليه مرافقته على سبيل التبرك، ومن توفيق الله أن
النصر كان حليف الجيش العثماني في كل موقعة غزاها بلاد
البلقان، حتى وصل الجيش إلى حدود المجر، ثم اقتحمها واستولى على
عاصمتها .

وبعد دخول العثمانيين إلى بودابست بأسابيع قلائل كان
«جول بابا» يصلي بالمسلمين الجمعة في كنيسة ماتياس التي
حولها الجيش الفاتح إلى مسجد رسمي، وكان السلطان سليمان
القانوني في جملة المصلين، وفي خلال الصلاة وقع «جول بابا»
مغشياً عليه وفاضت روحه لساعته . فبكاه السلطان وبلغ من
تقديره لشخصه أن حمل النعش على كتفه، ثم أمر بأن يبني له

ضريح عظيم في أجل بقعة ببودابست ، فشيده الضريح في سفح
 تل كان مغروساً بالورد ، وظل مكاناً مقدساً يؤمه مسلمو أوروبا
 للزيارة والتبرك دون أن يبحثوا عن حقيقته . ويخيل الى أن
 الأتراك لم يكونوا ينفرقوا في هذا العصر بين الأولياء والدرائش ،
 على أنه مما يمكن عقيدة المسلمين في « جول بابا » ان الحظ خذل
 الجبش العثماني الفاتح بعد موته فارتد عن أسوار فيينا . وكان
 انكساره في هذه الموقعة بدء تقلص ظل آل عثمان عن أوروبا الوسطى .

...

لعب الاسلام دوراً هاماً في تاريخ المجر . فالمسلمون هم الذين
 افتتحوا طريق التجارة بين أوروبا والشرق ، واحتكروا تجارة
 الأسلحة والحبوب والأغنام والأقمشة والحلى بين إفراس وتركيا
 ومصر وبين أوروبا ، حتى إنه من المشاهد في القرى المجرية أن الزينة
 والنقش وتطريز الملابس فارسية الأصل . كذلك كانوا
 أول من حمل الى أوروبا القهوة ، وشيدوا الحمامات ، وقد ساعدهم
 على ذلك وجود ينابيع كبريتية في بودا ، أقيمت فوقها حمامات
 على طراز عربي بقباب وأهلة نحاسية ، وكانت هذه الحمامات في
 الماضي تحتل المكانة التي تشغلها كرلسباد وفيشي في العصر
 الحديث . ولا ننسى ان المسلمين احتكروا جباية الضرائب في
 بلاد المجر ، فكانت الجالية الاسلامية هي الملتزمة تحصيل
 الضرائب ، بل إنها أقرضت الحكومة مبالغ طائلة في مقابل أن
 تحتكر سك النقود ، وبذا استطاع المسلمون تأسيس دور

لضرب المسكوكات . ومن سخرية القدر أنه لما قاد ملك المجر جيشه في الحروب الصليبية متجها شطرسوريا الاسلامية ، كانت النقود التي يتعامل بها الجيش منقوشاً عليها « لا اله الا الله » .

تعود الروابط بين المسلمين والهنجاريين الى انهما في الأصل شعب واحد شب حيناً بين جبال أورال وحيناً على ضفاف بحر قزوين وبلاد القوقاز . ثم امتزجا بالأثر كزهاء خمسة قرون حتى تلقوا عنهم الزراعة والفنون الحربية ، وعلق باللغة المجرية مئات من الكلمات التركية ، وتوثقت بين الشعبين صلات رحم وقربى . فكانت النتيجة أن تولد جيل جديد وشعب متأثر بالثقافة الطورانية .

وفي نهاية القرن الثامن للميلاد شدت هذه القبائل المجرية الممتزجة رحالها واتجهت شطر الغرب حيث أقامت نحو قرن في جنوب روسيا المعروف باسم أوكرانيا . وفي هذه المنطقة هاجمتهم قبائل المجنق وهزمتهم فانشطروا شطرين ، الأول وهو الأكبر اتجه صوب الغرب ، حيث استقر في جبال الكربات . أما الشطر الأصغر فعاد الى الشرق وقد اقتنت آثاره بعض البعثات في خلال أجيال عدة للوقوف على نسله ولكنها لم تعثر على شيء .

أما الشعب المجرى الحديث فقد وصل في عام ٨٩٦ من جبال الكربات الى بانونيا وهي المعروفة اليوم ببلاد المجر ، وهذا الشعب الجديد الذي هو في الواقع نتيجة تمازج بين المجرين

الأصليين وبين السلافيين الذين كانوا يقطنون بانونيا قبلهم ،
 شن الغارة على الأراضى المجاورة له بقصد نهبها والاستيلاء عليها
 حتى بلغ في غاراته حدود المانيا .

ولكى تدفع المانيا غارة الشعب المجرى عن بلادها بدأت
 عهد له السبل للدخول فى النصرانية . وبتأثير القائد المجرى سان
 استيفان الذى نصب نفسه ملكا على البلاد ، بدأ المجرىون
 يدخلون المسيحية أفواجا . ولرضاء البابا عن جهود سان استيفان ،
 فى نشر لواء المسيحية توجه بتاج لايزال شعار الأسرة المالكة .
 وكان بين القبائل المجرية التى نزلت عن موطنها الأسمى
 وأقامت على ضفاف الدانوب ألوف من المسلمين هم خليط طوائف
 متباينة كتجار ومزارعين أعجام ظلوا محافظين على شعائرهم
 الدينية ، واستوطنوا مناطق بالقرب من العاصمة وانتشروا فى
 السهول الزراعية وأظهروا براعة فى الشؤون التجارية والصناعية ،
 ولا تصالهم بالشرق الاسلامى اكتسبوا فى فترة قصيرة مميزات
 اجتماعية واقتصادية وبالأخص فى الدوائر الحكومية .

وكانت أوربا فى ذلك الوقت لاتسمح باقامة الشعائر الدينية
 الاسلامية فى ممالكها . ولذا حاولت ان تحمل هؤلاء المسلمين على
 تغيير دينهم واعتناق النصرانية ، وكثيراً ما سنت القوانين
 الصارمة ضدهم .

ولاتزال أسماء بعض المدن والقرى فى المجر تدل على أنها فى
 الأصل أسماء عربية ، وهى تمتاز باضافة كلمة «برمان» الى اسم

القرية لتدل على ان المسلمين كانوا يقطنون فيها ، أما «برمان» فتعنى كلمة مسلمان أى الاسلام . ويطلق عادة على المسام المجرى : «الاسماعيلي» وقد جاء هذا الاسم من اسماعيل بن هاجر الذى نزح الى جزيرة العرب . ولا يفهم من هذا أنهم من الشيعة الاسماعيلية كما يعتقد البعض ، فهم من أهل السنة على مذهب أبى حنيفة .

ومما يذكر انه حدث فى القرن الثالث عشر للميلاد أن سافرت بعثة مدرسية مكونة من أربعين مجرياً مسلماً الى مدينة حلب بسوريا لدراسة الفقه الحنفي تمهيداً لتعيينهم قضاة وأئمة فى أوروبا الوسطى .

وبعد ان استولى العثمانيون على مصر ولقب السلطان «بالخليفة» اتجه سليمان القانونى شطر المجر فاستولى على عاصمتها بودا واتخذها قاعدة عسكرية هامة . وكان الغرض الحقيقى الذى يرمى اليه من وراء الاستيلاء على المجر ، هو افتتاح بلاد النمسا فاتخذ السلطان سليمان القانونى من المجر خط دفاع ضد النمسا . ولكن لما خضدت شوكة العثمانيين ، وارتد الجيش القاتح عن أسوار فيينا ، نزحوا عن بودابست ونزلوا عن جزء كبير من بلاد المجر وهو القسم الذى دخل فيما بعد فى حوزة الجيش النمساوى . وقد اضطهد النمساويون الكاثوليك المجرىين إذ أنهم بروستانات فشبت الثورة ضد أسرة هابسبرج الحاكمة ، وأخذ القائدان تسكلى وراكنتس على عاتقهما تحرير البلاد من نير النمسا .

وفي خلال نشوب هذه الثورات كان الخليفة يمد يد المساعدة للمجريين، ولكن الثورة انتهت بفشلهم، فلجأ قوادها الى الاستانة حيث وجدوا ترحيباً عظيماً بهم وظلوا معززين مكرمين الى أن ماتوا ودفنوا في الأراضى الاسلامية .

وكانت أوروبا في ذلك الحين قد بدأت تزدهر فيها العلوم والفنون والآداب في الوقت الذي صارت فيه بلاد المجر خرائب واطلالا خالية من السكان ، فاضطرت الحكومة الى أن تستقدم مزارعين من البلاد المجاورة وتوطنهم الأراضى ليكملوا النقص الذى أحدثته الحرب في الرجال ويعمروا الأراضى ويضمنوا للحكومة جباية الضرائب ، وشجع أمبراطور النمسا هجرة هذه العناصر الى المجر ليمد البلاد بطبقة الزراع . فساد في ذلك الوقت نظام الاقطاعات وبسببه وجدت طبقتان : الاولى النبلاء والثانية الشعب .

وقد حملت الثورة الفرنسية الى المجر مبادئ الحرية واعلان حقوق الانسان ، وكانت سبباً في شغب ثورة دامية ضد النمسا ورفع نيرها عن البلاد . على أن العناصر الأجنبية التى استوطنت الأراضى الزراعية نادى بأن تكون لها حقوق وامتيازات كالأقليات ، بل انها تحالفت ضد المجريين في ثورتهم .

وبعد أن خمدت الثورة الثانية لجأ زعيمها كوشوت ومئات من قوادها الى دار الخلافة حيث استظلوا بحماية الخليفة واعتنقوا الدين الاسلامي وانخرط البعض منهم في سلك الجيش العثماني

واشتهروا ببسالتهم في حروب القريم .

...

عندما تم جلاء الدولة العثمانية عن بلاد المجر خلفت وراءها مساجد وتسكيا وأضرحة وأوقافا لا تحصى . ومما يؤسف له أن هذه المساجد حولت بمرور الزمن الى كنائس وقصور وفنادق وثكنات عسكرية . وكانت السياسة التي انتهجتها النمسا ترفى الى القضاء على كل نفوذ أدبي للخليفة ومحاربة كل حركة إسلامية تقوم في بلادها ، حتى نزح ألوف المساميين عن النمسا والمجر ، ولم تبق منهم سوى أقلية ضئيلة لا يؤبه لها .

والمسامون الآن في المجر لا يزيد عددهم على ألفي نسمة ، يقيم أ كثرهم في مدينتي بيبسج وإجر ، وقرية حمزة بك التي لا تزال تحتفظ بخلفات تاريخية إسلامية كـ بعض المآذن والقباب والحمامات التركية . وفي بودابست وحدها ثلاثمائة مسلم ، حالتهم الاجتماعية سيئة للغاية ، وهم فقراء يزاولون الصناعات والمهن الوضيعة ، ويخضعون في أحوالهم الشخصية للقانون المدني ، ولا يتلقى أولادهم أصول التعاليم الدينية ، بل تراهم يختلطون بالمسيحيين ، مما يحشى أن يفقدوا عقيدتهم الدينية في هذا اليم المصطب . فهم بعكس جيرانهم مسلمي يوجوسلافيا الذين يعدون من كبار الأغنياء نظراً الى أنهم أصحاب الأراضى الزراعية والعقارية ، حتى إن لهم مقاعد في مجلس النواب ، وحزباً سياسياً عظيماً يرأسه السيد محمد سباسو .

وليس للمسلمين في بلاد المجر مسجد لاقامة الصلاة ، انما يقيمونها في بهو فندق « اسبلانا » ببودا . وبالنسبة الى أن أكثرهم من طائفة البشناق فقد انتخبوا من بينهم إماماً رسمياً هو السيد حسين حلمي ، وقد تلقى علومه الدينية في الأزهر لثلاثين عاماً خلت ، وشغل فترة طويلة مركز إمام آلاى في الجيش النمساوى . ويوجد مفتى آخر هو السيد عبد اللطيف افندى ، كان إماماً للسفارة العثمانية في بودابست . ورغم أن تركيا ألغت الامامة من سفاراتها ولم تعد لعبد اللطيف افندى صفة رسمية يستند اليها ولا سلطة دينية يمارسها ، فان السفارة لاتزال متمسكة به ، لمقاومة أية نهضة دينية ترمى الى إحياء مجد الاسلام في البلقان ، أو تقوية الروابط الدينية بين البلقانيين وبين بيت آل عثمان منعاً من أن يجد الخليفة حزباً يناصره في أوربا تمهيداً لعودته الى استامبول .

وكنت قد انتهزت فرصة إقامتي ببودابست ، فقصدت في يوم الجمعة الى « فندق اسبلانا » للاجتماع باخوانى المسلمين . وقادنى الخادم الى البهو المخصص لاقامة الصلاة ، فاذا به فسيح ، مفروش بالسجاد الوثير ، ومنقوش على الحائط بالألوان الزاهية شكل قبلة خط فوقها « لا اله إلا الله » . وكان عدد الحاضرين لا يتجاوز الثلاثين نفساً ، ليس بينهم من يحسن التكلم بالعربية غير الامام ، ومما لاحظته أن خطبة الجمعة كانت في اللغة المجرية ، على حين أن الأذان وفروض الصلاة بالعربية .

وأطلعني الامام على مشروع يراد به إقامة مسجد ومعهد ديني لتعليم أولاد المسلمين وتفقيهم . وعلى الرغم من أن الحكومة منحتهم قطعة من الأرض فإنهم لا يجدون المال الكافي لتشييد المسجد ويؤملون المساعدة المادية من مسلمي مصر والهند والشام . وهم يجتمعون الآن للصلاة في بهو الفندق بصفة مؤقتة ، ويحيون فيه الأعياد والمواسم الاسلامية ، ويتهزون فرصة عيد الأضحى فينحرون الذبائح ويقدمون اللحوم والثريد الى فقراء بودابست بصرف النظر عن أديانهم ، حتى إن كبار رجال الدولة والأعيان يقدون على الفندق لتهنئة المسلمين بحلول أعيادهم .

وفي بودابست رابطة إسلامية باسم « جمعية جول بابا » . أسست من بضع سنوات للدفاع عن الاسلام ، والسعى في ترقية حالة المسلمين المجرين من الناحية الاجتماعية والأدبية ، وانشاء مسجد ومعهد علمي يفقهون فيه أصول دينهم . ومما يدل على اهتمام الأوساط الرفيعة بشؤون الجمعية ان بعض النبلاء المسيحيين أظهروا عواطفهم المقرونة بالمساعدة المادية ، نظراً الى أن المجرين والمسلمين ظلوا إخواناً يتشاركون السراء والضراء زهاء ألف عام . وقد أسندت رئاسة « جمعية جول بابا » الى البارون باريني أمين التاج في القصر الملكي . ومن أعضائها الممتازين : رئيس الوزارة السابق شيموني وهو شيخ في السبعين ، والدكتور بارتس مدبر البلدية ، وبكل فلوش حاكم السواحل ، واسوليفتش محمد بك ، وكاتم أسرارها الدكتور عبد الكريم جرمانوس أستاذ

التاريخ الاسلامي بجامعة بودابست .

وعلى الرغم من الجهود المتوالية التي بذلتها الجمعية فقد استطاعت أن تتقدم الى البرلمان بمشروع اعترف فيه بالاسلام وأقره كدين رسمي من أديان الدولة ، وأن تعيد الأذان الى جو بودابست بعد أن ظلت محرومة إياه نحو مائتين وخمسين سنة ، وأن تحمل الحكومة على التبرع بقطعة كبيرة من الأرض بالقرب من ضريح « جول بابا » والتصريح بأقامة مسجد عليها . لكنهما لا نجد ماتنقحه على البناء رغم ما بذله الدكتور بارتس من ماله الخاص ورغم تبرعات أخرى من جيوب المسيحيين .

حدثني الدكتور جرمانوس ذات يوم عن مشروع تأسيس المسجد ، فقال : « إن الفكرة نمت في خلال الحرب العظمي حين كان المجريون يقاتلون في صفوف الأتراك . وبعد الهدنة أوفدتني الجمعية الى استامبول للحصول على فتوى دينية من شيخ الاسلام خيرى افندى بشأن التبرعات التي تجمع من غير المسلمين لبناء مسجد في أرض غير إسلامية ، وهل تعد حلالاً أم حراماً ؟ فأجاب فضيلته بجواز بناء المسجد ، وأشار على كمال افندى المهندس المعماري لدار الفتوى بتخطيط رسوماته . ثم أضاف الى ذلك قائلاً : « لقد استطعنا أن نهدي عشرة الي الاسلام في بودابست على قصر زماننا وسوء حال الجماعة ، والفضل في إسلامهم لاماننا السيد حسين حامى الذي يطلب المعونة من المسلمين في جهات كثيرة وقليلاً ما ترد . نحن في أشد الحاجة الى معونة العالم

الاسلامى وبالأخص الأزهر . فى حاجة الى بعثة دينية تقمه
مسلمى المجر فى أصول دينهم وترشدهم الى سبيل الحق واليقين .
وفى اعتقادى أن الاسلام دين الازهان المستنيرة ، وأن أصحاب
العقول البارعة يجدون فيه ميزات تستولى على اعجابهم وأنه الدين
الذى سيكون فى يوم قريب أو بعيد معتقد الطبقات الرفيعة فى
العالم . وأنا أعرف فى بلادى وفى أوربا كلها رجالا مستنيرين فى
أرفع الأسر يحترمون الاسلام ويوشكون أن يتخذوه ديناً ولوفى
سرايرهم . ومنذ خمس سنوات أسلم فى فينا رجل من أعرق
الأسر الأرستقراطية هو البارون آرن فلس . وسمى نفسه «عمر»
وأسلم مجرى آخر كبير هو فيلكس فائ وقصد الى سويسرا ينشر
فيها مجلة إسلامية . وهذا دليل على سمو الاسلام الروحى
والذهنى . لانه يستولى على ذوى الازهان وكبار رجال
الفكر حتى إن الذين لا يؤمنون ولا يدينون بالاسلام
لايستطيعون أن ينكروا النور الذى أضاء العالم من الأندلس
الى الصين واليابان ، لا يستطيع ذلك مسيحي ولا بوذى ولا
موسوى ولا رجل من أى دين .

ليس الاسلام سحراً ولا طلسماً ، ولكنه دين الحق والقوة
واليقين . واولئك الذين يخشون عليه من الآراء الحديثة لا
يقدرّون الحقائق الجوهرية حق قدرها ، ولا يسايرون تيار
الحضارة القائمة على قواعد أخلاقية ثابتة . فالمسيحية مثلام تفقد
شيئاً من هيبتها رغم الاكتشافات الحديثة وتقدم العلم . بل

بالعكس ازداد الدين تعمقاً واتجهاً نحو الشعور الانساني
والاندماج في المحيط العالمي . وتقدم المسيحيين أمر لا يرجع الى
اعتناقهم النصرانية وتشبعهم بمبادئها بل هو نتيجة نشاطهم في عالم
الفكر والأخذ بتوسع في حرية البحث ومواجهة الحقائق على
علاقتها . فليتعظ المسلمون وليعلم الجهلة المتطرفون الذين يخشون
على الاسلام من حرية البحث ومن الآراء الحديثة ، أنهم هم
أعداء الاسلام وسوف يعرقل نهوضه جمود أفكار هذه الفئة ،
لأن الاسلام دين ثابت ، مكشوف للعالم .

ولست أتمنى من دنياي شيئاً سوى أن أتمكن من نقل كتاب
الله الكريم «القرآن» الى اللغة المحجرية ، فقد نقله اليها عن
اللاتينية عام ١٨٣٢ قسيس حرفة تحريفاً فيه سوء . وسوف
لا يستقر الشوق في نفسي حتى أجز هذا العمل الذي بدأت منه منذ
عشر سنوات .

لقد ظلت طائفة من العلماء تعترض على ترجمة القرآن بحجة
أنه سيكون باعثاً لفصم عرى الوحدة العربية ، مع أن هنالك
الوفاء من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يحفظون الكتاب
الكريم دون ان يفقهوا معناه . واذا سلمنا بأن الاسلام في حد
ذاته هو التشبع بالمبادئ الروحية السامية القائمة على طهارة
النفس ونقاوتها مما يشوبها ، فهل يمكننا والحالة هذه ان نعترف
بأن الالهام السماوي بالغاً من التقديس أى مبلغ يؤثر في نفوس
من لا يفهمونه ؟ لا ريب ان الله حين أنزل القرآن شاء أن يعم

نشره بين البشر كافة ، لا ليجمله وفقاً على اولئك الذين
يحتكرون معناه في صدورهم ولا يعملون على اذاعته بين الذين هم أقل
منهم في المعرفة .

بهذا الاخلاص وهذه الحرارة ختم الأستاذ جرمانوس
حديثه معي . ثم أكب على كتاب عربي كان يراجع فيه .
وقد فاتني أن أذكر انه يوجد بمتحف بودابست الوطني
قسم خاص بالآثار الاسلامية ، كالأسلحة الحربية المطعمة
بالجواهر الكريمة والسروج والمسابع والخيام ومسكوكات ذهبية
وفضية ، وفي جامعة بودابست شعبة لدراسة العلوم الاسلامية
تولى الاشراف عليها فريق من نوابغ المستشرقين ، يكفي
ان أخص بالذكر منهم العالم الكبير فامبيري الذي اعتنق الاسلام
وكان في وقت ما استاذاً لابنة السلطان عبد الحميد ، والمستشرق
جولد زهير الذي توفي منذ بضعة أعوام في الحلقة الثامنة . وقد
درس هذا المستشرق العلوم الاسلامية في الأزهر وتلمذ للمرحوم
الامام الشيخ محمد عبده ، وما ان عاد الي بلده مزوداً بعلوم
الأزهر حتى عني بالتفسير والحديث والفقه وشغل كرسي
أستاذ العلوم الشرقية بالجامعة زهاء ثلاثين عاماً .

ومما يحسن ذكره ما سمعته من شيخ العروبة المرحوم احمد
زكي باشا انه لما زار بودابست قبيل الحرب وشهد دروس
الاستاذ جولد زهير في تفسير القرآن قال : « لم أشهد في حياتي
أعجب من يهودي يدرس قرآن المسامين للنصارى ! » .

فيينا

« بلد الفن والموسيقى »



يقطع القطار السريع الذي يغادر بودابست في الساعة الرابعة بعد الظهر المسافة بينها وبين فيينا في نحو أربع ساعات . ويقف نصف ساعة في محطة الحدود التي تفصل المجر عن النمسا فيصعد إلى عرباته مراقبو جوازات السفر ورجال الجمرك يحيون الركاب باحترام ويؤشرون على جوازاتهم ، ثم يسألونهم في رقة وأدب عن أمتعتهم دون أن يفتحوا حقائبهم ...

وانطلق القطار بنا بين سهول المجر الخصبية ونحن نمر في طريقنا بالوديان والمراعى والآلاف الرموس المرموز لها بصليب من خشب وباقية يابسة من الزهر ، حتى اذا ما اقتربنا من محطة الحدود كانت الشمس قد أخذت تميل منحدره نحو الشفق تحيط بقرصها الوردى الملمتبه أنوار ذهبية باهرة ، ثم تتغير هذه الألوان بعد لحظة فيذبل لون الورد ويذوب احمراره شيئاً فشيئاً عندنهاية الأفق ، ويتحول ذهب السماء الى لون سنجابي تتوسطه مروحة كبيرة هي مرآة القمر الوليد .

وتابع القطار سيره بعد اجتياز الحدود ، فهبت طراوة الليل

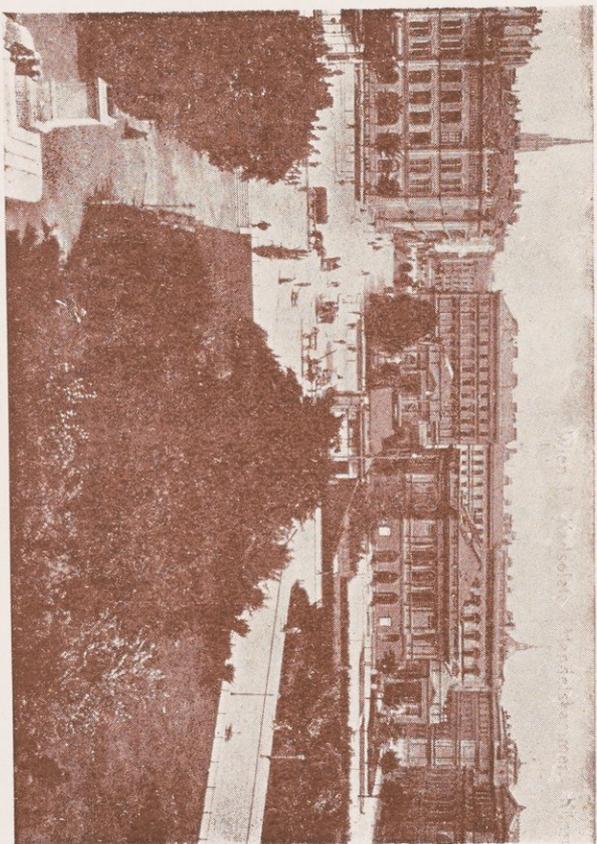
البليدة تهديء أعصابنا وتبعث شيئاً من النشاط الى نفوسنا، وشغلت بالحديث مع سيدة من أهل فيينا كانت الى جانبي في ديوان العربية عن الحياة الفكرية والفنية في بلادها، وذكرت لها ما قرأت عنها وما أثار في نفسي عاطفة الاعجاب ، ثم انتقلنا الى الحديث عن نكبة الحرب ومعاودة سان جرمان التي فصلت النمسا وجمعت منها ثلاث دويلات ، وكيف أكرهها الظافرون على أن تظل تحت وصايتهم وأن ينتقصوا من أطراف النمسا لتبقى بمعزل عن شقيقاتها . حتى اذا ما تبدت أمام أعيننا عمائر فيينا وقد ألقى الضباب عليها سدولاً رقيقة ، قطعنا الحديث ، وقام كل منا الى متاعه يتعهده .

...

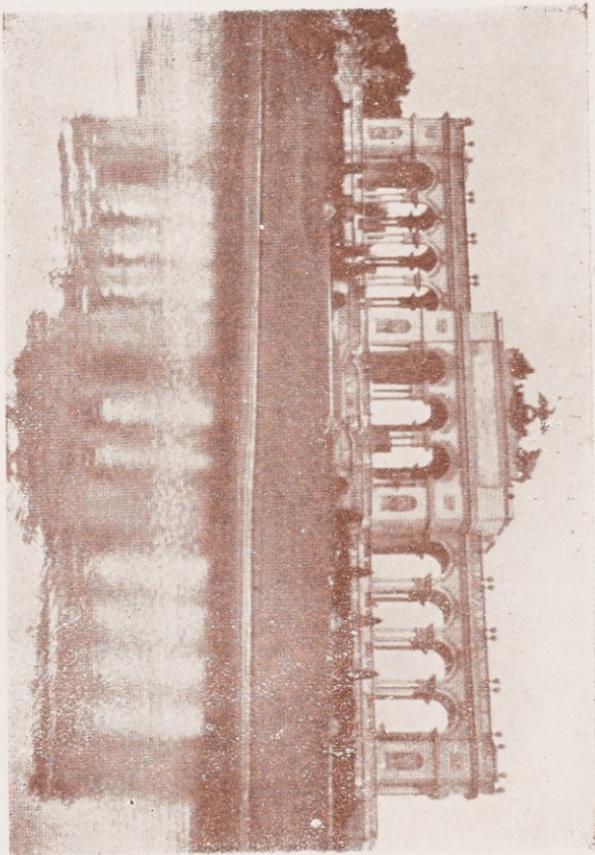
فيينا اسم ساحر جذاب لهاته المدينة الخالدة التي ظلت مدى أجيال طويلة مستقر حضارة راقية لا تمت بصلة الي غيرها من الحضارات .

وابن فيينا هو ذلك الرجل الذي أنحدر من الجبال والأودية مزوداً بما بعثته الطبيعة الفتانة في نفسه من حب وشعر وولع بألوان الجمال .

ومن الطريف أن كلمة فيينا مشتقة من « فان » - أي النبيذ - ولذا تعد بحق بلد النبيذ المعتقد . وقد يروعك كثرة مزارع الكروم التي تحيط بالعاصمة كالزمردة في عنق الحساء .

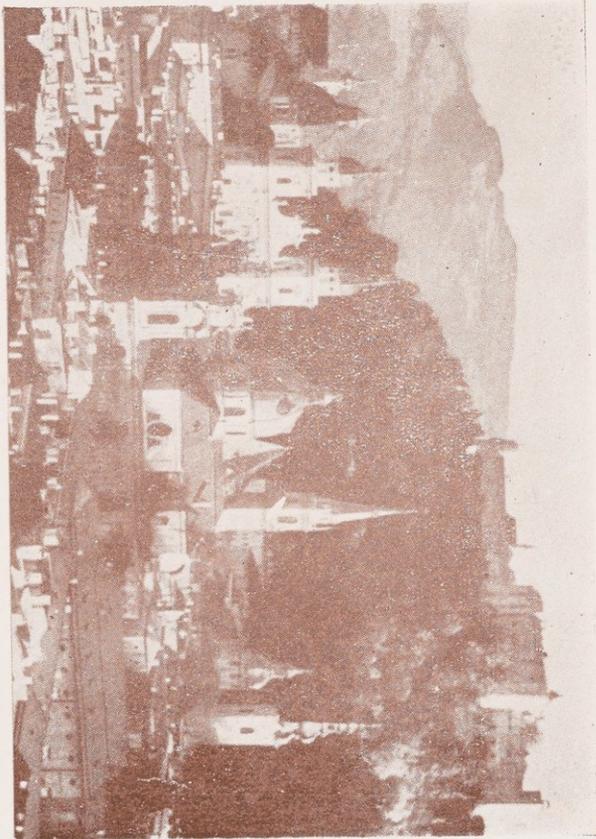


متحف الفنون الجميلة بفيينا



الشو فيروف

ساحل جنوبي





مهد النسر الصغير

ولكن ما أتعس فيينا اليوم، وما أشد بؤس أهلها !
لقد أصبحت المدينة الخالدة التي أذلتها الحرب ودقت عنقها،
كالمملكة المخلوعة غادرت عرشها وفقدت صولجانها وتقطعت
الأسباب بينها وبين غابر عزمها، فلم تبق لها سوى ذكريات ألمية
وهم مقعد، وبعد أن كانت فيينا عاصمة امبراطورية عظيمة الشأن
تعدادها ستون مليوناً، أصبحت عاصمة جمهورية صغيرة لا يزيد
سكانها على ستة ملايين !

وهذه الظاهرة السيئة التي خلفتها الحرب جعلت من فيينا
مبعث ثورات واضطرابات في حياتها السياسية والاقتصادية،
فلاشترائية والفوضوية وما إليها من المبادئ الهدامة تجد مرتعاً
خصيباً في نفوس أهلها. أذكر أن الأسبوع الذي قضيناه في
فيينا كان عقب مقتل المستشار دولفوس بفترة وجيزة، فكانت
الأحكام العرفية معلنة والشوارع محاصرة والأبنية الحكومية
يحرسها الجنود والمدافع والرشاشات. ومن المظاهر الاقتصادية
السيئة أن معظم المقاعد في المسارح والأوبرا خالية لأن الناس
يتهافتون في أوقات فراغهم على سماع الموسيقى في المقاهي بثمان
زهيد، ومامن غسوى يجلس إليه إلا شكى اليك البطالة وسوء
الحال الاقتصادية في بلاده.

على أن فيينا رغم الظواهر السيئة التي خلفتها الحرب العظمى
في عواصم أوروبا ومدنها لاتزال تحتفظ بالطابع الارستقراطي
الفخم الذي يميزها من غيرها، ولاتزال مركز الآداب الرفيعة

ومهد الموسيقى الراقية التي ضاعف روعتها هايدن وفاجنر
وموزار وبيتهوفن وشوبرت وغيرهم ممن ترى تماثيلهم منثورة
بين جوانب حديقة الرنج .

ولا يزال لأهل فيينا فضل السبق في الرشاقة والتفوق في
ابتكار الأزياء ومنافسة أهل باريس في الذوق وفي استيعاب
صنوف الثقافة . فالفكر المشتعل والتهديب الجهم المتواضع والذكاء
اللامع هي الصفات البارزة التي تلمحها في وجوه أبناء فيينا .

هذه الظاهرة الفنية الراقية التي اشتهرت بها فيينا من أقدم
العصور جعلت منها مهبط مئات الموسيقيين والفنانين والمثاليين
ورجال الفكر ، يأتونها من أطراف الأرض ، فلا يلبثون أن يتشربوا
روحها حتى تتفتح عقربياتهم ويعلو صيبتهم .

أناها الموسيقار بيتهوفن في صباحه مبعوثاً من قبل شقيق
القيصر ليحذق فنون الموسيقى ويتناهد لموزار وشنك وهايدن
فلم تلبث نفسه أن أخذت الى جمال فيينا ، وآثرها على وطنه ، حتى
بلغ من هيامه بها أن كان يجلس طول يومه بين الحدائق
والمتنزعات ، غير عابئ بتقلبات الجو ولا تساقط المطر ليستلمهم
من طبيعة فيينا صوغ ألحانه .

...

كان الفندق الذي نزلت به يقع في أطراف «الرنج شتراس»
والرنج في فيينا بمثابة القلب الذي يوزع ألوان الحياة وضروب
الهنو والمتاع . ففي هذا الحي تقع دار الأوبرا ومعازف الموسيقى

ودور الغناء والرقص ، تتخللها الحدائق والمنتزهات بحيث تجد الروح غذاء والعقل متاعاً والقلب راحة ومسرة .

أما أوبرا فيينا فهي آية من آيات المجد الناطق حين كانت العاصمة مركز الثقافة والعلم والفن ، ومحور الترف والنعيم . وهي اليوم معبد الموسيقى الراقية والرقص الرفيع العالى ، وحجى عظماء الموسيقيين ممن كانوا شهباً ناقبة في سماء هذا الفن . ألم يحج إليها قياصرة ارتدوا ثوب ملوك الفن ، وزهدوا في الملك وأبهته في سبيل أن يخلدوا في سجل الموسيقيين ؟ أجل ! فكما أن لويس الخامس عشر كان راقصاً ماهراً ، كذلك كان الامبراطور ليوبلد الأول مغنياً بارعاً ، وكان كل من جوزيف الأول وشارل الرابع مؤلفاً موسيقياً ، وكان يسرهم أن تردد أوركسترا الأوبرا « الفيلهارمونيك » مقطوعاتهم قدر ما يرضيهم أن يردد الشعب الهماتف باسمهم في الشوارع والمجتمعات .

دلقت الى أوبرا فيينا ذات مساء كانت تعرض فيه رواية فيجاروس . فما أخذت بروعة العارة وبهرة الزينة وتألقت الأنوار الى جانب ما استمتعت به من سماع موسيقى علوية توحى الى الأذن ما توحيه في العين براعة التمثيل وجمال الملابس .

وهبطت في ليلة أخرى الى دار من دور العزف الموسيقى ، ولكن شتان بين ما يعرض في هذه الملاهى وبين ما نشاهده في مصر . بدأ العرض بأن صدحت الموسيقى بنشيد « الله ملجؤنا » لموزار فاذا بالأعناق تتطاول والانفاس تحثت والأرواح تحلق

في هذا الجو الفنى الجميل الذى تجرد فيه غذاءها . حتى اذا ما انتهى
 الاذن دوت القاعة بالتصفيق واهزت الرؤوس من نشوة الطرب .
 ثم عرضت علينا ألوان من الرقص والغناء ، رقص خفيف جذاب
 وغناء يشعرك أن القصد منه ارضاء النفس وبهجتها لا إثارة
 الحواس واستفزازها .

أتراني وقد تحدثت بعض الشيء عن أوبرا فيينا وملاهيها
 أتناول ناحية أخرى أشد اتصالا بالحياة الليلية ؟ هذه الناحية
 تتمثل في المقاهى المتناثرة في حى الرنح فأن لبعضها من الطابع
 والجازبية ما يشوف السائح لأن يقضى فيها بعض الوقت يستمتع
 بهذا العبير الشرقى المنبعث في جوها أو يستمع الى أنغام الموسيقى
 التى يرتدى ضاربوها ملابس أنيقة مزركشة أو يطالع صحف
 العالم وهى معروضة بالعشرات في المشاجب .

لست أنسى أول مرة قصدت الى أحد هذه المقاهى فما أدرك
 الساقى أنى مصرى حتى قدم الى مجموعة من الصحف العربية
 الصادرة حديثا فكانت مفاجأة سارة تقبلتها في كثير من الغبطة ،
 فقد مرت أسابيع وأنا في لهفة وشوق للوقوف على أبناء بلادى .

...

يصل الانسان من الفندق الذى نزلت به الى قصر البرج
 سيرا على الأقدام فى دقائق معدودة . وهذا القصر الذى يقع فى
 قلب فيينا كان الى عهد قريب مقر الامبراطور فرانسوا جوزيف
 الذى توفي فى خلال الحرب العظمى ، وقد اكتفوا بأن حولوا

جزءاً منه إلى متحف يعرض فيه أثاث القصر ونفاأسه وان تؤجر
بقية الأجنحة والغرف مكاتب تجارية ومصالح حكومية .

اجتزنا مدخل القصر الى فناءه الداخلي وبعد أن وقفنا برهة
خاشمين أمام تمثال الامبراطور فردريك الأكبر ارتقينا الدرج
الى الطابق الأول حيث دفعنا بضعة قروش رسماً للزيارة .

في هذا الطابق عرضت مخلفات آل هابسبورج وإذا أنت
زرت غرف القصر وأنعمت النظر في محتوياته بلغت بك الدهشة
حد الحيرة والاعجاب . فهذا المخدع كان مخصصاً لنا بليون
بونابرت حين كان يقد على القصر هو وزوجه ماري لويز ليزور
صاه فرنسوا الأول . وهذه الغرفة الملحقة كانت لابنهما « النسر
الصغير » وهذه قاعات الولائم والحفلات مبطنه جدرانها بقماش
الجوبلان نقشت عليه رسوم زيتية بلغت من الاتقان حداً
تتضاءل أمامه آيات الفن الكبرى . فقد كان الامبراطور الهرم
مغرمًا بالصور وبالفنون الجميلة فأنفق جزءاً كبيراً من ثروته في
اقتناء الرسوم النادرة والطنافس الوثيرة ليزين بها قصر البرج .
وذلك على الرغم من أنه كان يعيش في جناحه الخاص معيشة
رجل ناسك ، فأثاث غرفه بسيط للغاية ، لا يزين مخدعه إلا
صورتان فوتوغرافيتان تمثلانه في حياته الخاصة .

أتيح لنا أن نزور في هذا القصر المتحف الخاص بمجوهرات
آل هابسبورج ، يالروعة والجمال ... ان قصص الف ليلة وما
يروى عن بذخ آل عثمان في قصورهم ليتضاءل أمام هذه الجواهر

والتيجان تسطع في الضوء ولايجنى عليها نور النهار جنائته على
الجمال المزيف .

تبلغ عدد غرف قصر البرج زهاء الف وخمسمائة غرفة ، عدا
عشرات الأبهاء والصالونات والمقاصير والمزينات والحمامات ، مما
كان الترف والأبهة يسيل فيها أنهاراً ، وقد تفقدنا في القسم
الخاص بتحف آل هابسبورج مهد « النسر الصغير » . مهد فريد
في صنعه وفي الصورة التي شاء الفنان أن يعبر بها . فقد نقشت فوق
حافة المهدصورة بارزة للشمس في وسطها حرف النون ، كأن
رجل الفن يريد أن يرمز إلى الشعاع المنبعث فوق وجه الطفل من
أول حرف لاسم نابليون . وفي طرف الحافة الأخرى صاغ الفنان
تمثالا صغيراً من الذهب الخالص يمثل نسرأ باسطاً جناحيه ، إذ
أن النسر هو الشعار الذي اتخذه نابليون رمزاً لسلطانه .

وشاهدنا عشرات من أبواب التتويج والصلوات والتيجان
والعروش وكل ما يحتفظ بأبهة الامبراطورية أو يمت إلى شخصية
الامبراطور بأقوي الصلات . كثوب تتويج الملك فرديناند
الأول المرصع باليواقيت والعقيق ، المبطن بالفراء الثمين ، والثوب
الذي ارتداه الامبراطور فرنسوا ليلية تتويجه . والتاج الذي
قدمه السلطان احمد الى أحد الزعماء ليضعه فوق مفريقيه اذا
مانحج وفاز بخلع الامبراطور . فلما هزم الثائر وفشلت الثورة
اغتصب التاج واحتفظ الامبراطور به رمزاً لسطوته واعلاء كلمته .
ودلفنا من القسم الخاص بتحف آل هابسبورج الى المتحف

الكهنسي حيث تعرض في ردهاته أبواب الكهنة والباباوات
 وطيلسانات البطارقة وتماثيل من الذهب الابريز للمسيح في
 أدوار جهاده ، وانجيل يوحنا المخطوط الذي كان الملك شارلمان
 يتلو منه صلواته ، وسيف الملك استيفان مؤسس الدولة المجرية ،
 وصليب تتويج ملوك النمسا ركبت فيه قطع من الخشب التي صلب
 عليها المسيح .

...

وغادرنا البرج لزيارة قصر الشونبرون في ضاحية تقع في
 أطراف فيينا وتبعد عنها نحو ساعة بالسيارة . وكان هذا القصر
 معداً فيما مضى ليقضى الامبراطور فيه شهور الصيف ، شيدته
 الامبراطورة ماري تيريزا على نسق قصر فرساي ، وأنفقت عليه
 الأموال الطائلة وأحاطته بالحدائق الغناء والبساتين النظرة كما
 يبرقصور آل هابسبرج روعة وجمالا .

واسم شونبرون من ألصق الاسماء بحياة الامبراطور فرنسوا
 جوزيف . فلما أرادت الحكومة النمسية تخليد ذكرى
 امبراطورها العظيم . لم تجد مكاناً لعرض مخطفاته وآثاره وتخليد
 ذكره أفضل من هذا القصر الذي استقبل الامبراطور طفلا
 وودعه جثة هامدة . فجمعت فيه كل مايمت الى حياة الامبراطور
 وموته بصلة .

فاذا أنت دخلت هذا القصر الآن . ألفت جميع غرفه
 تزخر بذكريات الامبراطور العظيم .. فهنا ولد .. وعلى هذا

الفراش الحريري البسيط توفي في السادسة والثمانين . وفي هذه
 الغرفة قضى طفولته ، وفي هذا الجناح اجتاز يفاعته . . . وهنا قال :
 « وداعا شباني » حين اتصل به نبأ نزول عمه عن العرش وأصبح
 لزاما ان يحل محله في وقت كانت فيه نار الثورة تستعر في أنحاء
 البلاد . وهذه هي الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد الى
 الامبراطور شارلمان ، وهي أول ساعة عرفت في التاريخ . . . وتلك
 هي صورة « النسر الصغير » ابن نابوليون . الذي قضى حياته
 في ذلك القصر ، والصورة تمثله حاملا « الطفل » على ركبتيه .
 وهذه هي الصفحة التي كان الامبراطور يتناول فيها طعامه وهو
 يشغل بتصرف شؤون الدولة . وتلك هي بقية آخر لقاء تبغ دخنها
 قبل أن تستولى عليه نوبة السعال الشديدة التي توفي على أثرها .
 وهذه هي شهادة اثبات الوفاة . وهي لا تختلف عن شهادة
 وفاة أى شخص عادى الوجود ككلمة « إمبراطور » أمام عبارة :
 « صناعة المتوفى » .

وفي هذه الغرفة أسلم الامبراطور الروح وكان أول من رآه
 بعد موته لجهه ووريثه التمس . . . تم صديقتيه وعشيقتيه « كاترين
 شرات » التي كان يزور قصرها كل يوم حتى بعد أن بلغ كلاهما من
 الكبر عتيا .

ان زيارة قصر شونبرون الذي هو في الواقع افخم القصور
 في اوربا الوسطى ليعيد الي الذاكرة ايام ماري تيريزا ، والوان
 الترف التي اشتهرت بها . ففي القصر غرفة تعرف باسم « غرفة

المليون» وأحسب أنه اسم لم يطلق عليها عفواً ، إذ بلغ ما نفق على تزديدها ونقش حوائطها بالذهب وبالميناء نحو مليون ريال ، بل إن المطابخ الملكية كانت تحتل في الشونبرون مائة وأربعين غرفة ، وهي جميعاً أكبر شاهد بما كان للامبراطورية النمساوية العتيدة من صنوف البذخ والآبهة .

...

بعد أن أنهت زيارتنا للشونبرون عرجنا على حديقة الحيوانات وهي تقع على مقربة من القصر ، فإلى كازينو اللونبارك ، ثم استقلنا السيارة إلى مودلينج لزيارة البحيرة المجوفة في طريق معبد شق بين المروج والبساتين ، تكتنفها أنواع الكروم المعدة لعصرها نبيذاً . انتهينا إلى مودلينج ، وبعد أن استرحنا قليلاً في أحد المقاهي قصدنا بحيرة منقورة في جوف الجبل تصل إليها عن طريق فوهة رطبة مضاءة بالكهرباء .

وبدأنا حينئذ نعزم الدخول إذ أشار علينا الحارس بأن نحمل معاطفنا فالجو في الداخل شديد البرودة .

وهبطنا إلى المغارة في طريق صخرى أشبه ما يكون بمدخل الهرم الكبير لكنه كان رطباً بارداً . ولما أوغلنا داخل المغارة تلالآت أنوار الكهرباء . وبعد مسيرة نحو عشرة دقائق التقينا أنفسنا في طريق ينخفض عن سطح الأرض بنحو ٢٥٠ متراً ثم بدأنا نسمع أصوات خرير مياه منبعثة من أعماق الجبل . هنالك وقفنا وجهاً لوجه أمام بحيرة هائلة تريق الكهرباء أنوارها

فوق صفحتها فيبعث هذا المنظر في النفس صوراً هي مزيج من
الرهبة والدهشة والخشوع والافتتان .

وكنت لا أزال مأخوذاً بروعة المـكان حين أنشأ الدليل
يقص علينا تاريخ المغارة والوسائل التي أستخدمت في القرون
الوسطى لاستخراج المعادن والأملاح من جوفها وجعل يعرض علينا
نماذج من أدوات الحفر التي كان العمال يلجأون إليها في تلك
العصور . فهذه المغارة البالغة مساحتها نحو عشرة أفدنة كانت
منجماً لاستخراج الأملاح المعدنية ، ثم تحولت في زمن الحروب
الى ملجأ للعجزة والأطفال .

ودعانا الدليل أن نستقل أحد الزوارق البخارية ليجتاذبنا
أطراف البحيرة ، وكانت لا تزال شديدة الحلوكة رغم الأنوار
الكهربائية ، يكفي أن تتخيل هذه الأقيمة والحنايا وهذا الوجل
الذي يلعبس قلوبنا لو أطفئت الأنوار فجأة وبتنا في ظلام دامس .
ولكن صوت الدليل كان يشق هذا السكوت العميق ليصف
المشاهد التي نمر بها . كمنظر عربة صغيرة يحمل عليها الملح ويجرها
جوادان لم تر أعينهما الشمس ولا الضوء الطبيعي ، إذ أنهما لم يخرجا
من المغارة منذ خمسة وعشرين عاماً . ومتحف صغير عرضت فيه
الآلات والأدوات التي تستعمل في المناجم كعربات الديكوفيل
والخطوط الحديدية والمصاييح وبعض الحيوانات والديدان التي
لا تعيش إلا في ظلام المناجم ، ومثال سائبر باراشفيعة عمال المناجم

كانت قصيرة مدة مقامنا في فيينا ، فلم نمكث بها أكثر من أسبوع واحد . وقد يعود هذا الأمر الى أن المدينة كانت تحت الأحكام العرفية ، بسبب مقتل المستشار دولفوس . وقد يعود أيضاً الى سبيين جوهرين : أولهما أن نفوسنا كانت قد ملت حياة المدن وتاقت الى الاستجمام والراحة والهدوء . وثانيهما جهلنا للغة الألمانية ، وتعصب أهلها تعصباً يدفعهم الى الاعتزاز بلغتهم القومية ، وقلة اقبالهم على تعلم اللغات الأخرى .

على اننا استطعنا في خلال الأسبوع الذي قضيناه أن نزور كثيراً من المعالم والآثار ، ككنيسة سانت أتين وكتدرائية فوتيف والرايت هاوس «دار البلدية» ومتحف التاريخ الطبيعي والفنون الجميلة ، ولم ندس أن نخصص جزءاً من وقتنا لزيارة الجامعة ، متوى الفن والأدب والفلسفة ، ولما كنا في فصل الصيف والدراسة معطلة فقد اكتفينا بزيارة مدرج الجامعة ومكتبتها ومائيل العلماء والأساتذة الذين اشتهروا بأبحاثهم العلمية .

ومتحف الفنون الجميلة بفيينا يعد من أكبر المتاحف التي من نوعه في العالم ، ويرجع سبب شهرته الى أن فيينا كانت لعصور خلت موطناً لأقدم العائلات المالكة في أوروبا ، وهي العائلة التي وضعت فوق رؤوس أفرادها تاج الإمبراطورية الرومانية ، وحكمت الممالك الجرمانية الوسطى ، وكانت الوريثة الشرعية لدوقية برجاندى ، وحامية حمى أوروبا ضد مهاجميها من

الشرق ، وقد وصلت قوة هذه العائلة الى أسنى ذروات المجد ،
وبالأخص في عهد الاصلاح الذى نبذت فيه بعض التقاليد الدينية
وتعلق الناس بالفن وشغفوا بالعلم الحديث ، لذلك كانت
المجموعات المحفوظة بمتحف الفنون هى خير مثال صادق لازدهار
هذه الجهود المبكر ، وصورة واضحة للتيارات الفكرية فى
القرون الغابرة .

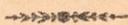
والمتحف مقسم الى أقسام عدة ، فمجموعة القرن السادس
عشر تضم آثاراً فنية رائعة كالدرع والسيوف والخزف
ومخلفات الامبراطور فرديناند الأول والكتب الخطية
ومسكوكات الشعوب الوثنية ونباتات محففة وأوانى معدنية
ومرمرية وأحجاراً كريمة استعملت للبراء من السموم . وتمثل
مجموعة القرن السابع عشر تاريخ النقش والتصوير . أما القرن
الثامن عشر فهو عهد التماثيل والطباعة ، وبعد طرد أسرة
هابسبورج آل كل ما فى القصور الملكية من طرائف الفن النمساوى
وآثار المدرسة الرومانية والايطالية والهولندية ليضم الى المتحف
حتى تألفت منه مجموعة نفيسة تعد من آيات الفن التاريخى .

والقسم المصرى من أغنى الأقسام فى المتحف ، إذ عرض فيه
بطريقة مشوقة تاريخ الفنون عند قدماء المصريين ، ونتيجة
الحفريات التى قامت بها البعثات العلمية النمساوية ، وبما يرفع
من شأن القسم المصرى أنهم لما أرادوا تنظيمه فى خلال القرن
التاسع عشر على نسق المتحف البريطانى تبرع أمراء النمسا بكل

ما يملكونه من الآثار الفرعونية وفي مقدمتهم البرنس كانيستوت
الذي قدم الى المتحف مجموعته الخاصة المكونة من نحو ألفين
وسبعمائة قطعة .

يفادر الانسان متحف الفنون مكرهاً وبوده لو يقضى به
أياماً وأسابيع ، فان زيارة ساعة واحدة لا تدع للنفس مجالاً
لاطفاء ظمئها ، ولكن عند ما يجول في حديقة المتحف وتقع
عيناه على تمثال جيته وشيلريكال جبينها غار المجد ، أو يتنزه بين
غابة فيينا وحدائقها كالبرايتز والرنيج والقولكس جارتن ، ويشم
ورودها وأزاهيرها ويستنشق نسيمها العليل ، يسأل النفس أهو في
بقعة من بقاع الفردوس أم في خلوة من خلوات النعيم ؟ .

الى قسم الالب



نحوط فيينا عدة ضواح يتمثل فيها جمال الطبيعة ومعامله
الساحرة . حيث يهرع الناس اليها طلبا للراحة والاستجمام
والتمتع بالهدوء ومراح الشباب . فأى جمال يضاهى هذه المصايف
الثاوية فى أطراف الجبال ، التى يطلقون عليها « سقف فيينا » ؟
فإنها لا تقل روعة عن أعظم المصحات العالمية ، بل قد تمتاز بموقعها
الفريد بين الجبال والوهاد والدانوب . فهنا ضاحية تطل عليها
قمم الالب المسكوسة بالثلج الابيض ، وهناك ضواح تشرف على
بحيرات صفا ماؤها ومروج نضرة وينايع كبريتية . والحق ان النمسا
هى أرض الميعاد لأولئك الذين أضنت الحياة اعصابهم ، يلتمسون
فى ربوعها راحة الفكر والجسم . والشعب النمسوى شعب وديع
هادى ، يرحب بالغريب ولا يفتأ يقدم اليه وسائل الكرم
ودلائل الحب .

ولما كانت هذه الضواحي متشعبة بحيث لا تجد فيها سوى
الجمال والبهرة والهدوء ، فانك تتحير أيها تفضل لقضاء أيامك ؟
على أن لكل منها طابعها الخاص ومناخها المعتدل الذى يوافق
كل الأمزجة .

وتقوم من ميدان الاوبرا بفيينا بين ساعة وأخرى سيارات
«الامينبوس» الى شومبرون أو كوبنسل أو سمرنج وغيرها من
الضواحي بأجور مخفضة .

على أن أشد شيء أثر في نفسي هو أن سائقى هذه السيارات على
جانب غير قليل من الثقافة والالمام بتاريخ بلادهم وحرصهم على
التغنى بجمال البقاع التى نمر بها . فهو يقف سيارته أمام مشهد
تاريخي أو بقعة جميلة ويأخذ في وصف بعض هذه الآثار
مستعيناً بيوق في يده . ولست أخفى دهشتي حين وقفت السيارة
أمام مساكن العمال ، وكان الى جانبي في المقعد شاب مثقف أخطأ
في ذكر تاريخ تمثال كارل ماركس المنصوب في ساحة المساكين ،
فما كان من السائق إلا أن نبهه الى خطئه في لطف ذا كراً له ان
العمال أعرف بتاريخ نبيهم من طلبة الجامعات البورجوازيين !
شيء آخر دهشت له وأعجبت به كل الاعجاب ، ذلك الشيء
هو حرص هؤلاء القوم على أن يبرزوا أمامنا مواطن الجمال
المبثوث في الريف أو في الجبل ، وتوفير سبل الراحة للسائحين ، فان
أنس لا أنس يوماً قصدنا فيه الى رحلة في الجبال فاذا بأكواخ
نظيفة مشيدة فوق قمم الجبال معدة لعشاق الرياضة الجبلية الذين
يحلونهم قضاء شهور الصيف بعيدتين عن هموم الحياة وأشجانها

...

كانت السيدة التى التقيت بها في القطار من بودابست الى
فيينا من المولعات بالموسيقى فبعد أن زودتنى بالمعلومات الطريفة

عن حياة الموسيقيين الذين ظهر نبوغهم في سماء فيينا أرسيد
 الى عنوان الدار التي أقام بها بيتهوفن في أيامه الأخيرة والث
 شوبرت وأغرنتي بزيارتها . فلما آن لنا أن نغادر فيينا الى
 جبال الألب انتهزت فرصة ذهابي الى كوبنسل ، وهي ضا في
 جميلة نسقت لتكون مراح الهوى والشباب ، فعرجت في طر
 اليها على دار بيتهوفن التي تحتفظ بمخلفاته وأوراقه ، وتقع
 الدار في اطراف فيينا بين حي اليهود المعروف « بالجيتو »
 معامل النبيذ . غير اني بالأسف وجدت الدار مغلقة في هذا اليك
 ومررت بدار الموسيقي فرانس شوبرت وتقيأت في ظل الشجر
 التي غرسها بيده في حديقة الدار وذكرت في خلال هذه الدق
 التي قضيتها متفقداً دار « ملك الاغاني » - كما كان يلقبه معاصري
 سينفونيته المشهورة « النشيد الناقص » وذكرت عبقريته لي
 تجلت في تلحينه اشعار جوته وشيلر وتفوقه على من سبقوه
 ارباب الفن الموسيقي .

وتابعت السيارة سيرها في طريق لا يملح النظر في كل
 من اجزائه حتى وصلنا بعد نصف ساعة الى كوبنسل ،
 ارتفاع نحو الف متر لقضاء يوم الأحد وتناول الغذاء
 الكازينو الكبير .

في كوبنسل ترى بيوت العائلات العريقة التي استوطنوا
 اوروبا في القرون الوسطى لا تزال محتفظة بمظاهر الابهة والمج
 وقد أفضى الينارئيس خدام الكازينو الذي تناولنا فيه طعام الغدا

أرشيدقة كان في الأصل قصرًا للكونت كوينسل ، شاده في
 الثامن عشر الى أن انتفعت به البلدية وحوته الى كازينو فخم
 فيينلي تحته الى غاية مدى النظر أبراج فيينا وأطراف قصورها .
 ضا في خلال الفترة القصيرة التي أقناها بكونسل أتيت لنا
 في دير هايلجا نكروتز وهو أقدم الأديرة في أوربا الوسطى .
 تقع امود تذكاري أقامه الراهب جوليانى وتمثال خشبي للسيد
 «
 وهو يغسل قدم أحد تلاميذه ، وزيارة قصر
 كسمبورج وقد كان المقر الصيفي للأسرة المالكة .

الشه
 تحف بالقصر بحيرة كبيرة آية في الروعة والجمال يكفي أن
 الدق
 مل أحد زوارها فيبدو القصر كأنه مشيد فوق جزيرة . وفي
 العاص
 القصر سجن كان معداً للمحكوم عليهم بالاعدام فيلقون
 يته
 ليايته حيث تلتهم جثثهم الوحوش المفترسة ، وقد اكتفوا
 قوه
 وضعوا في السجن تمثالا لنمر وتمثالا آخر لرجل مقيد بالسلاسل .
 بالقرب من كوينسل تقع ضاحية بادن ، وهي مشهورة
 كل
 جميعها المفيدة لأمراض القلب وتصلب الشرايين ، وبآثارها القديمة
 ،
 تخلع عليها روعة وجلالا ، ففيها البرج المعروف باسم «كالنبرج»
 ارتفاع نحو خمسمائة متر ، صعدنا اليه حيث تبدت تحت أعيننا
 بائر فيينا كأنها ملفوفة في نسيج من الضباب . فعلى اليمين نهر
 وطن
 نوب يحف بالعاصمة وسلسلة جبال الالب والحدود المغربية ،
 المجر
 الشمال قصر ليوبولد وبعض القلاع القديمة . و برج كالنبرج
 الغد
 الذي أهمل الأتراك احتلاله حين غزوه بلاد النمسا متقدمين

الى أسوار فيينا لحصارها ، فاستطاع القائد سويبيسكى ملك بولونيا احتلاله حيث أصلى الأتراك منه ناراً حامية ، ولعل هذه الموقعة هى أهم المواقع الحربية الحاسمة فى تاريخ الامبراطورية العثمانية إذ اضطرت بعدها الى اجلاء جيوشها عن النمسا فالجر فبلاد البلقان .
 وأن لنا أن نغادر بادن الى سمرنج لقضاء بضعة أيام فى الأكوخ الجبلية والناس الراحة والاستجمام والتمتع بالهدوء .
 فركبنا سيارتنا وراحت تشق بنا طريقاً حلزونياً بين الغابات والمروج ووديان الكروم ... هنا يقف القلم اذا حاولت وصف الطريق حيث يتعلق النظر والسمع والفؤاد بكل جزء من أجزائه .
 راحت السيارة تجوس بنا خلال هذه المناظر القتانة الناطقة بأى السحر القاتن ، فذكرت كتاب النمساوفنا فيها وموسيقيتها وعذرتهم على ما بهتته فى نفوسهم هذه البقعة من جنات الخلد من حب وشعر وولع بالطبيعة .

كان أول ما استرعى أنظارنا فى سمرنج ، السكة الحديد المعلقة ، وهى عبارة عن صندوق كبير مربوط فى السلك ، بحيث تصبح معلقاً بين الأرض والسماء . فلما بعينا الوصول الى قمة ركس — أول سلسلة جبال الالب — كان لا بد أن ترتقى القطار السلك ، فراح يتسامى بنا فوق رؤوس الأشجار السامقة ثم يعن فى الصعود فيزج بنا بين لجات السحب . وكما ازداد تصعيداً خيل إلينا أننا فى طائرة ، فاذا الطبيعة الجبارة التى كئنا نشعر حياها بصغرنا وضآلتنا قد انبسطت تحت أقدامنا ،

وإذا الأنوار والظلال تتموج فوق السفوح والبطاح حتى كان لنا من هذه المناظر الخلابة التي تتردد أصدائها في نفوسنا ما جعلنا نتساءل أفي حلم نحن أم في خيال ؟

وانتهى بنا القطار السلك عند غايته ، فهبطنا منه الى مطعم صغير أنيق أشبه ما يكون بكهف فسيح منقور في الصخر ، ينفذ أنوار اليه من كوات غطيت بقطع من الزجاج السميك اتقاء لتقلبات الجو وهبوب العواصف . وقد ألفتنا في هذا المطعم الصغير من جودة الطعام واستيفاء وسائل الراحة والرفاهية ، ما لالأنجده في خير الفنادق . وبعد أن انتهينا من تناول الغذاء وأخذنا الى الراحة بعض الوقت ، انطلقنا إلى الجبل بغية الوصول إلى قمته . وشرع الدليل يتقدمنا ليقودنا إلى القمة ونحن قابضون بأيدينا على عصي مديبية أطرافها لتعيننا على التسلق . على أننى ما كدت أقطع نصف المسافة حتى أصابني دوار الجبل ، فاستلقيت على الأرض أستريح واكتفيت بأن أمتع البصر بمشاهدة عشاق الرياضة الجبلية وهم يتسلقون القمم ويتسابقون فوق الثلوج . وبقيت كذلك إلى أن آن للقطار السلك أن يعود إلى سمرنج فالتمسست مكاني فيه الى حيث ارتقى بنا بين لجات السحب . واخترنا أن نغادر سمرنج في ضحى اليوم التالى لنمضى الى سالسبورج ذات الماضى الحافل بضروب المجد والعظمة والجلال ، المقعم جوها بذكريات التاريخ المائل في كل نظرة تلقيها عليها ، بل في كل خطوة تخطوها بين شوارعها الضيقة وأزقتها المتواضعة ،

فهي توحى اليك العودة الى تلك العصور وتربطك معها بوشيجة
تألف خفية .

والحق ان سالسبورج تقدم الينا دروساً ثمينة في التاريخ
والفن والحياة . فالحصن الحربى الذى يشرف عليها يعد من أبداع
الآثار العسكرية فى العالم ، حيث تبرز فيه الأوضاع الهندسية
الصارمة بالرقة المتناهية . ولما كانت هى المدينة التى ولد بها
الموسيقار العظيم موزار وتذوقت فنه وشهدت تألق مجده ، فان
ذلك جعل لها مكانة رفيعة فى عالم الموسيقى والانغام .

على ان قيمة سالسبورج ليست كامنة فى شهرتها التاريخية
والفنية فحسب ، بل فى معالم البهجة والجمال التى تخلعها الطبيعة
عليها . فمن قمم الألب التى تعقد فوقها قباب شاهقة مكللة بالثلج
الأبيض ، وبحيرات سألزجا مرجوت الواقعة فى سفوح الجبال ،
المزخرفة شواطئها بالأكشاك والمباني الرشيقة ، الى المغارات التى
تتجمد فيها الثلوج طول السنة ، والأكواخ الريفية التى يتخذ
منها عشاق الرياضة الجبلية أوكاراً يلجأون اليها للراحة والاستجمام
ومع أن أعياد سالسبورج الموسيقية هى فى الواقع أحد
الأعياد الجرمانية الثلاثة ، إلا أن موزار صبغها بعطر خاص
يطابق طبيعتها . وأولئك الذين توفروا على قراءة سيرة هذا
النبي الملمهم يقدرون عظمة الرسالة الموسيقية التى حملها ، وروعة
الفن الذى أوقفه على التغنى بما لطبيعة سالسبورج من سحر كان
يزيد فى الهامه ، ورحيق كان يستصفى منه ما يضمنه ألحانه . فقد

كان موزار كثير التجول بين هذه الجبال والسفوح ليخلو الى نفسه بعض الوقت ويسرح بصره في جمال الغابة والبحيرة والشجر والزهر ، ويشنف سمعه بهذه الألحان القدسية ، من خرير الماء وحفيف الورق ، الى أغاريد الطير واختلاج الأغصان . وما أن يرجع الى داره ويجلس الى البيانو حتى يبوح بما كشفته الطبيعة له من أسرار جماها وتصاوير اختياها .

كان لازماً إذن أن تكون زيارة بيت موزار أول شيء نعى به عقب هبوطنا سالسبورج ، والحق أن هذا البيت أصبح الكعبة الفنية التي يحج اليها كل من تذوق فن الموسيقى العظيم واهتز فؤاده بروعة ألحانه . ففى هذا البيت ولد - طفل المعجزات - ونشأ وأضاءت في أركانه نفسه الكبيرة ، فكان للعالم من أشراقها وتألقها أن تذوق الفن في أنبل صوره وأدق معانيه . وقد هياً لنا الحظ أثناء مقامنا بسالسبورج أن نشهد جزءاً من برنامج الموسم الموسيقي الذي يقام في سبتمبر من كل عام احياء لذكرى موزار ، ويشترك فيه عادة أوركسترا أوبرا فيينا الفيلهارموني وأقطاب الموسيقى العالميون .

من هذه الحفلات الموسيقية ماتقام في ساحة الكاتدرائية حيث يهرع الألوف من الناس اليها ، يرددون ألحان : المشتري وأعراس الفيجارو والقيثارة الطروب . وما يحتفل به في مسرح البلدية كاوربات فيجاروس ودون جوان وكوزى فان توت . ولا يقتصر الموسم على احياء فن موزار وحده بل هم يقيمون

حفلات تمثيلية شعبية ودينية ويعزفون الحان ريتشارد شتراوس
 وفاجنر وفرانس شوبرت ونوابغ الموسيقيين التمسويين المعاصرين .
 وكانت بادجشتاين خاتمة مطافنا في تيروال النمسا . ففي ذات
 صباح جميل نَحطينا سالسبورج بالاتويس بين جو سريع
 التقلب وطبيعة متغيرة . وحاولت أن أتزود بنظرة من فيض هذا
 البهاء وأودع هذه المناظر الفاتنة التي ألفتها أسبوعاً فاذا بالبصر
 يرتد حسيراً ، ومن يدري فلعلنا لانعود اليها كرة أخرى .
 من التجاوز أن تسمى بادجشتاين ضاحية أو قرية ، وإنما هي في
 الواقع اعظم مصحح عالمي ، وهي منذ مئات السنين قبلة الشفاء
 وملتقى هواة الرياضة الخلوية .

ولعل ميزة الفنادق في بادجشتاين انها مجهزة جميعا بالحمامات
 الساخنة التي تجرى فيها مادة الراديوم ، المجددة للشباب والنشاط
 والعافية . وقد نظمت الطرقات الى الغابات والسفوح والبحيرات
 بما يزيد في متاع المصطافين متاعا يدفعهم الي تقديس الجمال في
 إطاره الطبيعي . والحياة في بادجشتاين تختلف كل الاختلاف عنها في
 مصايف التيرول . ففيها دعة وراحة ، وميل الى الصمت وعكوف على
 التأمل ، واستغراق في سكرة هذه الحياة الراضية المطمئنة . فما
 ان تصعد الى فندقك في ذروة الجبل حتى تحس كأنك نفضت
 عن قدميك غبار العالم وتدرعت بالقبضة التي تقطع الصلة بينك وبين
 ماضيك ومستقبلك ، فتطلق نفسك من عقالها ، لتستقبل حياة كلها
 لذة بريئة واندماج في الطبيعة حتى تشاركها بعض مظاهرها .

ما كان أحلاها أيام التيرول ، حين كانت توقظنا انفاس
 الزهر ، فنغدو مع الطير الى الينابيع والثلاجات ، أو ننطلق الى الغابة
 لترتمى على صدر الطبيعة الحنون ! لكم وددت أن اقضى العمر
 في هذا الجو الذي تشيع فيه عذوبة الشباب والأمل ، حالما في بهجة
 هذا الفردوس المقيم . لست انسى حين فرض الطبيب على ان
 أتناول مقدار كذا من الجرعات ، فكنت أبكر إلى بعض هذه
 الينابيع وأحسو حسوات صغيرة من هذا الشراب السحري الذي
 يوحي صحة الابدان واستكمال أسباب العافية ويترك في أغوار
 النفس ظمأ العودة للورود من هذا المنهل العذب .

لقد انقضت على سياحة التيرول شهر ، وهأنذا جالس الى
 مكتبي بهليوبوليس أحاول تدوينها قبل ان تفر أشباحها بعيدة في
 وادي النسيان السحيق ، فيبتلعها جوف الماضي وينسدل عايمها حجاب
 السنين . وهل لنا من الحياة سوى هذه الذكريات الباسمة والسويحات
 الخالدة التي نحس حيالها كأننا عشناها عيشاً إنسانياً صحيحاً ؟
 أجل هذه هي الحياة يا صديقي القارئ ، فمن لم ينل نصيبه
 منها فكأنه لم يذوق طعم الحياة . ولكم يكرهني ان أطوى الحديث
 معك عنها ، لأستأنف الكتابة عن الرحلة الثانية ، ولكن أعدك بأن
 نتقابل قريباً على هذه الصفحات .

« تم الكتاب الأول »

هليوبوليس مايو سنة ١٩٣٦

تصويبات

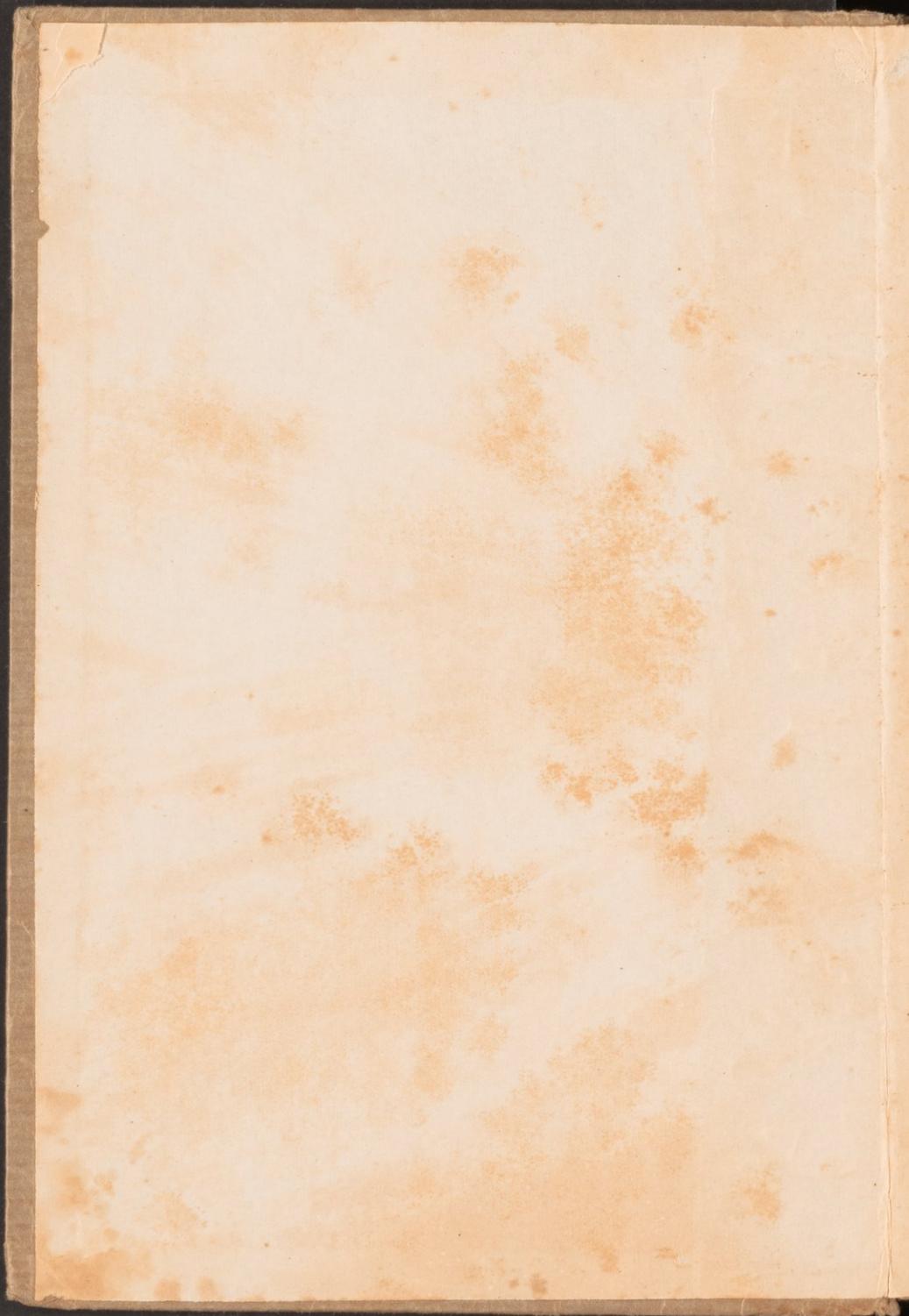
وقعت أغلاط مطبعية طفيفة في بعض النسخ نسجلها هنا :

| صواب | خطأ | ص |
|--------------------|------------------|-----|
| على اطلال الاكربول | في ظلال الاكربول | ١٢ |
| كي يتعهد هو | ليتعهد | ٤٩ |
| جلاله | جلالة | ٧٩ |
| يتمتع | يتمع | ١٠٠ |
| تعلم | يعلم | ١٠١ |
| نساءنا | نساءنا | ١١٢ |
| وأخري | أخري | ١١٣ |
| تجتازها | تجتازها | ١٢٩ |
| تحت | تحتت | ١٢٩ |
| سيدات | سدات | ١٣١ |
| أورقة | أورقة | ١٣٤ |
| القرى المجرية | القرون المجرية | ١٦٣ |



**Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University**





NYU - BOBST



31142 02346 4715

D921 .H26 1936

v.1

Wara al-bihar